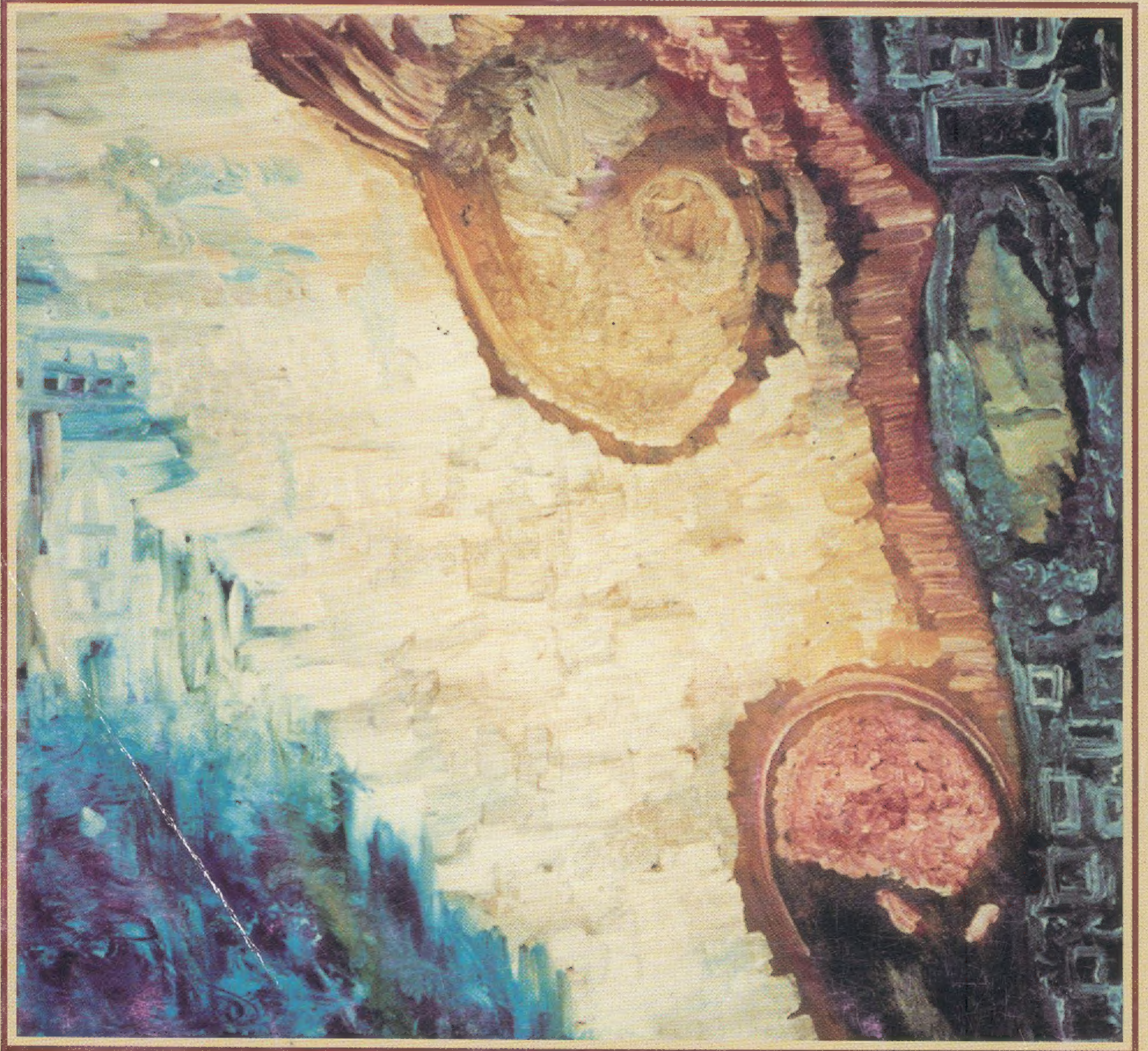




فكر علمي
ثقافة تقديمية

الثقافة العلمية





فكر علمي
ثقافة تقديمية

الوقفة الأدبية

رئيس التحرير: د. غانم حمدون

محرر "أدب وفن": مهدي محمد علي

مجلس التحرير

رائد فهمي، د. سامي خبالد، د. حمدان يوسف

د. صالح ياسر، عزيز سباهي، كامل شباع، هادي محمود

محتويات العدد

عباس النصراوي	5	- حول بعض جوانب العولمة/ مقابلة
صالح ياسر	11	- مساهمة في قراءة مشاريع ملتبة لحل القضية العراقية (٢ من ٢)
طلال الربيعي	21	- مشاكل نفسية عند اللاجئين وضحايا التعذيب
إسماعيل فتحي	30	- العمارة المعاصرة في بغداد - جذورها وتطورها
رشيد الخيون	47	- أهوار جنوب العراق عبر الرواية الاسلامية (٢ من ٢)
لطفلي حاتم	57	- التغيرات الدولية وإشكالية الكفاح الثوري
ديفيد رانسوم	68	- الاشتراكية البيئية
حميد الكعبي	76	- خاتمي: نصف دورة رئاسة

وثائق/ المجلس الحزبي العام الخامس

حشع	86	- البلاغ
حشع	87	- التقرير السياسي
حشع	123	- النداء

أدب وفن

مهدي محمد علي	126 - الذي يأتي ولا يأتي
عبد الإله الياسري	128 - خواطر على خواطر
صبري هاشم	133 - حوار مع الفنان منذر حلمي
رجاء أحمد الزنبوري	143 - تونوكيت با [قصة]
عدنان الزبيدي	146 - مساء ونارنج وأفكار عالية كالقمر [شعر]
جمال غبار	150 - بعيداً عن الغابة الزجاجية [شعر]
إبراهيم الجزائري	153 - لوحة تخطيطية
فارس قمرات	154 - إصغاءات تحت مظلة غريبة [شعر]
ناصر سرحان	156 - قصيدتان / لحظتان [شعر]
أحمد هاشم	158 - تجليات الداخل والخارج [شعر]
نجم حسن	160 - هاجس [شعر]
محمود سعيد	161 - سحر الذوبان في البيئة
مجيد القيسي	171 - عرض مسرحي في برلين
م. م. علي	174 - نحو القرن الحادي والعشرين

● لوحة الغلاف الأول: تضاريس، للفنان علاء محمد

● لوحة الغلاف الثاني: منظر من أهوار العراق

أغلق التحرير في أواخر آب ١٩٩٩

مقابلة مع د. عباس النصر اوي حول:

بعض جوانب العولمة

أثناء زيارة الأستاذ د. عباس النصر اوي لندن لحضور المؤتمر السنوي،
أواخر العام الماضي، للمنتدى الاقتصادي العراقي، الذي رأسه ثلاث سنيين،
أجرت (الثقافة الجديدة) معه حواراً حول بعض جوانب العولمة.

معلوم أن الدولة لعبت دوراً كبيراً سواء في توجيه أو في تخطيط الحياة الاقتصادية. لكن
العديد من الكتاب يقول إن العولمة، التي يتسع نطاقها، ما عادت تسمح للدولة بالتدخل
النافع في الاقتصاد. وهذا المنطق يقود الى الازعان والاستسلام للأمور الواقع، اليس
كذلك؟

هناك نقطتان بشأن دور الدولة. أولاً، ينحصر دورها في تنظيم النشاط الاقتصادي في
ظل العولمة التي تقتضي مثلاً إزالة القيود على حركة رؤوس الأموال بين البلدان، وكذلك
إطلاق الحرية للسوق، وما الى ذلك. لكن الدولة سيبقى لها دور هام في الحياة الاقتصادية.
وهذا ما يؤكد حتى تقرير (البنك الدولي) في الآونة الأخيرة، ربما في تقريره لسنة
١٩٩٧، فللدولة دور مهم مثلاً في البنى الارتكازية، والسياسات المالية والنقدية، وتنظيم
العلاقات التعاقدية، وحماية الملكية الخاصة. ولعل من الأهم دور الدولة في تعليم وتأهيل
قوى العمل، ودورها في توفير الخدمات الاجتماعية، وفي حماية البيئة من الخراب. ولهذه
الأمور أهمية اقتصادية سواء كانت عاجلة أو آجلة.

لعل ذلك يسري على البلدان المتقدمة اقتصادياً أكثر منه على بلداننا. فلنتحدث أولاً عن دور الدولة في التنمية في العالم الثالث.

من حيث التصنيف، هناك البلدان النامية حسب المفهوم التقليدي، والبلدان حديثة التصنيع في آسيا التي تسمى "النمور الآسيوية". فلم يكن بإمكان هذه "النمور" أن تصل هذا المستوى من التقدم الاقتصادي بدون الدور الأساسي الذي لعبته الدولة. وقد أشرت إلى أهمية هذا الدور في اللقاء السابق (أنظر العدد ٢٣ - ث جـ) فقد عملت الدولة على تشجيع الاستثمار والتصدير من قبل الشركات الكبرى التي رعتها الدولة من خلال الهيمنة الحكومية على البنوك، وكذلك من خلال السياسة الضريبية والتشريعات، الخ. كما أنها أجرت إصلاحاً زراعياً يوفر مناخاً أفضل للتصنيع..

البلدان النامية الأخرى بحاجة إلى دور الدولة بدرجة أكبر في الوقت الحاضر. فسيرورة التنمية فيها تحتاج حماية الصناعة المحلية من منافسة الشركات الأجنبية وكذلك تشجيع هذه الصناعة. فهذه البلدان بحاجة إلى دور المستثمر ودور المنظم أو الموجه، لكن إمكانيات القطاع المحلي المتواضعة لا تتيح له، من الناحية العملية، النهوض بمشاريع ضخمة، لذلك لابد من تولي الدولة مثل هذه المشاريع.

لكن هذا يتعارض مع متطلبات انخراط هذه البلدان في سياق العولمة، باعتبار الطريق الأوحده للتنمية كما يقال.

هناك إعادة نظر بهذا الشأن، بعد الأزمة التي ضربت جنوب شرق آسيا، فقد تراجع الحديث عن العولمة المطلقة. وحتى في أدبيات المؤسسات الدولية الهامة، التي دفعت العولمة إلى أمام، مثل صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، أخذنا نقرأ كلاماً يدور حول ضرورة تنظيم حركة رؤوس الأموال، خاصة حركة الأموال قصيرة المدى، وحول أهمية توفير حماية للطبقات التي تتضرر من العولمة والأزمة المالية والاقتصادية فالمهم أن دعاة العولمة يدركون الآن أنها لم تحقق النجاح الذي تتبأوا به. فالبنك الدولي يدعوا الآن إلى ضرورة توجيه التنمية الوجهة التي يشمل تأثيرها الطبقات الفقيرة أيضاً.

هذا يعني أن طروحات البنك الدولي صارت الآن إلى يسار طروحات الكتاب الذين يدعون إلى أن ترفع الدولة يدها تماماً عن الاقتصاد، وذلك كرد فعل لهيمنة الدولة على الاقتصاد في السابق، باعتبار تلك الهيمنة سبب الدكتاتورية في التجربة الاشتراكية وتجربة بلدان مثل العراق، حيث أهدرت الموارد الاقتصادية في غياب الرقابة التي توفرها الديمقراطية

السياسية. ولكن إزالة الضوابط والقيود على نشاط القطاع الخاص أدت في هذه البلدان الى انطلاق رأسمالية متوحشة تزيد الهوة بين الأثرياء والغالبية الكادحة التي يدفعها السخط واليأس الى تأييد الحركات والتيارات المعادية للديمقراطية التي تبشرها بالخلع العاجل من الفقر والعسف فور استلام السلطة.

دعاة العولمة لا يولون اهتماماً كبيراً للنتائج الاجتماعية للعولمة، اعتقاداً منهم أن العولمة تؤدي الى التقدم الاقتصادي الذي من شأنه، في آخر المطاف، رفع مستوى معيشة الفقراء أيضاً. قد يكون هذا صحيحاً على المدى الطويل، كما حصل في البلدان الصناعية المتقدمة بعد عشرات السنين من التصنيع. لكن فقراء اليوم لن يقبلوا الصبر عشرات السنين على المعاناة والتهميش الناجمين عن انطلاق الرأسمالية المتوحشة في ظل العولمة. لهذا أرى أن تدخل الدولة يمكن أن يحمي الفئات الأفقر من الآثار السلبية للعولمة، وذلك من خلال سياسات لإعادة توزيع الدخل من الأغنى الى الأفقر.

حتى في البلدان المتقدمة صناعياً هناك اليوم معارضة واسعة نسبية لإزالة كل القيود على النشاط الاقتصادي، وللدعاء بأن العولمة تشل دور الدولة الاقتصادي. فرغم طغيان الفكر الليبرالي الجديد، ليس من السهل القبول بسياسات تؤدي الى اتساع الفجوة بين السكان من حيث الثروة وتهميش نسبة منهم في دوامة البطالة المزمنة والآفات الاجتماعية المترتبة عليها. هيوز، أحد قادة الحزب الديمقراطي الحر في بريطانيا يقول إن بلادنا ذات مجتمعين: أثرياء وفقراء. أما دعاة العولمة فيقولون إنها جعلت الحكومات عاجزة، مثلاً، عن ضبط حركة رؤوس الأموال بين البلدان لأنها تجري من خلال أزرار الكمبيوتر.

هذه الحالة مدار جدل حار. فحجم الأموال التي تجتاز الحدود للمضاربة بالعملية وغيرها تبلغ ١٢٠٠ مليار دولار عالمياً في اليوم الواحد. إنها أموال تنشد الربح الخاطف من خلال المضاربة بالنقد الأجنبي والأسهم وبذلك تؤثر على مصائر شعوب وطبقات. المطالبة بإخضاع هذه الحركة مشروعة تماماً. فكيف توصلنا الى حجم هذه الأموال؟ طبعاً من خلال التقارير الرسمية للدول والمنظمات الدولية. فضبط حركتها ممكن تكنولوجياً وهذا يسري على الشركات متعددة الجنسيات أيضاً. وهناك إجراءات فعالة للحد من سلبية هذه الحركة. وقد اتخذت الصين وشميلي وماليزيا إجراءات ساعدتها على تفادي الانهيار المالي جراء المضاربات، هذا يسري على الشركات متعددة الجنسيات أيضاً. طبعاً دعاة

العولمة لا ترضيهم هذه الإجراءات. إذا أرادت الدولة حماية اقتصادها، فهي قادرة. في الستينات أرادت الإدارة الأمريكية حماية ميزان المدفوعات، فأصرت كل شركة أمريكية تريد استثمار أموال خارج أمريكا أن تحصل على موافقة مسبقة بذلك، هذا على سبيل المثال.

في بريطانيا تنادي حكومة توني بلير مثلاً بمرونة سوق العمل عن طريق تقليص الضوابط على التشغيل ضمن إجراءات جعل مناخ الاستثمار جذاباً للاستثمارات الأجنبية. وبالفعل جاءت استثمارات ألمانية ويابانية وكورية، وغيرها طبعاً، في الصناعة وقطاعات أخرى. كما أن هذه المرونة تمكن الشركات المحلية من الحفاظ على قدرة التنافس في الخارج. هذا يعني إبقاء الأجور والرواتب أوطأ منها فسي بلدان صناعية أخرى.

عاجلاً أو آجلاً ستعمل البلدان الأخرى على تطبيق ذات السياسة لحماية اقتصادها. ثم إن بريطانيا أو غيرها من البلدان الصناعية لا تستطيع منافسة البلدان النامية من حيث قلة الضرائب والأجور والرواتب وضعف ضوابط البيئة فيها.

نعود، بعد هذا الاستطراد، إلى هموم البلدان النامية. فقبل أزمة جنوب شرق آسيا كان يتردد شعار محاكاة "النمور الآسيوية" في تنمية مختلف البلدان النامية. فقد حققت النمور تنمية اقتصادية استثنائية طيلة عقود من السنين. فهل فقد هذا النموذج طريقه بعد الأزمة؟

كما ذكرنا في اللقاء السابق، فإن هذا النموذج نشأ في ظروف خاصة لم تعد قائمة الآن، إنها ظروف الحرب الباردة التي جعلت أمريكا وبقية الدول الغربية تشجع التنمية في بلدان اعتبرتها معرضة للتحويل إلى الاشتراكية ثم إننا عند الحديث عن هذه البلدان ينبغي ألا ننسى أن مجموع سكانها يشكل نسبة ضئيلة من مجموع سكان البلدان النامية. أضف إلى ذلك أن نموذج التنمية في النمور وصل إلى حدوده واصطدم بالواقع العالمي الجديد، اصطدم بالعولمة بعد انتهاء الحرب الباردة. وحتى لو فرضنا أن هذا النموذج ساد في العالم الثالث بأكمله، فإن العالم سيشهد زيادة هائلة في الإنتاج بينما الطاقات الإنتاجية حالياً في الدول الصناعية غير مستفدة كلياً، أي أن هناك طاقات عاطلة. وهكذا نرى أن البنك المركزي الأمريكي (الفيدرالي) سارع إلى تخفيض سعر الفائدة أثناء الأزمة الآسيوية وذلك بهدف حفز الشركات على الاقتراض والاستثمار لتفادي عدوى الأزمة.

في بريطانيا أيضاً خفض البنك المركزي سعر الفائدة عدة مرات لحفز الاقتصاد بعد أن ساد التشاؤم رجال الأعمال والمال أثناء الأزمة الآسيوية. وهكذا نرى أن العولمة لم تحرم الدولة من وسائل التدخل والتأثير على مسار الاقتصاد.

طبعاً، للدولة دور لن تتخلى عنه. فهي مثلاً تنظم سبل إنقاذ الشركات العملاقة من الإفلاس خوفاً من تداعيات انهيارها. ومن الأحداث البارزة في هذا الشأن مؤخراً تنظيم الإدارة الأمريكية لعملية انتشار The Hedge Fund في نيويورك من الانهيار. فنظم البنك المركزي (كونسورسيوم) من البنوك للاستثمار في تلك المؤسسة وإنقاذها من الإفلاس وتدابيرته على عموم الاقتصاد، ومن ثم تولى الإشراف عليها، هذا مع العلم أنها شركة خاصة عملاقة.

عطفاً على المقابلة السابقة، وليس بمعزل عن تداعيات العولمة التي نحن بصدها الآن، هل وصلت بلدان جنوب شرق آسيا قعر الأزمة الاقتصادية وباتت على وشك استئناف النمو الاقتصادي؟

ما نشر من تقارير عن المنطقة لا يدل على أن الانكماش قد توقف، وعلينا انتظار التقارير القادمة لرؤية الاتجاه الذي يسير عليه اقتصادها، في ظل العولمة. لقد حلت البطالة بملايين العاملين في المنطقة وتقلص الإنفاق الحكومي على الخدمات الضرورية، من صحة وتعليم وما إليهما، وكل ذلك أدى إلى هبوط المستوى الفعلي للمعيشة.

هذا على مستوى البلد الواحد. لكننا نلاحظ أن الفجوة بين الأثرياء والفقراء تتسع بين البلدان أيضاً بحيث يتفاقم تخلف العالم الثالث قياساً إلى البلدان الصناعية المتقدمة. فسهل ترى من أفق للتوجه إلى إعادة توزيع الموارد على نطاق العالم لوقف هذا التفاقم والشروع بتضييق الفجوة بين العالمين، خاصة وأن العديد من المثقفين الإنسانيين ينادون بمعالجة هذه المشكلة الخطيرة؟

أنا في الواقع غير متفائل. لنذكر أن ٨٥% من مجموع سكان العالم يعيشون في العالم الثالث مقابل ١٥% من المجموع في البلدان الصناعية التي تستهلك الجزء الأعظم من الإنتاج العالمي استهلاكاً فيه الكثير من الإسراف، في حين أن فقراء العالم الثالث تعوزهم أكثر متطلبات الحياة العصرية، إن لم تضربهم المجاعات. (الفرد الأمريكي، مثلاً، يستهلك بالمعدل ٥٥ مثل ما يستهلك الفرد في العالم الثالث) وذلك لأن ٧٥% من الإنتاج العالمي يستهلك من قبل الخمس عشرة بالمئة من سكان العالم، أي من سكان البلدان

المتقدمة كما يستفاد من إحصاءات الأمم المتحدة. حتى الآن لا نلمح توجهها ملموسا الى إعادة توزيع الموارد لصالح العالم الثالث. في سنوات قليلة من السبعينات، كانت بلدان أوبيك تحاول المبادرة بهذا الاتجاه. لكن المحاولة تلاشت لعوامل عديدة. مازال مليار من البشر يعيشون على ما يعادل دولارا واحدا في اليوم حسب تقرير البنك الدولي، وثلاثة مليارات من البشر يعيشون على أقل من دولارين يوميا.

النظرة السلبية لسيرورة العولمة تنطلق من تداعياتها الاقتصادية والاجتماعية حتى الآن. ولئن تجسدت العولمة في الاقتصاد قبل كل شيء، فإن لها، كما نعرف، آثارها الثقافية والسياسية حتى للبلدان المتخلفة اقتصاديا. لنأخذ، على سبيل المثال، دخول قنوات التلفزيون العالمية أسوار البيوت المحيطة بالمرأة في السعودية واليمن الشمالي، وذلك عبر الصحون اللاقطة. فلا بد أن تساعد هذه الظاهرة على يقظة المرأة، مثلا، وتحركها للمطالبة بالتححرر. ثم هناك النمو الهائل لمعرفة وخبرة الصغار. ولا ننسى، في سخطنا على الرأسمالية، والواقع المأساوي لعالمنا الثالث المبتلى بمساوئها، أن العولمة الاقتصادية لم تنطلق وتتسارع بدون الثورة العلمية التكنولوجية التي تجسد، في نهاية المطاف، تقدما للإنسان. فالمطلوب عدم الاستسلام أمام سلبيات العولمة بالعمل على تحويل عولمة رأس المال الى عولمة حقوق الإنسان الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية.

كإقتصادي، مختص بالدول النامية، لابد أن أركز الاهتمام على العقاقب الاقتصادية الوخيمة لمسار العولمة في العالم الثالث. وهذا ضروري لإشاعة الوعي اللازم لتحريك المقاومة لوجهة العولمة. وهي معركة شاقة طويلة المدى لأنها تمس مصالح الشركات الكبرى متعددة الجنسيات ودولها المستفيدة من العولمة والداعية الى سيادتها المطلقة. ومن الواضح أن للعولمة جوانب ثقافية وسياسية واجتماعية ايجابية، ولكن للعولمة الثقافية جوانبها السلبية كضياع الهوية الثقافية وما يؤدي ذلك، بالارتباط مع الإفقار واليأس في ظل العولمة، الى تنامي تيارات أشد رجعية. فينبغي تعبئة تيار ديمقراطي واسع محليا وعالميا للحد من سلبيات العولمة على حياة ومصائر الناس ولجم الشركات متعددة الجنسيات. فالعولمة واقع موضوعي ينبغي عدم الاستسلام أمام سلبياته.

مساهمة في قراءة مشاريع ملتبسة لحل القضية العراقية

(٢ من ٢)

د. صالح ياسر

المبحث الرابع: سيناريو الردع

ينطلق هذا السيناريو من فكرة أن النظام العراقي على الأرجح باق في الحكم. لذلك يدعو الى التعامل معه على أساس أن أي تحرش عراقي عسكري ضد القوات الأمريكية المتواجدة في منطقة الخليج، أو ضد أي من مصالح الولايات المتحدة، ومصالح حلفائها من شأنه أن يحمل الحكومة الأمريكية على القيام برد عسكري سريع ومكثف.

ثمة تحول إذن في الاستراتيجية الأمريكية فيما يتعلق بأولوياتها، إذ يلاحظ المرء أن سياسة الردع تنطلق من افتراض بأن العراق لم يعد (يشكل مشكلة للسياسة الخارجية للولايات المتحدة)، ولهذا يتعين على الولايات المتحدة التعامل مع أي تحد عراقي للمصالح الأمريكية ومصالح حلفائها بالتهديد بالقوة. وبعبارة أكثر وضوحاً فإن سياسة الردع تدافع عن عدم التأكيد على العراق كقضية في السياسة الخارجية الأمريكية وفي التعامل مع حلفاء أمريكا في مجلس الأمن الدولي. وهذا لا يعني إخراج العراق من جدول السياسة الخارجية الأمريكية في الأمم المتحدة، بل إن سياسة الردع تسعى الى إنهاء الحالة "الاستثنائية" للعراق بوضعه في سياق اهتمامات الولايات المتحدة العالمية حول نشر الأسلحة. وطبقاً لوجهة النظر هذه، فإن التهديد العراقي للمصالح الأمريكية قد بُولغ فيه وإنه قد أصبح في المستقبل عائقاً أمام علاقات واشنطن مع موسكو وباريس وبكين.

تهدف سياسة الردع الى إظهار تصميم ومقدرة الولايات المتحدة على توجيه رد عسكري مكثف لردع النظام العراقي عن مهاجمة جيرانه، وبالتالي فإن هذه السياسة تهدف إذن الى إرسال رسالة الى النظام العراقي بأن أي تحد عراقي لمصالح أمريكا وحلفائها في المنطقة سيواجه برد عسكري أمريكي سريع وكثيف بعيداً عن المجابهات السابقة على الورق أو المضايقات الصغيرة. ولتحقيق هذا الهدف نفترض سياسة الردع أن أي تهديد عسكري عراقي يمكن معالجته بقوة عسكرية حتى لو بنى العراق برامجه الخاصة بأسلحة الدمار الشامل.

وتتطلب سياسة الردع كي تحقق أهدافها أعلاه وجوداً عسكرياً أمريكياً في الخليج قوياً وعنيفاً. ويعتقد راسمو سياسة الردع أن أفضل وسيلة مناسبة لتنفيذ الردع هي العودة الى وجود عسكري أمريكي "وراء الأفق" بما في ذلك قوة عسكرية مرتبطة بتمرينات تشكل قوات برية وقوات جوية مناسبة.

ولكي تقوم سياسة الردع ببناء أساس نظري صلب يشكل مبرراً مقبولاً فإنها تتطلق من فرضية أن استراتيجية الاحتواء لم تعد قابلة للحياة على المدى الطويل للتعامل مع العراق. فقد كشفت تجربة الولايات المتحدة مع النظام العراقي ومنذ ٣١ آب ١٩٨٨ عندما دخلت قوات النظام العراقي مدينة أربيل أن استراتيجية الاحتواء ظلت تعاني من سلسلة من الضربات والعوائق، وكشفت في الوقت نفسه أن نظام الاحتواء بات يعاني من العديد من التحديات ساهمت في تآكل دعم الولايات المتحدة والدعم العربي للسياسة الأمريكية تجاه النظام العراقي. وقد كشفت الأشهر الأخيرة تنامي مزاج متصاعد مضاد لنظام العقوبات الذي تفرضه الأمم المتحدة بضغط قوي من الولايات المتحدة وحلفائها، والذي خلق مصاعب لا مبرر لها للشعب العراقي في حين. تبين أن قبضة صدام على السلطة لم تتأثر بنتيجة نظام العقوبات المذكور.

ويعني هذا أن الانتقال من سياسة الاحتواء الى سياسة الردع يجب أن يقترن بإجراء تعديلات على استراتيجية الاحتواء تطول الجوانب التالية:

أ- القبول باحتمال بقاء صدام حسين في السلطة وأن الجهود الرامية الى تقويض نظام حكمه هي جهود عقيمة ومثيرة للانقسامات، كما أن من غسير المحتمل الإبقاء على العقوبات الدولية ضد العراق.

ب- عدم التأكيد على أن العراق يشكل مشكلة للسياسة الخارجية الأمريكية مع حلفاء واشنطن في مجلس الأمن الدولي ووضع هذه المشكلة بدلاً من ذلك في سياق الاستراتيجية

العالمية الخاصة بمنع انتشار الأسلحة النووية.

ج- تشجيع ترتيبات أمن إقليمية أكثر قابلية للدعم والاستمرار.

د- ردع العراق بالتزام عسكري أمريكي واضح وموثوق به.

يؤكد راسمو سياسة الردع على أنها متسمح لواشنطن بجني العديد من الفوائد من

بينها:

* الاحتفاظ بالمبادرة في سياستها تجاه العراق. فعلى عكس سياسة الاحتواء التي هي سياسة دفاعية وسياسة رد فعل تعطي المبادرة لصدام حسين نجد أن الردع يقدم للنظام العراقي توجيهات واضحة حول ما هو مقبول في مسلكه من وجهة النظر الأمريكية.

* إزاحة العراق كمسألة تؤدي الى الانقسام بين حلفاء أمريكا في الأمم المتحدة، وبين أمريكا وحلفائها العرب.

* تشجيع التنازلات العراقية.

* نبذ خيار المؤتمر الوطني العراقي، حيث يعترف راسمو سياسة الردع بأن دعم الولايات المتحدة للمؤتمر المذكور باعتباره "قوة المعارضة المشروعة" يمثل سياسة خادعة ليس لها دور في التأثير في التطورات داخل العراق.

* التقليل من الانتباه الموجه الى صدام في السياسات المحلية.

* تخفيض التكاليف.

غير أنه وبالرغم من الفوائد المذكورة أعلاه لسياسة الردع فإن هذه السياسة تثير العديد من المخاطر والاحتمالات التي يصفها المتخصصون بهذه السياسة بما يلي:

* سيكون على أمريكا والعالم مواصلة العيش مع صدام، حيث سيتم بموجب هذه السياسة إهمال الدكتاتور العراقي وطبيعة نظام حكمه من أجل تأكيد سيادة "السلوك" العراقي في حسابات السياسة الخارجية الأمريكية.

* يمكن لسياسة الردع أن تؤدي الى تآكل سياسة الاحتواء.

* بوسع الدول الإقليمية استرضاء العراق واستيعابه.

ملاحظات انتقادية

١- تتضمن سياسة الردع تحولاً مهماً يتمثل بقضيتين اثنتين مهمتين. الأولى هي قبول هذه السياسة بحقيقة بقاء صدام حسين في السلطة في المستقبل المنظور، ويعني ذلك أن إسقاط النظام العراقي لم يعد مهمة آنية مطروحة على جدول أعمال سياسة الردع. أما

الثانية فتمثل في أن العراق لم يعد يشكل مشكلة للسياسة الخارجية للولايات المتحدة بل يتعين وضع هذه المشكلة في سياق الاستراتيجية العالمية الخاصة بمنع انتشار الأسلحة النووية. إذا دفعنا هذه الأطروحة الى نهايتها المنطقية أمكننا التوصل الى استنتاج خطير وبالغ الأهمية والوضوح والبساطة وقوامه أن سلوك العراق خارج حدوده هو الذي يشكل الاهتمام الحقيقي للسياسة الخارجية الأمريكية في إطار استراتيجية الردع، أي أن هذه الاستراتيجية يمكنها أن تتغاضى عن جرائم النظام الدكتاتوري تجاه الشعب العراقي. والخلاصة بسيطة من ذلك: إن خيار الردع غير معني بالدرجة الأولى برحيل النظام العراقي الحالي!

٢- سياسة الردع هي سياسة محفوفة بالمخاطر وتواجه العديد من القيود والعوائق الإقليمية والدولية، ويمكن للمبالغة فيها أن تؤدي الى تداعيات خطيرة في المنطقة لجهة التأثير على المصالح الأمريكية الأساسية. ويمكن لتطبيقها الفعال أن يؤدي الى فرط العديد من التحالفات التي عقدتها الولايات المتحدة مع دول عديدة. ولا يمكن لرأسمي السياسة الأمريكية أن يراهنوا على هذا الخيار بشكل فعال نظرا لكونه يهدد بانفراط عقد التحالف الدولي ضد العراق مما يتطلب من الولايات المتحدة اللجوء الى مقايضات كثيرة في مجالات أخرى من مجالات السياسة الخارجية الأمريكية. وهنا سينشأ نوع من التعارض بين ضرورة الحفاظ على قطب أحادي الجانب يعيد إنتاج السياسة الدولية "على هواه"، وبين إمكانية تبلور قوى أخرى تشكل مصدر خطورة على هذا القطب وإمكانية انفتاح الأفق لتحالفات جدية ومواقع قوى جديدة لا تقبل بها الولايات المتحدة ولا تسمح بها.

٣- إن سياسة الردع باستخدام القوة العسكرية تتطلب وجودا دائما لقوى عسكرية ضاربة ولو محدودة للولايات المتحدة، ويعني ذلك تكلفة إضافية تتطلب الإجابة عن سؤال: من سيقوم بتمويلها؟

المبحث الخامس: سيناريو الغزو والاحتلال

هذا الخيار هو الخيار الوحيد من بين الخيارات الأخرى الذي تكون فيه الولايات المتحدة هي نفسها المقرر الرئيسي للنتيجة. إن غزو العراق واحتلاله يمثل حلا مفروضا وليس حلا عن طريق التفاوض. نظرا لأن سياسة الغزو والاحتلال تمثل تصعيدا خطيرا وخيارا متطرفا فإنه يعني أن هناك تغيرا في طبيعة الأهداف التي تروم هذه السياسة تحقيقها. هدف هذه السياسة بحسب مصمميهاء، إذن، هو إزاحة صدام حسين ونظامه من

السلطة في العراق وتتصيب حكومة عراقية ملتزمة بالمعايير الدولية والتعايش السلمي مع جيرانها، أي هزم النظام الراهن واحتلال العراق وإقامة سلطة دولية على أراضيه. إن وضوح هذا الهدف يفترض لنجاحه وضوح الوسيلة. وعلى افتراض أن صدام حسين والجيش العراقي سيقاومان الهدف أعلاه، فإنه لا بد من تحقيقه بالقوة بشكل عام والاستخدام الهجومي للقوات العسكرية الأمريكية والحليفة بشكل خاص. إن مهمة قوات التحالف، بحسب هذا السيناريو، ستكون احتلال كامل العراق والاشتباك مع أي قوة عسكرية عراقية أو جميع القوات التي تقاوم الغزو وإلحاق الهزيمة بها. وستشكل وحدات الحرس الجمهوري والحرس الجمهوري الخاص مركز تركيز الحملة. وبغض النظر عن المجوى والأشكال التي تتخذها حملة من هذا النوع اعتماداً على الظروف الملموسة التي تتطور فيها الأوضاع، فإن مصممي سيناريو الغزو يلحّون على أن أي حملة يجب أن تتبع المبادئ التالية:

* أن تحظى بتأييد دولي وضرورة توفر الحد الأدنى من التعاون العسكري والموافقة السياسية من دول أخرى على المسرح الدولي، كما يجب أن تؤيد الحملة بنشاط من جانب الحلفاء الرئيسيين في المنطقة.

* لا بد لهذه الحملة أن تحظى بتأييد من الكونغرس والرأي العام الأمريكي.

ينبغي ربط الأهداف العسكرية للحملة بشكل شامل مع الأهداف السياسية بحيث يستتبع تحقيق الأهداف العسكرية إنجاز الأهداف السياسية أيضاً، هذا إضافة إلى ضرورة أن تحدد الأهداف العسكرية والسياسية بوضوح، وتكون حاسمة ويمكن تحقيقها ودعمها واستمرارها.

* يجب على الولايات المتحدة أن لا تمضي عقوداً من السنين وهي تحتل العراق وتعيد صياغته كما فعلت في ألمانيا واليابان بعد الحرب العالمية الثانية، كما أنها ينبغي أن لا تترك البلاد بسرعة بعد إزاحة صدام.

يشير مهندسو سيناريو الغزو إلى أن حملة غزو واحتلال العراق ستحدث على أربع مراحل، مؤكداً على أن تحقيق هدف الحملة وإزاحة نظام صدام حسين من السلطة يجب أن لا يستبعد احتلال العراق وإقامة حكومة انتقالية جديدة.

إن مراحل الحملة هي:

- المرحلة الأولى: الانتشار الأولي،

- المرحلة الثانية: الحشد والهجوم الجوي،

- المرحلة الثالثة: الغزو وتتكون من عملية الغزو الفعلي للعراق وهزيمة وحدات الحرس الجمهوري والاستيلاء على بغداد.

- المرحلة الرابعة: الاحتلال وتبدأ هذه المرحلة مع نهاية المقاومة العسكرية العراقية لقوات التحالف.

إن مرحلة الاحتلال بحسب هذا السيناريو تتألف من ثلاث مراحل فرعية وهي:
أ- مرحلة الاحتلال الأولي: في هذه المرحلة تشكل قوات التحالف العسكرية السلطة الحاكمة في العراق المحتل. وستكون مكلفة بالدفاع عن وحدة الأراضي العراقية والحفاظ على النظام العام ومسؤولية عن تقديم كافة الخدمات. تنتهي هذه الحملة بتسليم السلطة إلى السلطة الانتقالية الدولية. والوقت المقدر لذلك تسعة أشهر.

ب- مرحلة انتقالية: في هذه المرحلة ستكون السلطة الانتقالية الدولية هي السلطة الحاكمة في العراق يساعدها في إنفاذ سلطاتها قوات الاحتلال الموجودة. هذه المرحلة ستنتهي بإجراء انتخابات عراقية وبالإعتراف الدولي وتأكيد وجود الحكومة العراقية الجديدة. والوقت المقدر لهذه المرحلة هو من سنتين إلى خمس سنوات.

ج- مرحلة تنصيب حكومة عراقية جديدة: في هذه المرحلة سيتم تنصيب الحكومة العراقية الجديدة وتبدأ قوات الاحتلال انسحابها النهائي. تنتهي هذه المرحلة عندما تتخلى السلطة الانتقالية عن كل مهمات الحكم إلى حكومة ذات سيادة.

وخلال هذه المراحل كلها ستكون القوات العسكرية الأمريكية مسؤولة بصورة رئيسة عن الأمن والنظام العام في العراق. ومن جهة أخرى فإن عملية الغزو والتواجد العسكري الذي يليها يتطلب إنفاقاً هائلاً وبالتالي ينطرح سؤال مهم هو: كيف سيتم تسديد هذه التكاليف، أو ما هو مصدر التمويل؟

يجيب راسمو هذا السيناريو بوضوح: الحل واضح هو استخدام عائدات العراق من صادراته النفطية لتمويل احتلاله.

ومبرر هذا السيناريو رغم ما يثيره من تحديات عديدة هو الفوائد التي سيحققها بالنسبة للمنطقة والعالم والولايات المتحدة. ولهذا يعتقد مهندسو هذا السيناريو بأنه سيجلب الفوائد التالية:

* سيكون خياراً شاملاً وحاسماً، فلن يتم إقصاء صدام حسين ونظام حكمه فحسب، بل إن الولايات المتحدة ستضمن وجود حكومة عراقية لا تهدد جيرانها قبل تركها المنطقة.

- * إن الغزو يجعل هزيمة قوات صدام حسين أمراً قابلاً للتحقق على الرغم من أن الغزو ستكون له تكلفة كبيرة وينطوي على تحولات غير متوقعة للأحداث.
- * تحرير العراق من حكم صدام حسين ومن العقوبات الاقتصادية المدمرة المفروضة من جانب الأسرة الدولية.
- * تحويل العراق إلى شريك اقتصادي مهم في المنطقة ومفتوح للشركات الأمريكية، إذ تستطيع هذه الشركات أن تجني أرباحاً كبيرة إذا أعيد فتح سوق النفط العراقي بعد الغزو.
- * كشف وتدمير قدرة العراق من أسلحة الدمار الشامل، مما يساهم مساهمة كبيرة في السلام والاستقرار في المنطقة.
- * معاقبة دكتاتور خارج على القانون، ويعني ذلك إزاحة مصدر رئيسي للاحتكاك مع حلفاء الولايات المتحدة سواء في المنطقة أو في مجلس الأمن الدولي.
- غير أنه وبالرغم من الفوائد المذكورة أعلاه والتي سيجنيها هذا السيناريو فإن اتباع سياسة الغزو والاحتلال يمكن أن يؤدي إلى المزيد من الصعوبات لصناع السياسة والجيش الأمريكي:
- * هناك إمكانية بأن يرد صدام حسين بأسلحة الدمار الشامل، وهذا قد يؤدي إلى خسائر بشرية كبيرة ويجبر الولايات المتحدة على الرد بوسائل قد لا تفضل استخدامها في ظروف عادية.
- * إن نهاية اللعبة في العراق تبدو خادعة، إذ يمكن أن تغوص الولايات المتحدة في أوحال العراق وهي تحاول إدارته.
- * قد لا يكون الغزو مقبولا في الشارع العربي، ويمكن أن يستحضر صور الاستعمار الجديد.
- * يمكن أن توسع الولايات المتحدة بأنها مستأسدة على من هو أضعف منها على الصعيد الدولي مما قد يحفز الدول الكبرى الأخرى على التجمع لمعارضة التفرد الأمريكي.
- * ستكون هذه العملية باهظة التكاليف.
- * إذا حققت العملية كافة أهدافها فإن حاجة الدول الخليجية للأسلحة ستقل، وتبعاً لذلك فإن مصانع الأسلحة في الولايات المتحدة يمكن أن تعاني من وضع الكساد.

ملاحظات انتقادية

١- يبدو أن هناك تناقضا بين الهدف الظاهري لحملة الغزو وهدفها الفعلي. فهدف الحملة المعلن هو إزاحة نظام صدام حسين من السلطة ويمكن أن يتحقق في أي مرحلة من مراحل الحملة ولكن تحقيق هذه الإمكانية لا يعني بالضرورة إيقاف الحملة، فهدفها النهائي هو احتلال العراق وإقامة حكومة انتقالية. ومن المؤكد أن هذه الحكومة لن تكون بدون لون فهي يجب أن تكون مصممة على المقاسات الأمريكية فقط. فليس المطلوب رحيل صدام /الهدف المرحلي للحملة بل الأهم من ذلك الهدف الاستراتيجي/ الإتيان ببديل يطمئن المصالح الاستراتيجية للولايات المتحدة في منطقة حيوية.

٢- يمكن اعتبار هذا الخيار، وبدون أدنى شك، خيارا كارثيا على بلادنا وشعبنا، لأنه لا يتحدث عن استعمال القوة العسكرية كخيار لدعم الدبلوماسية بل يعتمد على خيار فعلي لحل أزمة النظام الراهن. ومن جهة ثانية يبسط هذا السيناريو قضية الغزو ويتعامل مع النظام الدكتاتوري بمزيد من التبسيط، ويبدو أن هذا الخيار متأثر بموديلات التدخل التي اعتمدتها الولايات المتحدة في بلدان أمريكا اللاتينية، وهي مقاربة خاطئة على أي حال، هذا إضافة إلى أنه من المفيد الإشارة إلى أن القوة الجوية لم تكن قط عاملا حاسما في استسلام أي نظام، كما أثبتت التجارب التاريخية في مناطق أخرى من العالم (فيتنام وكمبوديا ولاوس على سبيل المثال). وباختصار، إن نظرية القصف الجوي المكثف - في أفضل الأحوال - غير موثوق بنتائجها.

٣- كما أن هذا السيناريو يفترض استمرار وجود التحالف الدولي الذي تنطلق منه عملية الغزو، أي أن نظريته لتطور الأحداث نظرة ستنائية في حين أن عمليات من هذا النوع ذات طبيعة ديناميكية ومتطورة وتقترب بالمزيد من التعقيدات وردود الفعل غير المتوقعة من طرف شعوب البلدان العربية، إضافة إلى ردود فعل القوى الإقليمية المجاورة، وتحديدا إيران وسوريا على سبيل المثال، التي لن يقف مكتوف الأيدي تجاه عمليات عسكرية تجري في بلد مجاور لها، وهذه العمليات تقودها الولايات المتحدة الأمريكية. إن القرار الأمريكي بغزو دولة ذات سيادة وإقصاء حاكمها سيضيف المزيد من التعقيدات إلى الوضع الجيوسياسي الهش أصلا والقابل للاشتعال في منطقة مصالحة حيوية تهم أطرافاً دولية عديدة، وبالتالي فإن لهذا السيناريو تداعيات إضافية تتجاوز الحدود العراقية.

٤- يبدو أن مهندسي هذا السيناريو مهوسون بتجربة غزو خليج الخنازير في كوبا عام ١٩٦٢، ويعتقدون بإمكانية تكرارها في غزو العراق، والإطاحة بالنظام العراقي، والإتيان ببديل موال للولايات المتحدة يصل ممثلوه على حراب ودبابات الولايات المتحدة. وقد تبلور الإطار النظري لسيناريو الغزو على الطريقة الكويتية بوضوح بارز في مقال بارز نشرته الفصلية الأمريكية المعروفة "فورن أفيرز" في عدد كانون الثاني - شباط/ ١٩٩٩ وبعنوان عريض: هل يمكن إسقاط صدام؟

يقول كاتبو المقال المذكور إن "الفكرة الكويتية" في المسألة العراقية فكرة بسيطة وتقوم على فرضية أن على الولايات المتحدة أن ترفض نهائياً قبول استمرار صدام حسين في السلطة، وأن تؤيد إبدال حكمه بالمعارضة العراقية، أي العودة الى ما قبل الأزمة مع صدام وليس احتواء صدام بوضعه الجديد. وبعبارة أخرى تخفيض أهميته وخفض سعره. هذا التصور خاطئ من أساسه لأنه يقوم على مقارنة خاطئة بسبب اختلاف المكان والظروف التاريخية، وكون المنطقة تتضمن الجزء الأعظم من الاحتياطي البترولي العالمي، ولا يمكن التنبؤ بردود الفعل المحتملة من وراء عملية من هذا النوع، هذا إضافة للطبيعة الطبوغرافية المنبسطة للأراضي العراقية، والانتشار السكاني الواسع، والمدن المتناثرة على طول الطريق من الجنوب حتى بغداد، الأمر الذي يجعل من هذه المهمة عسيرة جداً إن لم تكن مستحيلة التحقيق في ضوء الظروف أعلاه. ولهذا فإن سيناريو الغزو، وبغض النظر عن مغرياته ومبرراته التي تقدمها دوائر صناعته، يتضمن العديد من المخاطر ليس فقط على استقرار المنطقة ولكن بالنسبة لنظام الأمم المتحدة ذاته.

الخلاصة الإجمالية

١- إن سياسة الولايات المتحدة تجاه النظام العراقي غير فعالة، وهي مجرد استراتيجية احتواء تساندها القوة العسكرية. ويشير تطور الأحداث الى أنه لا يوجد هناك خيار محدد متوفر وقابل على التحقيق.

٢- إن الولايات المتحدة لا تمارس سياسة محددة تجاه العراق بل تقوم بمحاولات لإرغام العراق للامتثال لقرارات الأمم المتحدة، وأن أي من هذه المحاولات أو التهديدات باستخدام القوة أو لاستخدامها فعلا لا يشكل سياسة.

٣- تتضمن السيناريوهات المختلفة أهدافا متناقضة، ولهذا فإن الولايات المتحدة لا تمتلك استراتيجية لتغير النظام العراقي بل تهدف الى إجراء تغيير في النظام.

لقد أشار هنري كيسنجر وزير الخارجية الأمريكي الأسبق الى ملاحظة لمحة حول ما يتوقعه من نتائج الصراع مع النظام العراقي، حيث قال: على الأغلب فإن أمريكا ستكسب كل المعارك ضده ولكنها ستخسر الحرب في النهاية. ومن المفيد الإشارة الى أن هذه الملاحظة لا تعني أن نظام صدام حسين قوي بما فيه الكفاية، ولكن لأن الولايات المتحدة لا تمتلك لحد هذه اللحظة استراتيجية واضحة ومحددة ولموسة لإسقاط النظام العراقي، على عكس ما يريده الإعلام وجوقة المروجين لانتصار قادم على دبابه أمريكية قادمة في نزهة حربية الى بغداد لمعاقبة صدام وتصيب حكومة عراقية جديدة تطمئن مصالح الولايات المتحدة في المنطقة وإزالة مخاوف وكوابيس الأنظمة المجاورة التي جلبها لها صدام حسين!

شباط / ١٩٩٩

مشاكل نفسية عند اللاجئين وضحايا التعذيب

طلال الربيعي*

من العواقب الوخيمة لنهج الدكتاتورية تدفق أعداد هائلة من العراقيين الى الخارج سعياً وراء الخلاص من المحنة المتفاقمة. وتتباين تقديرات عدد هؤلاء بين المليون والثلاثة ملايين. ومنهم كثيرون قد ذاقوا أشكال الاضطهاد، وأقساها تعرضهم للاعتقال والتعذيب بنفيا أو نفسيا. ولئن كانت الغربية، بحد ذاتها، "مهلة شاقة" كما وصفها الشاعر التركي الأشهر، ناظم حكمت، وهو يعاني مرارتها، فإن ضحايا التعذيب والسجن يحملون معهم الى ديار اللجوء مشاكل نفسية خاصة تميزهم عن زملاء الغربية. المقالة أدناه تلقي الضوء بإيجاز على أهم المشاكل النفسية عند ضحايا الاضطهاد في غربتهم عن الوطن.

"الثقافة الجديدة"

الآثار النفسية

يبدو تقسيم التعذيب الى جسدي ونفسي تقسيما مصطنعا الى حد ما، لأن ما يؤلم الجسد يؤدي النفس والعكس قد يكون صحيحا. إن المشاكل أو الاضطرابات النفسية بسبب التعذيب تختلف كثيرا من شخص الى آخر اعتمادا على نوع التعذيب، مدته، التركيبية

* طبيب عراقي مختص بالعلاج النفسي، مقيم في لندن.

النفسية للشخص وغيرها. إن ضرب الرأس مثلا قد يؤدي الى تلف الدماغ وحدوث اضطرابات نفسية، كما أن ذلك قد يسبب أمراضا عضوية كالجلطة الدماغية أو الشلل الرعاشي، مما قد يؤدي الى فقدان القدرات الذهنية، إضافة الى الكآبة، بل حتى أعراض انفصام الشخصية في حالة الإصابة بنوع من الصرع. والعديد من الذين يتعرضون لضرب الرأس يصابون بـ "عدم الاستقرار العصبي ما بعد الإصابة" ومن أعراضه الصداع، الدوران، الإرهاق، ضعف التركيز، القلق والتوتر. وقد تستمر الأعراض أشهرا أو سنوات. إن طول السجن قد يسبب اضطرابات نفسية جراد تلف الدماغ بسبب نقص الفيتامينات (وخصوصا فيتامين ب) أو فقر الدم. إن التسميم بالثاليوم مثلا قد يؤدي الى أعراض مشابهة.

التعذيب الذي لا يؤثر مباشرة على الدماغ قد يؤدي أيضا الى اضطرابات نفسية غير مباشرة، فإصابات الحبل الشوكي قد تسبب فقدان القدرة على التحكم بالتبول والتغوط أو شلل أعضاء الجسم. كل ذلك قد يعيق كفاءة الشخص في الحركة وكسب العيش بعد السجن، وقد يسبب كذلك ارتباكا كبيرا في حياته الاجتماعية والجنسية والقدرة على التمتع بالحياة. والتعذيب قد يخلف تشوهات بدنية تسبب نقص الثقة في النفس أو الشعور بالإحباط والكآبة مما قد يؤدي حتى الى الانتحار. إن الاغتصاب يحدث شعورا بالذل ويؤثر سلبا على الحياة الاجتماعية والجنسية، وقد يؤدي الى الحمل أو أمراض تناسلية. بعض الذكور عند اغتصابهم قد يساورهم الخوف (غير المبرر) من التحول في ميولهم الجنسية. وبالطبع قد يؤدي السجن بحد ذاته الى اضطرابات نفسية مثل الشعور بالغبن والكآبة بسبب الانقطاع عن الأهل والتخلف في التطور المهني. أما عائلة السجين فقد يصيبها العوز إذا كان هو معيها. كل هذا قد يؤدي الشخص نفسيا حتى بعد إطلاق سراحه مثل زعزعة الثقة بالآخرين مما قد يربك العلاقات العائلية والاجتماعية. وإن مشاهدة التعذيب قد تؤدي الى إصابة المشاهد بميول عدوانية وعنفية تجاه الأقرباء والأصدقاء دونما سبب واضح، وهكذا فإن السجن لفترة طويلة قد يؤدي الى خلل دائم في الشخصية.

الاضطراب الإجهادي ما بعد الصدمة

وهو يحدث في الذين تعرضوا الى صدمات جسدية أو نفسية، ومن أعراضه تذكر الصدمة بشكل لاإرادي، قلق، أحلام مفرعة، صعوبة الإغفاء، ضعف التركيز، نوبات من العنف، وكذلك الشعور والتصرف وكأن الصدمة مازالت مستمرة. وهذا الاضطراب

يحصل عادة خلال الستة أشهر الأولى بعد الصدمة، ولكن قد يظهر هذا الاضطراب بعد سنوات، وقد يختفي ثم يظهر بعد ١٥ - ٢٥ سنة.

يرى باحثون عديدون أن هذا الاضطراب يشمل جميع الأعراض النفسية لكل من يتعرض لتجربة قاسية أو صدمة كبيرة. كذلك فإن أعراض الكآبة أو انفصام الشخصية يدرجونها ضمن هذا الاضطراب، أي أن هذا التشخيص هو بديل عن تشخيص الإصابة بانفصام الشخصية الذي له آثار نفسية واجتماعية سلبية على الشخص. إن هذا الفهم ينسجم مع مقولات الفيلسوف واختصاصي الاضطرابات النفسية (فوكو) الذي يفسر الاضطرابات النفسية على أساس تاريخي - اجتماعي، وهو يُعتبر متفقاً في ذلك مع أطروحات الماركسية الحديثة.

اللاجئ وجذوره

إن اجتثاث اللاجئ من جذوره بانتقاله الى بيئة غريبة في عاداتها وتقاليدها يمر بثلاث مراحل. الأولى عند مغادرته الوطن آملاً بالرجوع بعد فترة قصيرة، ويصاحب ذلك في العادة متاعب نفسية وحتى جسدية أحياناً. الثانية تبدأ بالوصول الى بلد اللجوء حتى حصوله على الموافقة، وفي الأيام الأولى يشعر ببعض الراحة لأنه في مكان آمن. بعد فترة قصيرة أو طويلة يبدأ الشعور بالتضايق والانزعاج بسبب تعقيدات معاملة اللجوء أو العيش في معسكر اللاجئين وعدم القدرة على العمل. عدم الاستقرار هذا يولد قلقاً كبيراً وخوفاً من رفض الطلب وإعادته الى بلده، لذلك قد يشعر بالسخط والعجز والحزن، وقد تظهر لديه دوافع تدميرية ضارة بالنفس أو بالآخرين ولها أثر سلبي على تأقلمه من خلال تعلم اللغة وإقامة علاقات اجتماعية. المرحلة الثالثة تبدأ بعد الموافقة على اللجوء فيشعر اللاجئ براحة واندفاع للعمل والتأقلم مع الحياة الجديدة، ولكنه قد يصادف مصاعب الحصول على عمل أو سكن مما يثير السخط والإحباط من جديد. لكن الاجتثاث من الجذور قد يكون له مردود إيجابي بتوسيع المعارف والحصول على مؤهلات جديدة. ولا بد من القول إن هذه المراحل تتداخل مع بعضها فلا نجد خطأ يفصل بينها فصلاً تاماً.

الصدمة الحضارية

ترتبط الصدمة الحضارية بمسألة الاجتثاث المذكورة أعلاه، ولكن ما يميزها هو الجيشان العاطفي وتخلخل في القناعة والهوية الحضارية. قد تقتصر الصدمة على الشعور

بالاستغراب فقط أو قد تكون شديدة الوطأة. الصدمة تعني:

(١) فقدان محبة وتقدير الأهل والأصدقاء.

(٢) فقدان المنزل الاجتماعية.

(٣) فقدان النسيج الاجتماعي الذي يضيء على الحياة نكهة ومضموناً.

والعيش في الغربة قد يولد صراعات نفسية داخلية أو مع الآخرين. الداخلية سببها اختلاف القيم وضرورة التأقلم معها، ويمكن التغلب على هذه الصراعات بالحوار والاتصال مع الآخرين، ولكن اختلاف اللغة وأنماط السلوك قد يعيق مثل هذا التواصل. فالشرقي مثلاً يميل إلى تجنب النظر في عين المقابل مباشرة مما ينم عن قلّة الاحترام للمقابل. ويختلف تأثير الصدمة الحضارية نسبة إلى جنس الفرد. فالرجال اللاجئين لم يألفوا تماماً احتلال نساء مراكز إدارية عالية، وتشعر اللاجنات بالعزلة أكثر من الرجال بفقدان الأقرباء والجيران لترجيّة أوقات الفراغ والمساعدة في رعاية الأطفال. وللمرأة الغربية فرص أوسع، وعندما تحاول اللجئة الاستفادة منها قد تنشأ خلافات مع زوجها لشعوره بضعف أو فقدان مركزه كربّ العائلة، مما قد يؤدي أحياناً حتى إلى الطلاق.

التأقلم ومشاكله

قد لا ترقى مشاكل التأقلم إلى مستوى مشاكل الصدمة الحضارية، لكنها قد تسبب إجهاداً وتوتراً. فبالإضافة إلى اختلاف الطقس والطبيعة هنالك اختلاف في العادات والتقاليد. فقد اعتاد الشرقي مثلاً على قضاء أوقات الفراغ بصحبة الأقرباء والأصدقاء إذا ما شاء ذلك. أما في الغرب فيضطر اللجئ إلى اكتساب مهارات اجتماعية للحصول على الصحبة وعليه أيضاً أن يعتاد على قضاء وقت طويل بمفرده.

في الغرب لا توجد ضوابط عامة للعلاقات الجنسية بل يقررها الأشخاص المعنيون، أما في مجتمعاتنا فهي محكومة بنقل الأعراف والعادات. هنالك اختلاف في معاملة الضيف والتعامل مع الحيوانات، تعامللاً قد يعتبره الشرقي مفرطاً ومخالفاً لقواعد النظافة (باعتبار الكلب وغيره من الحيوانات نجساً). ويشعر الشرقي بالخجل والحرص إذا تناولت وسائل الإعلام مناقشة الأمور بصراحة، فقد اعتدنا تحاشي طرح الرأي المخالف وعدم الخوض في الأمور الشخصية علناً. والفوارق الحضارية قد تسبب للّجئ تردداً قبل الإقدام على خطوة بسيطة لتحاشي الحرج. كل هذا يستنزف طاقته ويقلل من متعة الحدث بسبب فقدان التلقائية، مما قد يقلص اختلاطه مع أهل البلد، فيزداد التأقلم صعوبة. أضف إلى كل هذا أن اللجئ لا

يجد الاحترام دوماً في الغرب ويواجه مشاكل العنصرية وكرهية الأجنبي، فبعض سكان البلد يعتبر اللاجئين كسولا لا تهمه سوى الإعانات الاجتماعية. ولكنهم أيضاً يعتبرون اللاجئين مسؤولين عن البطالة لتصورهم أنهم يحلون محلهم في العمل وقد يعتبرون موطن اللاجئين متخلفاً وغير متحضر مما يثير سخط وحزن اللاجئين. والحاجز اللغوي يزيد الاختلاط صعوبة. ثم إن اللاجئين قد يعتبر إقامة علاقات جديدة خيانة لأصدقائه أو أقربائه في الوطن ومخالفاً لعقائده الوطنية والسياسية. ويجهل كثير من الناس ما يحدث في وطن اللاجئين أو حتى الرغبة في معرفة ذلك، ويسبب ذلك إحباطاً ويثني عن إقامة العلاقات الاجتماعية معهم، يقينا بأنهم لن يفهموه أو يفهموا مشاكله وآلامه.

حتى علاقة اللاجئين مع بني وطنه قد تعثر بها مشاكل لعدم تقديرهم وضعه، طالبين منه ما يفوق طاقته. بعض اللاجئين يحصلون على دعم معنوي ومادي من رفاقهم شرط عدم تغير المواقف والعقائد الناجمة عن التجربة أو الدراسة في بلد اللجوء، ويرغب عديد من اللاجئين في مواصلة النشاط السياسي، ولكن الإحباط يصيبه لعدم توفر الظروف المناسبة لهذا النشاط، وبذلك يفتقد مغزى هام لحياته، وأحياناً يصبح لقاء الرفاق أو الأصدقاء السياسيين مبعث إحباط وشعور بالعزلة اعتقاداً بأن هذا اللقاء ضئيل الفعالية والمربود.

كثير من اللاجئين جاؤوا من مجتمعات ترى أنه من غير اللائق تناول مشاكل نفسية أو عاطفية مع الأعراب وآخرون يعتقدون أن الخوض في هذه المشاكل يعوزه اللياقة لأنهم يعتبرونها تافهة بالمقارنة مع مشاكل أهلهم في الوطن. وهذا قد يزيد اللاجئين عزلة وغربة عن محيطه الجديد.

إن الموافقة على طلب اللجوء تعتمد على دقة المعلومات المقدمة. وهي قد تشمل أحياناً مؤلمة يراد نسيانها. ولكن إهمالها أو إغفالها قد يعيق الموافقة. وبعض اللاجئين يشعر بإذلال وثرهيب من قبل الموظف المسؤول عن التحقيق في قضيتهم أو من قبل المترجم المرافق، خاصة وأن المترجم قد يهمل تفاصيل مما قد يعيق الموافقة على اللجوء. بعض طالبي اللجوء يتعاش مضطراً مع المعاملة البيروقراطية والمهينة، مما قد يسبب شعوراً بالسخط والعجز يشابه ما كابده أثناء التعذيب أو الاعتقال في الوطن. وأظهرت البحوث النفسية أن تعامل السلطات مع طالب اللجوء يلعب دوراً حاسماً في إصابته باضطراب نفسي أو عدمه، وذلك بغض النظر عما تعرض له في الوطن وقدرته الآن على التكيف.

قد يتخذ التأقلم ثلاثة مسارات. في الأول يبدأ بتعلم اللغة وإقامة علاقات اجتماعية أو

عاطفية وبذلك يتكيف اللاجئ مع حضارة الوسط الجديد، محافظاً على إرثه الثقافي والحضاري، مستخفاً بتناقض مشاعره تجاه الوطن والملاجئ، فلا يستصعب الاختلاط مع أهل البلد أو مواطنيه. وهنا يمكن القول إنه اكتسب هوية حضارية مزدوجة. المسار الثاني هو تأقلم جزئي أو انتقائي مع الوسط الجديد، فيتعلم لغته والتعامل مع المسؤولين عن السكن والصحة والضمان الاجتماعي دون إقامة علاقات جدية مع سكان البلد، رافضاً قيمهم الثقافية و متمسكاً بصداقته مع مواطنيه فقط.

المسار الثالث يمكن اعتباره تأقلاً مفرطاً، فيتأقلم اللاجئ سريعاً مع عادات الوسط الجديد، متكرراً لخلفيته الثقافية وسلوكياتها. فقد يتحاشى مخالطة مواطنيه ويحاول إخفاء أصله غير الأوروبي، بل قد يغير اسمه أيضاً ويتحدث عن الوطن باستخفاف. ويعلق بعض هؤلاء اللاجئين أهمية كبرى على جمع الثروة والحصول على ما يتمتع به الشخص الغربي حسب تصورهم من امتيازات. نظريات التحليل النفسي ترى أن هذا اللاجئ لم يتطامن مع فقدانه لوطنه، فإفراطه في التأقلم هو إنكار لهذا الفقدان ونوماً وعي، مستخدماً دفاعاً نفسياً بسلوك مناقض لمشاعره الداخلية اللاواعية من أجل إنكار الفقدان. لكن آخرون يفضلون هذا المسار لاعتقادهم بأنه يضمن منزلة اجتماعية أو تقييماً أفضل من قبل أهل البلد.

عوامل مؤدية إلى الاضطراب النفسي

لا يتعرض أغلب اللاجئين إلى اضطرابات نفسية تستدعي العلاج مثل غيرهم مما يدل على وجود قوارق فردية في سلوك اللاجئين وردود أفعالهم في الوسط الجديد، ويمكن تمييز ثلاثة أنواع من ردود الفعل السلوكي:

(١) سلوك مضطرب حين يشعر اللاجئ بالتشوش والضياع وبخوف قد يشل مشاعره وقدرته على التفكير السليم.

(٢) سلوك الذهول أو الانصعاق، فيفقد اللاجئ بعض قدرته على فهم ما يحيطه وتحسس عواطفه هو (خدر فكري وشعوري)، وعندئذ لا يعبر عن أحاسيسه بالكلمات. فتجد انعكاسها في علل عضوية (صداع، آلام المفاصل، غثيان، اضطرابات تنفسية، الخ).

(٣) سلوك منظم يحد بوعي من تأثير الصدمات، فيبقى اللاجئ قادراً على الاحتفاظ برياسة الجأش والقدرة على تحسس المشاعر فتكون ردود أفعاله مترنة.

لا يعرف بالضبط سبب القوارق في ردود الأفعال السلوكية. البعض يرى بأن هذه القوارق موزعة بصورة طبيعية حسب "منحنى الجرس الإحصائي". ولكن هذا لا يفسر

سبب وجود هذه الفوارق، يعزو علم النفس التطوري هذه الفوارق الفردية الى تفاوت فسي القدرة على التعامل مع الأحداث، وهو حصيلة ما يسمى بـ "الإجهاد" من جهة و "عوامل واقية" من جهة أخرى. الإجهاد هو ما قد يعيق تطور نفسية الفرد أثناء طفولته (مثلا بسبب مشاحنات الوالدين أو إصابة أحدهما بمرض نفسي). أما العوامل الواقية فيمكن إرجاعها الى اختلافات مستويات الذكاء وقدرة التغلب على المرض أثناء الطفولة، العوامل الواقية الأخرى تشمل القدرة على وضع مسافة بين الشخص والحدث المؤلم والقدرة على الإدراك بأن خبراته مكنته سابقا من التغلب على الصدمات فيشعر بالثقة في التغلب عليها مستقبلا. ولا ريب أن الدعم العائلي والاجتماعي والمادي للاجئ وقدرته على كسب الوسط المحيط الى جانبه تلعب دورا كبيرا في الوقاية من الاضطراب النفسي.

العلاج

طبعا يتعذر التفصيل حول أنواع علاج الاضطرابات النفسية التي يتعرض لها اللاجئين وضحايا التعذيب. ولكن يمكن التأكيد أن ذلك لا يقتصر على العلاج الطبي والعلاج النفسي فقط، بل يتضمن جوانب متداخلة ومتكاملة هي:

١- الجانب النفسي يشمل العلاج النفسي بمختلف أشكاله (الفردى وعلاج العلاقات الزوجية والعائلية) إضافة الى استخدام العقاقير أحيانا.

إحدى الوسائل الفعالة في معالجة اللاجئين التشيليين أثناء حكم بينوشيت تسمى "طريقة العلاج بالشهادة"، وذلك من خلال حث اللاجئ على السرد الدقيق لوقائع التعذيب والإرهاب التي تعرض لها وكأنه يدلي بشهادة دقيقة أمام محكمة، وهذا السرد ليس تاريخيا فحسب بل إن المعالج يحث اللاجئ للتعبير عن مشاعره وأحاسيسه أثناء محنته ولاستعراض دوافعه للعمل السياسي. ويحاول المعالج إبراز قدرات اللاجئ على مقاومة المصاعب والنجاة بحياته وخاصة في قدرته على الإفلات من الإرهاب، ويسجل الحديث على شريط يفرغ كتابة فيبدو أشبه بالوثيقة المكتوبة أو القصة. ويستطيع اللاجئ أن يعيد كتابة هذه القصة كما يرتأي لكي يخرج بتصورات فكرية وعاطفية تنقله من موقع الضحية الى موقع البطل أو الإنسان الفاعل الذي يتحكم في كتابة قصة حياته بدلا من أن يبقى ضحيته، فتكتسب القصة مغزى جديدا ضمن السياق العام للأحداث بعد أن كانت مزيجا من الألفاظ المتناقضة التي تقض مضجعه. بانتقال اللاجئ الى موقع البطل فإن مشاعر القدرة والمقاومة تطرد مشاعر الضعف والمذلة. هذا العلاج يقوم على فلسفة "الأسلوب

السردي" ومفادها أن أحداث الماضي لا يمكن تغييرها ولكن يمكن أن يعاد تفسير هذه الأحداث كي يتحسن المريض ويستعيد توازنه النفسي.

فمحور اهتمام هذا العلاج هو الانتقال من "الحقيقة التاريخية" الى "الحقيقة السرديّة". فعن طريق هذا العلاج يقوم اللاجئ أيضا بإعادة صياغة تصوراتّه حول تجاربه وقناعاته بشأن نفسه ومحيطه وذلك على الصعيدين الفكري والعاطفي. الفكري يهدف الى جعله أكثر واقعية لتقييم نفسه وتعامله مع الغير، ولهذا أهمية كبرى في علاج الكآبة ومساعدة اللاجئ الذي يجابه صعوبة التأقلم. أما على الصعيد العاطفي فالهدف هو استعادة مشاعر الألم أو الغضب التي اعترته أثناء التعذيب والإرهاب بعد أن كبّتها في عقله اللاواعي فبقيت تتحكم في مشاعره وسلوكه، ويسهم المعالج بجعل اللاجئ أكثر تحملا لتلك المشاعر وأكثر وعيا لها. فكبت المشاعر والأفكار في اللاوعي يسبب إما الشعور بالذنب أو بالضعة، وعندما تتحول هذه المشاعر والأفكار الى كلمات فإنها تصبح ظواهر واعية يمكن مناقشتها وتكييفها وتغييرها. وبذلك يتحول الألم الى فخر تختفي إزاءه مشاعر الضعة أو الشعور بالذنب، فيشعر عندئذ بأن معذبيه هم آخرون بالشعور بالذنب والخجل (إن كانوا بشرا لهم القدرة على تحسس مشاعر إنسانية كهذه).

الإرشاد النفسي يفيد اللاجئين الذين يصابون بصعوبات في التأقلم، فالمرشد يساعد اللاجئ على استعادة الثقة بقدراته بتعامله معه باحترام لمنزلته الاجتماعية في وطنه وقدرته على التغلب على الصعوبات ويقائه على قيد الحياة رغما عنها. فهو يساعد اللاجئ على التأقلم بشرح الفوارق الحضارية والثقافية ويزوده بمعلومات عن عادات وثقافات البلد، ويحثه على الخروج من التقوقع والدخول في تجارب دونما تردد أو هلع لكونها غير مألوفة. وعن طريق الإرشاد النفسي يكتسب اللاجئ خبرات اجتماعية جديدة تسهل تأقلمه، وقد يساعد المرشد على توفير فرص لقاء اللاجئ بمواطنيه للحصول على الدعم المعنوي والنفسي. قد لا يحبذ اللاجئ مع ذلك الحديث عن مشاكله الشخصية مع مواطنيه خشية القيل والقال، فعلى المرشد عندئذ أن يحترم رغبات اللاجئ ولا يفرض أي شيء عليه.

من صعوبات الإفادة من العلاج أو الإرشاد النفسي عدم امتلاك اللغة بطلاقة والعجز عن الدقة في التعبير عن المشاعر أثناء العلاج. اللاجئ قد تعوزه المفردات حتى في لغته الأصلية للتعبير بشكل دقيق عن أحاسيسه وعواطفه. قد يكون المترجم من الأقرباء أو الأصدقاء فيسبب حرجا للاجئ. والمؤسف أن الكثير من الأطباء والمعالجين النفسيين تعوزهم المعرفة لعادات وثقافات بلدان اللاجئين مما يؤدي الى خطأ التشخيص وصعوبات

العلاج النفسي. إن بعض اللاجئين يعتقد أن مراجعة الطبيب النفسي معناها إصابتهم بالجنون لأنه لا يدرك أن هناك دواع كثيرة للعلاج النفسي، فضلا عن أن مفهوم الجنون مفهوم بال ولا فائدة منه. ويعتقد لاجئون كثيرون أن مشاكلهم النفسية ناتجة عن مشاكل اجتماعية وسياسية (وهم على حق في ذلك)، ولكن الفصل التعسفي بين الجوانب النفسية والاجتماعية والسياسية هو فصل اختزالي مفرط.

٢- الجانب الاجتماعي يتضمن جعل عملية اللجوء أكثر شفافية وإنسانية، بالإضافة إلى تأمين الرعاية الصحية (النفسية) للاجئين ومستلزمات السكن والدراسة والعمل ولم تشمل العائلة.

٣- الجانب السياسي يتضمن الحل الجذري مستقبليا للمشاكل النفسية الناتجة عن التعذيب واللجوء، وذلك باحترام حقوق الإنسان وسيادة الديمقراطية. ينبغي التأكيد هنا أن تطوير الشخص لاستقلاله ونضجه الداخلي لا يتعارض مع العمل الجماعي من أجل العدالة وحقوق الإنسان. فالفيلاسوف دريدا يعتقد أنهما عمليتان متكاملتان، وهذا يذكرنا بوصية أفلاطون: "اعرف نفسك" حيث تكتسب هنا بعدا تحريريا من الناحية الاجتماعية والسياسية.

ملاحظة:

لمزيد من المعلومات حول الاضطرابات النفسية الناتجة عن التعذيب أو اللجوء وطرق علاجها يمكن مراجعة المصادر التالية:

- 1) Allodi, F. (1982). Psychiatric sequelae of torture and implications for treatment. World Medical Journal, 29: 71-75.
- 2) Basoglu, M. (1992). Torture and its Consequences. Cambridge: Cambridge University Press.
- 3) Gienfuegos, A.J., & Monelli, G. (1983). The testimony of political repression as a therapeutic instrument. American Journal of Orthopsychiatry, 53: 41-53.
- 4) Kinzie, J.D., & Fleck, J. (1987) Psychotherapy with severely traumatized refugees, American Journal of Psychotherapy, 41: 82-94.
- 5) Ochberg, F.M. (1988). Post-traumatic therapy and victims of violence. New York: Brunner/Mazel.
- 6) Somnier, F.E., & Genevke, I.K. (1986). Psychotherapy for victims of torture. British Journal of Psychiatry, 141: 1628-1639.
- 7) Van der Veer, G. (1998). Counselling and Therapy with Refugees and Victims of Traumas. New York: Wiley.

العمارة المعاصرة في بغداد *

جذورها وتطورها

د. إحسان فتحي

ت: د. جاسم الدباغ

يهدف البحث الى تتبع بدايات العمارة المعاصرة في بغداد وتطورها خلال العقود السبعة الأولى من القرن العشرين. قد تكون مثل هذه المحاولة غير متكاملة بدون استعراض عام لتاريخ بغداد. غير أن تاريخ تأسيس هذه المدينة العربية العظيمة وتطورها اللاحق قد تمت تغطيته، وبشكل شامل، من قبل الرحالة والمؤرخين العرب. من الناحية العملية، لم يكن ذلك جرداً لتاريخ العمارة المعاصرة.

إن تاريخ بغداد زاهر بالأحداث المضطربة، لكنها كانت دائماً قادرة على النهوض بالرغم من التدمير الذي حل بها جراء الاحتلال الأجنبي، الصراعات الطائفية، الحرائق، الطاعون، والفيضانات المتكررة الأكثر تخریباً.

يعبر اسم بغداد عن فتنة الشرق أكثر من أي مدينة شرقية أخرى. ويتعزز هذا التصور اليوم، بشكل واسع، بالارتباط مع أساطير ألف ليلة وليلة وغيرها من القصص الخيالية التي استلهمتها هوليوود وغيرها من وسائل الإعلام الغربية. قد تتولد صدمة كبيرة عندما نعلم أن عمارة بغداد وطوال خمسة قرون، منذ تأسيسها عام ٧٦٢م وحتى سقوطها على يد المغول في ١٢٥٨، لم يبق منها سوى ٨ أبنية عباسية. أربعة منها فقط يمكن اعتمادها كمصدر تاريخي، في حين أن الأربعة الباقية، وبمرور الزمن، تعرضت الى تحويرات عديدة.

في الواقع، وبعد مرور ١١٠٠ عام على تأسيس المدينة (من عام ٧٦٢ وحتى حكم بغداد من قبل الوالي المصلح مدحت باشا في ١٨٦٩ الذي بدأ بمشاريع عصرية كبرى في المدينة)، لم يبق سوى ٣٨ مبنى تاريخيا هاما وهو ما يمكن أن يوضح مدى جسارة الخسارة في تراث العمارة البغدادية، مما ساهم في تعقيد المحاولات لتقديم استنتاجات دقيقة عنها. فإن الأمثلة المتبقية قليلة، لكنها قد تعطينا لمحة ولو صغيرة عن عمارة معقدة وجميلة وصلت إليها بغداد. مع هذا، فإن الأمثلة، من العمارة العباسية وغيرها من المواقع الأثرية، وخصوصا في سامراء، تساهم في تقديم دليل مقارن ثابت.

تتمثل المأساة الأخرى في أن "بغداد الأصلية" لم يبق منها أثر، عدا محراب من الممرر وجد في جامع الخاصكي. يؤكد بعض المؤرخين أنه محراب جامع المنصور، وهو يعرض اليوم في المتحف العراقي مع أن الدليل على صحة هذا الادعاء لم يحسم بعد. لقد تم التعرف على موقع بغداد المدورة من خلال التحليل المقارن. فتقع المدينة اليوم تحت كتل الأبنية السكنية في الشالجية والعطيفية. مما يؤسف له عدم بذل الجهود اللازمة للكشف والتعرف على تخطيط المدينة، الذي كان الأكثر إثارة وإعجابا في العالم الإسلامي. بنى المدينة، المدورة المشهورة، الخليفة العباسي الثاني المنصور (٧٦٢-٧٧٥)^١ عام ٧٦٢م، في موقع استراتيجي بالقرب من الضفة الغربية لنهر دجلة. يؤكد المؤرخون العرب أن المدينة كانت دائرية الشكل تماما، قسمت الى ثلاث مناطق (من مركزها ج.د.) متميزة ومنفصلة بواسطة ثلاثة أسوار. هنالك أربعة شوارع متعامدة تنطلق من مركز المدينة، حيث يقع قصر المنصور والمسجد الجامع، لتنتهي بأربع بوابات ضخمة في السور. تقسم الطرق المدينة الى أربعة قطاعات، كل قاطع مفصول عن الآخر بسوق مسقف^٢.

قبل تأسيس بغداد كانت هنالك مدن دائرية عدة، غير أنها لم تصل الى دقة وقوة وبساطة تخطيط بغداد التي كانت الأكثر عمقا في تخيل طبيعة السلطة المركزية، وتعبيرا شاملا عن النظرة الخارقة والميتافيزيقية لها. تقدر مساحة المدينة، التي تشبه القلعة بـ ٥٥٠ هكتارا. كان ذلك نتيجة للتوسع المتسارع الذي شمل الضفة الثانية من النهر، حيث عسكر جند ولي العهد المهدي (٧٦٨). أدى التوسع الى زحف مركز المدينة الى الضفة الشرقية للنهر، ومع حلول القرن العاشر الميلادي، تكامل مقر الخلافة في الضفة التي تعرف اليوم بالرصافة. إن تعبيرنا اليوم عن "بغداد القديمة" يعبر عما تبقى منها في الرصافة، وجزئيا في المنطقة السكنية في الكرخ، التي تمتد جذور الإسكان فيها الى فترة ما قبل تأسيس بغداد.

تجدر الإشارة الى أن بغداد المدورة استمرت لحوالي ثلاثة قرون فقط^٢. ومنذ القرن الثاني عشر وحتى العقد الأول من القرن العشرين، لم تتغير الشبكة الحضرية الأساسية (الرصافة). فالتغيرات العمرانية مست أسوار المدينة فقط، لدورها الهام في الحد من تأثير الفيضانات. وللعلم فإن السيطرة على خطر الفيضان حسمت نهائياً في عام ١٩٥٦ حين استكمل بناء مشروع سد التثاير، الذي سمح لتوسع عمراني كبير في المدينة.

ما هي عمارة بغداد؟ وما هي المظاهر الأساسية لها؟ الجواب ليس سهلاً، وقد يكون مفعماً بالتعقيد. فأولاً: إن تاريخ بغداد يعكس خليطاً استثنائياً من التأثيرات الحضرية، بدءاً من حضارة ما بين النهرين، الآشوريين، العباسيين، البويهيين، السلاجقة، المغول، التركمان، الصفويين ثم العثمانيين. ثانياً: وكما أشرنا أعلاه، لم يبق من كل هذه العهود سوى عدد محدود من الأبنية ذات القيمة التاريخية، خصوصاً من العهود القديمة. لذا قد يستحيل تحديد مدى تأثير كل ذلك على العمارة العباسية في بغداد.

ومن خلال المؤشرات المقارنة المتوفرة حالياً، إضافة الى بعض التقديرات الحديثة، تتضح بعض المميزات والمظاهر العامة للعمارة التراثية في بغداد. أهمها يمكن طرحه بثقة وهو إمكانية تشخيص العمارة البغدادية من خلال الاستعمال البارع للطابوق في الأشغال الهندسية والتزيين الداخلي. يعود تاريخ استعمال الطابوق المفخور (المشوي) والملون والمزجج الى حضارة ما بين النهرين حين استخدم لحل معضلة عدم توفر مواد بناءية متينة كالحجر. واستخدم كمادة مناسبة للأعمال النهائية والتزيين الرائع والمتألق للجدران والقباب في محيط عرف بمناخه القاسي وألوانه الكثيفة وتضاريسه المملة. لذا، ففي مجال استعمال المواد البنائية، فإن عمارة بغداد تعتمد أساساً على القيم الجمالية لأعمال الطابوق ذي اللون (الأصفر - البني) المميز، وخصوصاً الطابوق المزجج، الأخضر المزرق (التركواز).

إن المؤشر الآخر على العمارة البغدادية هو اعتماد المخططات المعمارية على الإيوان ذي القباب والملتصق بالفناء المفتوح المفضي الى فناءات داخلية أخرى. إن الفناءات، كما هو معروف، كانت تتوزع على محاور ضمن التكوين العام للمخطط. بكلمة أخرى، فإن الهدف الأساسي للمخطط هو خلق سلسلة متدرجة من الفضاءات المنغلقة على نفسها. أما من ناحية الشكل العام، فإن عمارة بغداد هي عمارة صلبة. وتتمثل الفتحات عمودياً في (الجدران)، وأفقياً في فتحات كبرى هي (سقوف) الأفنية المفتوحة.

تعتمد عمارة "بغداد القديمة" على ترابط العموميات التي تكررناها. لكن هذا لا يعني عدم

وجود نمط وتكيف متميز. بشكل عام، فإن أغلب الأبنية التاريخية، التي تعود الى الفترة العثمانية المتأخرة من القرن التاسع عشر، قد بنيت بالطبوق والخشب. وتعود أسباب ذلك الى المتطلبات المناخية والاجتماعية - الدينية. كما يبدو، فإن العمارة السكنية المألوفة قد عانت من بعض التغيرات الرمزية أكثر مما في الأسلوب. استمر اعتماد المخطط النموذجي للبيت البغدادي على الفناء المفتوح المرتبط بالرواق الأعلى، مع ميل شديد للتناظر والهندسة الدقيقة، وذلك بالرغم من عدم انتظام حدود الموقع وطبيعة النسيج العمراني المتشابك.

يمكن الإشارة بالتحديد الى أن العمارة السكنية تتم، على الأغلب، عن الاهتمام بالاعتبارات الجمالية على حساب التنظيم الوظيفي. قد يفسر هذا الأمر حقيقة أن تعبيري (الفضاء) و(الاستعمال) ليسا جامدين فتوزيع الفضاءات في مخطط الدار البغدادية مثل الغرف وغيرها، كالأيوان والفناء، ليس لها حدود تصميمية أو استعمالية. ولا يوجد تخصيص لفضاء محدد، مثلاً للطعام أو للمعيشة أو للنوم. وسكان الدار ينتقلون ببساطة من غرفة (أو من طابق) الى أخرى، موسمياً أو حتى يومياً ارتباطاً بالاعتبارات المناخية الأنسب. ففي أشهر الصيف يهبطون الى السرداب للقبولة ظهراً ويصعدون الى السطح للنوم ليلاً. العامل الآخر المؤثر على "الهجرة" الداخلية هذه، هو عدم وجود أثاث محدد الاستعمال. فلقد تمت معالجة (الأثاث) معمارياً، فإما أن يكون ضمن البناء، أو يوضع فوق الأرض مباشرة، لذا من السهولة تغيير مواقع الأفرشة (الحشيات) والوسائد.

وهكذا، ففي غياب فضاء محدد في الدار، تأخذ الاعتبارات التشكيلية والجمالية بعداً أعمق. إن مفهوم الشكل في العمارة السكنية هو الأكثر أهمية وإثارة من الوظيفة، التي تعتمد التكرار والاستعمال المتعدد. لقد تقلصت مساحة بغداد وفقدت بريقها منذ سقوطها عام ١٢٥٨ (على يد هولاكو - ج. د.). وبالرغم من المؤثرات الخارجية خلال القرون الثلاثة التالية، فإن بغداد استمرت بزخم في تطوير نمط العمارة العباسية، فحافظت بالتالي على مظهرها. أدى العهد العثماني الى تغيرات في رمزية العمارة، وخصوصاً في عمارة المساجد. فقد كان العباسيون يعتمدون في تصميم المساجد على نمط التسقيف الأفقي ذي الأروقة مع الصحن. في حين فرض العثمانيون نمطهم الخاص المعتمد على الفضاءات ذات القباب. فبدلاً من الأروقة ذات الأعمدة لقاعة الصلاة، أصبحت تغطي معظم الفضاء المركزي للمسجد قبة مركزية ضخمة.

إن التأثيرات التركية على العمارة السكنية كانت أقل وضوحاً من الناحية الرمزية. ولكن مع هذا، فقد تم الترحيب بالتغير في الأسلوب المعماري، وبشكل خاص استعمال

الخشب في الطوابق العليا وفي الأعمدة والنوافذ والأبواب. إضافة إلى ذلك، حدثت تغييرات واضحة على أعمال التزيين الداخلي من خلال الإفراط في زخرفة المورقات على حساب الأشكال الهندسية.

استمرت بغداد تحت السيطرة التركية وهي تعاني من الركود والتطور البطيء، حتى ولاية مدحت باشا (١٨٦٩). حيث شهدت بغداد خلال ولايته القصيرة (١٨٦٩ - ١٨٧١) مؤشرات أساسية للعصرنة، أثرت بشكل كبير في مستقبل المدينة. كان أهم قراراته هدم أسوار المدينة مع الحفاظ على المداخل. كما بنى عددا من الأبنية العامة مع تقديم الخدمات البلدية الحديثة للسكان وشق العديد من الطرق.

تعتبر بناية السراي وبرج الساعة في القسلة (١٨٦٩) من أهم الأبنية النصيبية التي أثرت في خط البناء الأفقي (Sky Line) للمدينة. البنايتان قدمتا ولأول مرة نمط العمارة الغربية. يبلغ طول بناية السراي ٢٠٠ متر، أي أن لها ضعف طول أهم بناية حتى ذلك الوقت: المدرسة المستنصرية (١٢٣٣م - ج. د.). كما ظهرت لأول مرة أبنية مغلقة بدون فناء مفتوح، بل إن أغلبها اعتمد نمط العمارة الغربية، كما هو الحال في بناية مدرسة السراي للأيتام.

شهدت الفترة المتأخرة من السيطرة التركية ظهورا سريعا للأثاث ذي النمط الغربي. تطلب ذلك إعادة التفكير في أسس استعمالات الفضاء في البيوت التقليدية. وهكذا مع مطلع القرن العشرين، ظهرت الدور المنفصلة، المغلقة بدون فناء، التي صممت فضاءاتها لوظائف محددة.

حدث آخر أثر بشكل كبير حين اتفقت السلطة المركزية مع الألمان على إنشاء خط سكة حديدية يربط ما بين أوروبا وبغداد (١٩١٥). فأدخل المهندسون الألمان نظام التسقيف بالعقادة المعتمد على جسور من مقطع الحديد على شكل حرف I^٦. انتشر نظام البناء هذا سريعا لكونه الأسرع، الأرخص والأكثر متانة. أنشأ الألمان في منطقة السكك في الصالحية بنايتين بارتفاع ثلاثة طوابق. البنايتان شنتا النظر إليهما باعتبارهما نمونجين لإمكانية استخدام الحديد والخشب مع الطابوق المحلي في الهياكل الإنشائية^٧. عزز ذلك نمط البناء المغلق ذا المدخل الأمامي والشرفات البارزة على الخارج مع السقف المائل.

مثل الاحتلال البريطاني للعراق (١٩١٥ - ١٩١٨) نقطة انعطاف هامة في تاريخ العراق الحديث. ولتعزيز سيطرة الإدارة البريطانية، تم تنفيذ العديد من المشاريع الخاصة بالبنى التحتية، كما شيدت أبنية عامة ضخمة. إن تأسيس المملكة العراقية، في عهد فيصل

الأول، وظهور العهد الوطني (١٩٢١) شهد العراق مشاريع تنموية طموحة، وإن كانت بطيئة كان لبغداد حصة الأسد منها. مع ذلك، رزح العراق تحت الانتداب البريطاني لحين انضمامه الى عصبة الأمم عام ١٩٣٢. وفي عام ١٩٢٧ اكتشف النفط في كركوك بكميات كبيرة، لكن تصديره بكميات تجارية لم يبدأ إلا في عام ١٩٣٤. وقد وفر ذلك عوائد نفطية سرعت من توجهات العصرية.

خلال فترة الانتداب البريطاني (١٩١٥ - ١٩٣٢)، لعب اثنان من المعمارين البريطانيين دوراً متميزاً في تطور العمارة العراقية من خلال مشاريعهما المشتركة أو الفردية. كان الأول: ج.م. ويلسن (١٨٨٧ - ١٩٦٥)، والثاني: ه.س. مايسون (١٨٩٢ - ١٩٦٠). قاما بتصميم العديد من مشاريع الأبنية العامة التي كان لها دور مؤثر في العمارة العراقية بشكل عام. أصبح ويلسن أول مدير للأشغال العامة في العراق، من أجمل مشاريعه جامعة آل البيت في الأعظمية - بغداد (١٩٢٢ - ١٩٢٤). كان ويلسن أحد مساعدي السير أدوين ليتوين في نيودلهي عام ١٩٢٥^١، فتأثر بأسلوب ليتوين، كما تبني طريقة الاستفادة من مواد وتقنية البناء التقليدي. لذا كانت مشاريعه في العراق حصيلة التفاعل بين العمارة الإسلامية والعمارة الكلاسيكية الغربية. تتصف أعماله بالتناظر التام وقبة في المركز، مع رواق وتفصيل لأعمال جميلة بالطابوق المحلي. المشروع الرائع الآخر لويلسن هو قصر الملك فيصل الأول (١٩٢٧) الذي لم ينفذ.

أما مايسون فقد تخرج في جامعة ليفربول تحت إشراف البروفسور ريلي. بعد وصوله للعراق (١٩٢٠) أصبح مايسون تحت إدارة ويلسن، كمعمار مساعد للحكومة في بغداد. إن أغلب أعماله تمت بالاشتراك مع ويلسن. وبشكل عام، لا تعكس مشاريعه الفردية التعاطف ونكهة العمارة المحلية، كما هو الحال في المشاريع التي صممها مع ويلسن. أما أهم مشاريعه التي صممها بمفرده فهي: بناية البريد والتلغراف (١٩٢٩) ومطار بغداد (١٩٣١) والقصر الملكي في الحارثية (١٩٣٣). وكلها مشاريع عكست إهمالاً متعمداً للتراث المحلي مع الإيغال في التوجه نحو نمط العمارة الغربي، خصوصاً الأنظمة الكلاسيكية ذات الواجهات المتميزة بالأعمدة والسقوف المثلثة المائلة.

مع كل ذلك، نجح ويلسن ومايسون في تفعيل خبراتهما، فقدمتا حصيلة متميزة، اعتبرت مقدمة عامة للعمارة العراقية. إن من الصعب أن ندرج كل أعمالهما، لذا سنكتفي بالإشارة لأهمها مثل: المستشفى التذكاري للجنرال مود في البصرة (١٩٢١)، وهو أول مشاريعهما في العراق، البلاط الملكي في بغداد (١٩٢٣ - تم تهيئته الآن)، كنيسة سانت

جورج (١٩٢٦)، مقر قيادة القوات البحرية (١٩٢٩)، مطار البصرة (١٩٣١) وأخيراً مشروعهما الرائع: المحطة العالمية للسكك الحديدية في بغداد (١٩٤٧ - ١٩٥١).

المعمار البريطاني الآخر الذي كان له دور متميز أيضاً، هو ج.ب. كوبر، الذي بدأ أول أعماله في بغداد في منتصف الثلاثينيات. كان له نفس أسلوب ويلسن، مع اهتمام أكبر بالعمارة الغربية، وتأثر أقل بالعمارة التراثية في بغداد. إن من أهم مشاريعه: الضريح الملكي في الأعظمية (١٩٣٤ - ١٩٣٦)، وبالرغم من خصوصية المشروع وظيفياً وطبيعة الزبون الخاصة، لكنه يعتبر أحد الصروح الإسلامية. إضافة لذلك صمم كوبر بناية كلية الهندسة (١٩٣٧) وقصر الرئاسة ومجلس النواب العراقي (١٩٥٧ - ١٩٥٩).

في أوائل الثلاثينيات، قررت الحكومة العراقية إيفاد أول بعثة طلابية لدراسة العمارة في إنكلترا. كان من ضمنهم أحمد مختار (١٩٠٧ - ١٩٦٠) الذي تخرج في ليفربول (١٩٣٦) ليصبح المهندس المعماري للحكومة العراقية (١٩٣٧)، ثم مديراً للأشغال العامة (١٩٥٢). المعمار الثاني هو حازم نامق (ولد ١٩١١) الذي تخرج في كارديف (١٩٣٦) وعمل مع مختار في قسم الأشغال العامة. أكمل اثنان آخران دراستهما وعادا للعراق هما: مدحت علي مظلوم (١٩١٣ - ١٩٧٣)، وجعفر علاوي (ولد ١٩١٥) وكلاهما تخرج في ليفربول (١٩٣٩). ليتبعهم معماريون آخرون منهم: محمد مكية (ولد ١٩١٧)^١، وعبد الله إحسان (ولد ١٩١٩)، قحطان المدفعي (ولد ١٩٢٧)، وقحطان عوني (١٩٢٦ - ١٩٧١)، ورفع الجادرجي (ولد ١٩٢٦)، وهشام منير (ولد ١٩٣٠) والحسني. وبحلول عام ١٩٥٦ أصبح عدد المماريين العراقيين حوالي ٣٠ معماراً.

إن تحليلاً شاملاً لأعمال وحياة كل هؤلاء المماريين العراقيين يخرج عن نطاق البحث. مع هذا، قد يكون من الضروري أن نتناول خلاصة عامة، ولو مختصرة عنهم، بهدف تتبع آثار العمارة الحديثة في بغداد خلال العقود الأربعة الماضية. لنبدأ بعامل أساسي واضح هو انقسام المماريين الرواد العراقيين إلى مجموعات تبعا لدراساتهم: البريطانية (ليفربول وكارديف)، الأمريكية (تكساس وكاليفورنيا) والمصرية. إن من الطبيعي أن تتأثر مسيرة العمارة العراقية بتوجهات المماريين المختلفة الذين تأثروا، ضمن أشياء أخرى، بدراساتهم وخبرتهم أثناء الدراسة، وخاصة الخبرة التطبيقية. أما المجموعة الرابعة فتشمل التوجهات العراقية، التي تمثل اليوم الأغلبية الساحقة من ١٥٠٠ معمار في العراق.

في أواخر الثلاثينيات، قبل نشوب الحرب العالمية الثانية، لوحظت زيادة كبيرة في

المشاريع المنفذة من قبل مديرية الأشغال العامة وغيرها من الدوائر الرسمية. حينها حصل تغيير في نمط الدور السكنية. فبدلاً من مخطط المسكن البغدادي ذي الفناء والمنطوي على نفسه، ظهرت نماذج من الدور نصف مفتوحة. كما تعرضت الشبكة العمرانية إلى تغييرات كلية أحياناً. فبدلاً من النسيج العضوي المتضام ظهرت شبكة من الطرق المتعامدة المتوازية وصفوف من الأبنية المتجاورة. فتحول الفناء المفتوح إلى بهو (هول) مركزي مسقف. وأصبح شيئاً مألوفاً في (الفيلات) الحديثة مشاهدة نوافذه المفتوحة على الخارج مع شرفات ومداخل أمامية. ظهر ذلك خصوصاً في مناطق السنك، البتلوين، العيواضية والوزيرية. وكان التوسع الأقل شأنًا في جانب الكرخ.

ظهرت في هذه الفترة مواد بناءية جديدة مع تقنية إنشائية حديثة. فقد أنتجت شركة مردوخ وبروك (١٩٣٧ - ١٩٣٨) الحجر الصناعي وبياض الجدران من النوع الرفيع. كما اكتشفت الشركة مقلعاً للرمال الجيدة في الحبابية وأنشأت أول مصنع حديث لإنتاج الطابوق. في ذلك الوقت تم استيراد الكثير من المواد الداخلة في العمارة من بريطانيا مثل: النوافذ الحديدية، الأبواب، المرافق الصحية وملحقاتها، الأجهزة الكهربائية ومصادر الإضاءة والمرازيب.

صمم المعماريون البريطانيون أغلب الأبنية العامة، التي ظهرت خلال العقود الثلاثة الأولى من هذا القرن، لكن التنفيذ تم من قبل مقاولين محليين اعتمدوا على بنائين مختصين (أسطوات) متعاشين مع مواد البناء والتقنية المحلية. لذا اعتمد عليهم كل من ويلسن، مايسون، كوبر وجاكسون. فلم يكن لهؤلاء أن يقدموا للأسطوات شيئاً غير المهارة الفنية والإبداع في التفاصيل المعمارية. الشيء نفسه ينطبق على المعمار السوري بدري قدح^١، الذي عمل في بغداد خلال الثلاثينيات.

يعتبر مدحت مظلوم أول المماريين الأربعة الأوائل في هذه الفترة (لاحظ الجدول)، ويعتبر بحق المعمار التجريبي الأبرز بينهم. أما أعمال أحمد مختار فهي تمثل ولادة العمارة الرسمية المعتمدة من قبل مديرية الأشغال العامة. كانت أهم مشاريع هذه الفترة: النادي الرياضي الأولمبي، بريد الأعظمية وقسم التمريض الممتاز في المستشفى الملكي. لم تسمح الظروف الصحية السيئة لمختار أن يقدم نماذج فردية متميزة. رغم هذا يمكن الإشارة إلى تصميمه (فيلا) جميلة، ذات طراز إسباني، تقع حالياً في منطقة السعدون، كذلك تصميمه لفندق حكيم، فندق قصر دجلة وسينما الفردوس، وكلها أبنية مازالت قائمة في بغداد.

عمل حازم نامق (ولد ١٩١١)، أغلب الأوقات، في مديرية الأشغال العامة لحين تأسيس مكتبه الخاص (١٩٥٨) بمشاركة فاضل لازار وحازم التلك. يبقى مدحت مظلوم الأكثر ميلا للفنون التشكيلية من الأربعة الآخرين. كما كانت لمظلوم، في أواخر سنوات عمره، أعمال متميزة في دول الخليج. إضافة لعمله لفترة قصيرة في الأوقاف، نفي مظلوم الى روديسيا لمدة ثلاث سنوات بعد حركة مايس (١٩٤١). ومن أهم أعماله الشخصية: سينما قدري، مستشفى التويثة، مسبح الأمانة، وبنية السوفير (السفير؟) في شارع الرشيد. أما جعفر علاوي (ولد ١٩١٥) الذي تخرج مع مظلوم في جامعة ليفربول، فلم يقدم عملا متميزا حتى الخمسينيات. ونشير الى كونه أول معمار أسس مكتبا خاصا له (١٩٤٦).

العمارة التي ظهرت على يد هؤلاء الرواد الأربعة تميزت باعتمادها النمط العالمي السائد في الغرب. لذا فإن هذه الأعمال أظهرت إهمالا كلياً للتراث المحلي والمضمون الثقافي. لكنها أعمال لم تخل من براعة وتفهم للمهارة الحرفية والتفاصيل، خصوصا في أعمال علاوي. لقد عكسوا في أعمالهم تأثير مدارسهم العريقة عليهم.

كانت الأربعينيات فترة صعبة للمعماريين بسبب الاضطراب السياسي الداخلي ونشوب الحرب العالمية الثانية. في ذلك الوقت، عاد لبغداد بعد إكمال الدراسة في الخارج، أربعة معماريين عراقيين هم: محمد مكية (ولد ١٩١٧)، عبد الله إحسان (ولد ١٩١٩)، نعمان الجليلي (١٩٢٠) وسعيد مظلوم (١٩٢٠) وعموما اتبعوا من سبقهم من العراقيين في تبني نمط العمارة العالمية. كما شهدت هذه الفترة ظهورا بطيئا لتقنية الإسمنت المسلح (الكونكريت المسلح)، والإسمنت بشكل عام، مما أدى الى انخفاض حاد في أسلوب عمل الأسطوانات الذين قاوموا التقنية الجديدة. إضافة لذلك، ظهرت تقنية نظام التسقيف بالوحدات المسبقة الصب، التي قدمها لأول مرة علاوي والمخزومي (١٩٤٩).

كانت فترة الخمسينيات، فترة التنمية السريعة بشكل مكثف. فبدءا من عام ١٩٥٢، وخصوصا بعد إقرار اتفاقية مناصفة الأرباح مع شركة نفط العراق. فقد ارتفعت العوائد النفطية من ثلاثة ملايين دينار عام ١٩٤٩، الى خمسين مليون دينار عام ١٩٥٣. ساهم ذلك في توفير ميزانية ضخمة تحت تصرف الحكومة العراقية. لقد أقرت مشاريع تمويلية ساهمت في رفع درجة التصنيع وبالتالي قيام العديد من المشاريع العمرانية إضافة لمد شبكات من خدمات البنى التحتية. أصبحت بغداد، فجأة، مركزا فاعلا وعاملا جذب للنشاطات التجارية وللمئات من رجال الأعمال والمعماريين. إن من الممكن تقييم مدى الإسهام المعماري في عمليات الإنتاج الواسعة في الخمسينيات، فقد أصبح عدد المعماريين

العراقيين حينذاك حوالي الثلاثين. أما من حيث التفهيم النوعي، فإن العمارة التي قدموها كانت عادية وسلبية، إنها فترة التوجه المتسارع لتقليد الغرب. لذا كانت المحاولات تعكس إهمالا للجذور الثقافية بأمل اللحاق بـ (عربة السيرك الغربية). ربما كان العنصر الإيجابي الوحيد الذي قدم في تلك الفترة هو استعمال "كاسرات الشمس" والمشبكات الخشبية المتحركة (اللوferat) أمام النوافذ، إذ أنها ظهرت في أعمال: مدحت، عبد الله، الجادرجي ومنير، كروبيوس ونيمابر^{١١}. لا بد من الإشارة هنا إلى أن نظام التكيف المركزي لم يكن شائعا بعد في بغداد. والحصيلة تؤكد ما أشيع عن عمارة الخمسينيات كونها عمارة مملأة اعتمدت كاسرات شمس رتيبة.

في أواسط الخمسينيات، دعا مجلس الإعمار عددا من أشهر المعماريين العالميين لكي يساهموا في الازدهار العمراني. كان من أهمهم: فرانك لويد رايت^{١٢} الذي حضر فعلا، وقدم مخططات أولية حاملة بتصويراته لجامعة بغداد ودار الأوبرا. وكلف لو كوربوزيه بتصميم المجمع الرياضي (أكمل ١٩٧٩). أما (آلفار آلتو) فقد صمم متحف الفنون الجميلة والبريد الرياضي. كما صمم والتر كروبيوس (مجموعة تارك) المجمع الضخم لجامعة بغداد (ما زال تحت التنفيذ). وأخيرا دوكليداس ومشاركوه^{١٣} الذين قدموا عشرة مخططات أساسية لتجمعات سكنية في شتى أنحاء العراق.

ساهم معماريون أجانب آخرون، أقل شهرة، في النهضة المعمارية. كان منهم: كابتن فيليب هيرست، عمل في إدارة السكك وصمم مصرف الرافدين، البنك العثماني ومعمل النسيج في الكاظمية. (ألين) جودت صمم بناية الهلال الأحمر. هانس مولير صمم فندق بغداد. ريتش وخمو صمما بنك بغداد. وصمم بلاتينوف القسم الداخلي للطلاب. أما أدلر وشركاه فقد صمموا عمارة البدوي في شارع الرشيد. وبضمن هذه الأعمال كان مصنع كوردون روثن للألبان (١٩٥٤). لم تحمل هذه المشاريع طابعا مميزا.

تؤكد الأمثلة المعمارية التي قدمها المعماريون العراقيون، خلال الخمسينيات، الاستنتاج السابق بأن أغلبهم لم يتناول بشكل جدي التراث المعماري العراقي، ولم يفعل شيئا لحمايته أو استلهامه. لذا، وبدون استثناء، تعتبر النماذج المنفذة مرحلة مؤسفة ومتخلفة في العمارة العراقية. شمل ذلك حتى المعماريين الذين نجحوا في العقد التالي في خلق مدارسهم المعمارية الخاصة. لم يتفهم المعماريون ضرورة أن تكون لهم عمارة محلية. (تقدم الفنانون التشكيليون العراقيون، مثل جواد سليم وآخرون، على المعماريين بخلق مدارس تشكيلية متميزة، وذلك بالرغم من وجود صلة ومناقشات يومية منتظمة بينهم).

تشمل هذه النماذج: فندق ريجنت بالاس لمكية (١٩٥٢)، ثانوية الحريري لعلاوي (١٩٥٢)، عمارة مرجان (١٩٥٤) البنك الزراعي لعلاوي وعبد الله إحسان (١٩٥١)، عمارة الشوربجي للجادر جي (١٩٥٢) إضافة لنصب الجندي المجهول (١٩٦٠ - هدم عام ١٩٨٢)، عمارة السامرائي للمدفعي (١٩٥٧)، خان الباشا لعبد الله إحسان (١٩٥٧)، مستشفى الفردوس لعوني (١٩٥٥)، مصرف الرهون للجادر جي وعبد الله والمدفعي وعوني (١٩٥٤)، مقهى ١٤ تموز (منتزه ١٤ تموز في الكاظمية) لمدحت مظلوم وهشام منير (١٩٥٨ - ١٩٥٩). كما أن هناك العديد من الأمثلة لمساكن فردية، لم نتناولها بسبب عددها الكبير، والتي تستحق دراسة منفصلة.

تميزت الخمسينيات بمؤثرات هامة أثرت في مسيرة العمارة في الستينيات، التي تعتبر بالنسبة للكثيرين فترة العصر الذهبي للعمارة المحاصرة في العراق. في هذه الفترة، بدأ الإنتاج في أول معمل للإسمنت في العراق (١٩٥٢) فساهم في توفير إمكانية أكبر لاستعمال الإسمنت المسلح في التشييد. ربماً ولدت ثورة تموز ١٩٥٨ تأثيراً ذا مغزى كبير، ليس من خلال تحطيمها، بشكل مفاجئ، العلاقات مع الغرب، بل لأنها ولدت ميلاً كبيراً للاعتداد بالنفس وتعزيز الشعور بالوطنية. انعكس ذلك مباشرة في الفنون التشكيلية والعمارة. أدى الشعور بالوطنية كذلك الى طروحات لخلق الهوية والرمزية في العمارة العراقية اعتماداً على استلهاهم جذور الحضارة المحلية. تأسست نقابة المهندسين العراقيين (١٩٥٩) فانضم إليها المعماريون. وفي العام نفسه افتتح أول قسم تدريسي للعمارة في العراق. كان ذلك بجهود منير، مكية وعبد الله، مع مساعدة الجادر جي وعوني. أصبحت العمارة، في أواخر الخمسينيات، أكثر وضوحاً وإدراكاً وتم تقدير مهنة العمارة من قبل المهن الأخرى، وخصوصاً من قبل المهندسين المدنيين.

شهدت الستينيات انعطافاً حاداً في التطور العمراني. فاشتدت ظاهرة الهجرة من الريف الى المدينة. وعكست بغداد تجربة النمو المتسارع في الزيادة السكانية والتوسع الجغرافي للمدينة. أدى ذلك أحياناً الى توسع عشوائي وبمقاييس كبيرة في الضواحي الجديدة للمدينة التي قسمت ووزعت بأسعار رمزية لمختلف الشرائح الاجتماعية. اشتد جراء ذلك الضغط على مركز المدينة القديم، الرصافة. ففي الخمسينيات والستينيات تمت إزالة مساحات كبيرة من نسيجه الحضري.

أدى الازدهار الاقتصادي الى توفير فرص كبيرة للمعماريين لتصميم أبنية ضخمة، مثل الأبنية الإدارية، المدارس، المصانع والمستشفيات. وكنيجة منطقية لذلك، ظهرت

عشرة مكاتب معمارية خاصة جديدة توفرت لها العديد من المشاريع. إن أول دفعة من المماريين العراقيين تخرجت في جامعة بغداد عام ١٩٦٤. فتم توظيفهم بسرعة في المكاتب المعمارية الخاصة، وعلى الأغلب بنصف دوام مسائي. ينبغي هنا عدم الاستخفاف بهؤلاء المماريين العراقيين الشباب العاملين خصوصاً في مكتب الجادري (الاستشاري العراقي) ومكتب منير (هشام منير ومشاركوه). فقد وظفت هذه المكاتب وحدها أكثر من ١٠٠ منهم، وهو ما يدل على زخم المشاريع الملتزم بها.

هؤلاء هم من نسميهم بالجيل الرابع من المماريين، وبعضهم من الشباب ذوي المواهب المتميزة الذين وفروا دماً وحياة جديدة لهذه المكاتب. من بينهم نذكر: اتيليا ضياء الدين، خاجيك كراييت، سعد الزبيدي، وجدان ماهر، محمود العلي، أكرم العكيلي، مزهر السعدي وآرام زاكاريان. لقد لعب هؤلاء دوراً هاماً، وإن كان بصم، في المساهمة في نهضة العمارة العراقية خلال الستينيات. في أوائل تلك الفترة انضم عدد آخر من المماريين لهذه المجموعة، ممن أكملوا دراستهم في الخارج وعملوا في الدوائر الحكومية، مثل مديرية المباني العامة، إضافة إلى عملهم المسائي في مكاتبهم الخاصة. من هؤلاء معاذ الألوسي، الذي كان له دور فاعل في (الاستشاري العراقي)، هنري سفيودا، فؤاد عثمان، إبراهيم علاوي وياسر حكمت.

ماذا كان تأثير المماريين الأجانب على عمارة الستينيات؟ حسناً، أعتقد أن لابد من تناول إسهاماتهم التي تميزت في جانبين: الأول: مدى تأثير مساهمة المماريين البولنديين الذين كانوا ضمن الهيئة التدريسية في القسم المعماري وأبرزهم باستا^١ وجان جايسكا الذين كان لهم، من الجانب الآخر، دور بارز في مكاتب مكية. ومن ضمن الآخرين كان الاسكندر ماركويتش وزوجته المعمارية. كذلك روباتجينكي وبيوتاكرهارد. والأخرون عملوا في مكتب قحطان عوني، وقدموا المشروع المعاصر والمثير للإعجاب، الجامعة المستنصرية.

ثانياً: تأثير محاضرات وزيارات فرانك لويد رايت، لوكوربوزيه ووالتر كروبيس. وجميعهم كانوا ينظرون بتقدير كبير لتراث العمارة الإسلامية. لقد أكدوا على المماريين العراقيين ضرورة رفض النمط الغربي وضرورة تطوير المفردات المعمارية المحلية الخاصة. أثر هذا على الجادري الذي سرعان ما تنكر لتوجهه السابق (١٩٦١ - ١٩٦٢)، وبدأ في تطوير أسلوبه الخاص. فأصبح يتعامل مع الطابوق المحلي والأوجه الإسمنتية غير المعالجة مع قطع الخشب الزرقاء المخضرة (التركواز). إن مشاركته في

مسابقة وزارة البلديات (١٩٦٥) أتاحت له أن يستعمل، لأول مرة، الأقواس المستديرة التي يشتهر بها حالياً.

ساهم الجادرجي، منذ ذلك الوقت، في خلق مدرسة محلية كان لها تأثير واسع. فلنمط الجديد يؤكد على الارتباط الواضح مع الماضي، وبشكل خاص مع العمارة العباسية فسي معالجتها للمواد البنائية، المتطلبات المناخية والضوء. قدم الجادرجي عدة أعمال مسازالت الأكثر جدية وإبداعاً في العراق. إن من أهم أعماله بناية المجمع العلمي العراقي (١٩٦٥)، مديرية انحصار التبغ (١٩٦٦)، منشأة التصنيع العراقية (١٩٦٦) وبناية العلوية (١٩٦٩).

أصبح الجادرجي رائداً لنهضة العمارة العراقية. وتأثر بأسلوبه، تلقائياً، أغلب المعماريين. كما أن مشروع الجامعة المستنصرية لعوني (١٩٦٣) وبناية المؤسسة العامة للكهرباء (١٩٦٨)، تعتبران من الأعمال المبدعة والخلقة. لذا كانت وفاة عوني المبكرة (١٩٧٢) خسارة حقيقية للعمارة العراقية. أما أعمال مكية فبدأت تأخذ خصوصيتها ولكهتها (الإسلامية) مع مشروع جامع الخلفاء (١٩٦٣) وبعض الأعمال المتميزة مثل: بناية كلية الشريعة (١٩٦٦) ومكتبة الأوقاف العامة (١٩٦٧)، وانتشرت أعماله في كافة أنحاء العراق.

قاوم المدفعي الموجة الجديدة، فكانت أغلب أعماله تعكس الصرامة في الشكل وعدم الحيوية في الهيكل. مع هذا، تتصف أعماله بتمائل متماسك، لكنه لم يطور خطأً خاصاً به، فكل بناية كانت أشبه بحقل تجارب جديد. إن المثال الوحيد الذي تحدى به المدفعي هو جامع بنية (١٩٦٤ - ١٩٧١). المشروع، كما يبدو، يعكس قلق المدفعي في شكل المسجد الذي ينبغي أن يكون لبغداد.

في الجانب الآخر، ومنذ الستينيات، أخذت أعمال هشام منير تتفاعل بعزم مع حركة المعماريين الجدد. إن عمله مع مظلوم في جامعة بغداد لكروبيوس أثر كما يبدو في أسلوبه بشكل واضح. كل هذا لا يقلل من أهمية مشاريع منير المتميزة بأسلوبها، وإن كانت ليست بالضرورة إسلامية. مع ذلك، يتصف أسلوب منير بالدقة والأناقة والهدوء من ناحية الشكل والكتلة، لكنه قد يفقد الإثارة. والواقع أن منير بطبيعته لم يكن مغامراً، بل كان دائماً لطيفاً وهادئاً، وهو ما انعكس في أعماله أيضاً. من الناحية الكمية فإن منير قد حصل على أكبر عدد من المشاريع. وقد يكون شيد في العراق أبنية أكثر من أي معمار آخر.

غالباً ما تقيم أعمال منير بكونها ذات نمط عالمي فاقدة للهوية. أعتقد أن مثل هذا الحكم يتصف بالسطحية والتعسف. فلو درست أعماله بشكل معمق، لعرفت قيمة ابتكاراته المثيرة والمتماسكة التي تعكس إخلاصه للاعتبارات المناخية، الإنهاء والتفاصيل. إضافة لذلك، فإن منير يستحق التقدير لرجه الفنانين في أعماله^{١٥}. وقد تكون أجمل أعماله وزارة الأوقاف (١٩٦١) وقصر الضيافة - السلام (١٩٦٤) وكلية الصيدلة (١٩٦٥).

خلاصة ما أعتقد، أن من الممكن اعتبار فترة الستينيات ذروة المسيرة التاريخية للعمارة العراقية الحديثة. لذا ينبغي القول: إن فترة السبعينيات ككل كانت فترة كئيبة، تدهورت العمارة فيها بشكل واضح. كما أن التقييم والحكم على فترة الثمانينيات مازال مبكراً جداً. وعموماً، فإن ظاهرة ازدهار عمارة الستينيات قد تكون أملاً كبيراً في مقدرة بغداد، مرة أخرى وبسرعة، على أن تظهر قيم العمارة في الوطن العربي. وأرى بشكل مؤكد، أن تحديد الهدف بدقة مع الدعم الرسمي الضروري والفاعل كفيلاً بإظهار مقدرة المعمار العراقي على تقديم عمارة لن تكون أقل روعة من عمارة أسلافهم العباسيين العظام.

الجدول (١)

الآثار العباسية في بغداد

أ- العصر العباسي (٧٦٢ - ١٢٥٨ م)	ب- العصر الأيلخاني (١٢٥٨ - ١٣٣٨)
١- الباب الوسطاني ١١٣٥	١٠- جامع الخفاء ١٢٨٩
٢- قبر زمرد خاتون ١٢٠٢	١١- جامع العاقولية ١٣٢٨
٣- جامع الخفافين (منارة) ١٢٠٢	
٤- جامع الكرخي (منارة) ١٢١٥	ج- العصر الجلائري (١٣٣٨ - ١٤١١)
٥- باب الطلسم (الأسس) ١٢٢١	
٦- المدرسة المستنصرية ١٢٢٦-١٢٣٣	١٢- جامع مرجان (منارة) ١٣٥٦
٧- القصر العباسي. (أو المدرسة) ١٢٢٦ حوالي	و(مدخل)
٨- جامع قمريه ١٢٢٨	١٣- خان مرجان ١٣٥٩
٩- جامع السهروردي ١٢٣٤	
(قبر)	

د- العصر الصفوي (١٥٠٨-١٥٢٣) (١٥٢٩-١٥٣٤) (١٦٢٢-١٦٣٨)

١٧١٣	٢٥- حمام أيوب	١٥١٩	١٤- جامع الكاظمية
١٧٥٥	٢٦- جامع العادلية	١٥٣٤	١٥- جامع الكيلاني
١٧٧٢	٢٧- جامع النعمانية	١٥٣٤	١٦- خان سرور
١٧٩٦	٢٨- جامع الأحمدية	١٥٣٥	١٧- جامع أبو يوسف
١٨٠٢	٢٩- سوق السراجين	١٥٦٦	١٨- جامع المرادية
١٨١٠	٣٠- جامع الباندانجي	١٥٨٠	١٩- الجامع الصفوي
١٨١٥	٣١- جامع الاحصائي	١٦٥٨	٢٠- جامع الخاصكي
١٨٢٥	٣٢- جامع الأصفية	١٦٧٦	٢١- جامع القبلاني (منارة)
١٨٢٦	٣٣- جامع الحيدرخانة	١٦٨١	٢٢- جامع الإمام الأعظم
١٨٦٩	٣٤- السراي والقشلة	١٦٨٤	٢٣- جامع حسن باشا
١٨٦٩	٣٥- مدرسة الصنائع	١٧٠٧	٢٤- جامع السراي

المصدر: الكاتب

الجدول (٢)

المعماريون العشرون الأوائل خلال عشرين عاما (١٩٣٦ - ١٩٥٦)

الاسم	الولادة (و الوفاة)	تاريخ التخرج	الجامعة
١- أحمد مختار	١٩٠٧-١٩٦٠	١٩٣٦	ليفربول - بريطانيا
٢- حازم نامق	١٩١١-	١٩٣٦	كارديف - بريطانيا
٣- مدحت مظلوم	١٩١٣-١٩٧٣	١٩٣٩	ليفربول - بريطانيا
٤- جعفر علاوي	١٩١٥-	١٩٣٩	ليفربول - بريطانيا
٥- محمد مكية	١٩١٤-	١٩٤٢	ليفربول - بريطانيا
٦- عبد الله إحسان كامل	١٩١٩-٢	١٩٤٣	ليفربول - بريطانيا
٧- نعمان الجليلي	١٩٢٠-٢	١٩٤٦	القاهرة - مصر
٨- سعيد مظلوم	١٩٢٠-٢	١٩٤٩	ليفربول - بريطانيا
٩- فاضل لازار	١٩٢٢-٢	١٩٥٠	دورهام - بريطانيا

١٠- قحطان المدفعي	١٩٢٧-	١٩٥٠	كارديف - بريطانيا
١١- قحطان عوني	١٩٢٦-١٩٧٢	١٩٥١	بيركلي - الولايات المتحدة
١٢- حامد رشيد	١٩٢٦-؟	١٩٥١	القاهرة - مصر
١٣- رفعة الجادرجي	١٩٢٦-	١٩٥٢	هامرسميث - بريطانيا
١٤- حازم التيك	١٩٢٧-	١٩٥١	بيركلي - الولايات المتحدة
١٥- ناصر الأسدي	١٩٢٩-؟	١٩٥٢	تكساس - الولايات المتحدة
١٦- محمد حمدي	١٩٣٠-	١٩٥٢	الولايات المتحدة
١٧- هشام منير	١٩٣٠-	١٩٥٣	تكساس - الولايات المتحدة
١٨- مهدي الحسني	١٩٣٢-؟	١٩٥٥	كارديف - بريطانيا
١٩- إحسان بربوتي	١٩٣٢-؟	١٩٥٦	ألمانيا الغربية
٢٠- عدنان أمين	١٩٣٢-؟	١٩٥٦	هامرسميث - بريطانيا

هوامش المترجم

* العنوان الأساسي للمقال:

"CONTEMPORARY ARCHITECTURE IN BAGHDAD - Its Roots and Transition"

نشر المقال في مجلة "Process-Architecture"، العدد ٥٨، أيار ١٩٨٥، طوكيو - اليابان.
الكاتب أستاذ صيانة العمارة في جامعة بغداد، رئيس القسم المعماري لسلوات، حصل على بكالوريوس عمارة من جامعة ويلز والدكتوراه من جامعة شيفيلد - بريطانيا.
ارتأيت ترجمة المقال رغم مرور سنوات على نشره، لكون المعلومات، والأهم آراء وتقييمات الكاتب العميقة، تجعل المقال محتفظاً بحيويته اليوم.

^١ أبو جعفر المنصور (٧١٢-٧٧٥م)، بدء خلافته عام ٧٥٤ وليس ٧٦٢ كما ذكر الكاتب. كانت الماشية، قبل بغداد، هي عاصمة الخلافة العباسية الأولى.

^٢ لتفاصيل أكثر حول تأسيس مدينة السلام، بغداد المدورة، انظر: د. مصطفى حواد وآخرين "بغداد"، نشر نقابة المهندسين العراقيين، بغداد ١٩٦٩. كذلك انظر: هادي العلوي "من التاريخ المعماري لبغداد"، مجلة البديل العدد ٨، حزيران ١٩٨٦. كذلك انظر للمترجم: "نظرة خاصة لمدينة بغداد المدورة"، الثقافة الجديدة، العدد ٢١٨ - ١٩٩٠.

^٣ إن كل المصادر التاريخية تحت أن بغداد أُمِلت تماماً بعد ٧٥ سنة من تأسيسها حيث انتقلت العاصمة إلى سامراء، ثم عادت العاصمة إلى بغداد ثانية بعد ٥١ عاماً من هجرها. ولكنها عمت وازدهرت في الجانب الشرقي من دجلة (يقع مركزها حالياً في شارع النهر).

^٤ لتفاصيل أكثر حول البيت البغدادي، انظر للمترجم "البيت البغدادي"، الثقافة الجديدة العدد ١٧٩ - ١٩٨٦.

^٥ إن هدم الأسوار قد أدى فعلاً إلى توسيع عمراني. لكن مما ينبغي الإشارة إليه، هو أن معظم الأسوار في مدن العالم قد هُدمت في تلك الفترة. ولم يكن سبب ذلك التوسع العمراني فحسب، ولكن في الأساس بسبب اكتشاف البارود (الديناميت) الذي حمل الأسوار غير ذات فائدة.

^٦ العقادة Jack Arching: نظام خاص بالنسقيف. يعتمد على جسور حديدية على شكل حرف (I) (في البداية تم استخدام حديد السكك الحديدية)، يتم توزيع هذه الجسور على المسافة الأقرب من الفضاء المراد تسقيفه، ومسافات، عادة لا تتجاوز ٧٥-٨٠ سم. يتم التسقيف من خلال ملء الفضاءات المتولدة بالطابوق مع مونة الحصى. يبنى الطابوق على شكل أقواس، إن العائدة من استعمال الحصى تعود لكونه سريع التصلب، فتلتصق الطابوقة فوق الأخرى به، ويتم تركها للحظاظ ثم توضع الأخرى وهكذا دواليك.

^٧ لتعاصيل أكثر انظر: سعاد عبد علي مهدي "عمارة الألمان في بغداد في القرن العشرين"، مجلة فكر وفن - العدد ٥٠ / ١٩٩٦، انترنشن - ألمانيا.

^٨ يدور لي أنه خطأ مطبعي، حيث أن لويغسون أعمال في بغداد قبل وبعد هذا التاريخ. وهو موظف في بغداد قبل عام ١٩٢٠ في الأقل.

^٩ د. محمد مكبة: درس العمارة وتخطيط المدن في اسكتلندا والولايات المتحدة. أسس مكتبه الخاص منذ ١٩٤٦ (د. مكبة ومشاركونه). رئيس جمعية المهندسين العراقيين سابقاً، ورئيس القسم المعماري في جامعة بغداد حتى عام ١٩٦٨ ثم اضطر لمعادرة العراق الى بلدان الخليج العربي. استقر لسنوات في سلطنة عمان، حالياً يقيم بشكل دائم في بريطانيا.

^{١٠} نوري قدح: معمار سوري، ولد في حلب. تخرج من الوزلو - باريس. أقام في العراق منذ أوائل الثلاثينيات حيث كان موظفاً في مديرية الأشغال العامة. عاد العراق هارباً، بعد مشاركته في حركة الكيلاني عام ١٩٤١.

^{١١} لو كوربوزيه (١٨٨٨-١٩٦٥): سويسري الأصل، عمل في فرنسا ومال الحسية الفرنسية. فنان ومعمار. لم يدرس العمارة. يعتبر أشهر رواد العمارة الحديثة في القرن العشرين. هيمن على العمارة كما لم يهيمن عليها أحد. له مؤلفات معمارية عديدة. له مشاريع عديدة من أهمها تصميم مدينة تشانديكار في الهند، الوحدة السكنية في مارسيليا، كنيسة رومنان، فيلا سافوا في فرنسا. صمم المجموع الرياضي الحالي في العراق.

والتر كروبيوس (١٨٨٣-١٩٦٨): معمار ألماني يعتبر أحد رواد العمارة الحديثة. أسس ودرس في مدرسة الباوهاوس الشهيرة. انتقل الى الولايات المتحدة في الثلاثينيات. أسس مكتب (T.A.C.) العامل حتى الآن. صمم في أواخر الخمسينيات مجمع جامعة بغداد (تحت التنفيذ)، أصبح هشام مير ومشاركونه المثلثين المحليين له.

أوسكار نيماير (١٩٠٧-٢٠٠٤): ولد في البرازيل. معمار ورسام وكاتب وشاعر. يعتبر من أشهر الممارين ومخططي المدن العالميين، وهو أحد ممثلي العمارة الحديثة. يعتبر المصمم الأول لعاصمة البرازيل (برازيليا)، عمل مع لو كوربوزيه (١٩٣٧). صمم في نهاية الستينيات، جامعة قسنطينة وناب الروار في الجزائر.

^{١٢} فرانك لويد رايت (١٨٦٩-١٩٥٩): أحد أشهر الممارين الرواد للعمارة العضوية الحديثة، خاصة في الولايات المتحدة. أسس مكتبه الخاص منذ أواخر القرن الماضي. غادر شيكاغو الى طوكيو ثم الى برلين. لم يدرس العمارة. له مشاريع متميزة ورابعة من أهمها: فيلا الشلالات، مجمع جونسون للشمع، متحف كوكنهايم، وكلها في الولايات المتحدة.

^{١٣} دو كسيادس وكنتار كوة: معماريون ومخططو مدن يونانيون. من أهم مشاريعهم في العراق: مجمع إسكان عربي بغداد.

^{١٤} آن ناستا وزوجته المعمارية، كانا أستاذي العمارة في القسم المعماري حتى عام ١٩٧٢، وهما من جيكونسولوفاكيا وليس من بولونيا كما أشار الكاتب. ويبدو أن الاسم اختلط مع اسم ناشستا وهو من بولونيا فعلا الذي كان أستاذ العمارة وتاريخ الفن المعماري حتى عام ١٩٧٢ أيضاً.

^{١٥} حرص هشام مير أثناء توليه رئاسة القسم المعماري في جامعة بغداد (١٩٦٨-١٩٧١) على استقدام أشهر الفنانين العراقيين للتدريس الرسم اليدوي والخط العربي: فرح عبو ومحمد مهر الدين ومحمد علي شاكور وغيرهم.

أهوار جنوب العراق عبر الرواية الإسلامية

(٢ من ٢)

د. رشيد الخيون

القول بالأصل العربي لأهل الأهوار كافة تعترضه طبيعة المنطقة؛ فهي تحتاج إلى نوع من الخبرة التاريخية في أسلوب الحياة أو بناء عمارة القصب التي لا تختلف بمكان عنها أيام السومريين. والفارق كبير بين بيئة البادية وبيئة الماء، فأهل الماء مثلاً وصفتهم الرحالة الإنكليزية ليدي دراور: "فيهم شيء من الطيور المائية، وما يدرج الصبي (لا وتجده سابحاً في الماء، وسيبقون كذلك على الراجح أبد الدهر". وكان عتبة بن غزوان نبيها بوصفه للأهوار: "ليس هذه من منازل العرب". وتستدل (هليوش) دلائل قدم سكان الأهوار باستخدامهم للأدوات التالية: الحصران (البواري)، والقارب العجيب (المشحوف) والمنجل، وأن هذه الأدوات "معروفة في بلاد الرافدين الجنوبية". وأكد أحمد سوسة، صاحب الدراسات المستفيضة في حضارة الماء بالعراق، قدم سكان الأهوار بقوله: إنهم "جماعة من السومريين الأوائل، قد انفردوا في نمط حياتهم البطائحية الخاصة بهم، حيث كانت الأهوار الشاسعة مقرهم، وميدان تنقلاتهم وحركاتهم"^١.

ومن تركة اللغة السومرية في لهجة أهل الأهوار، الحالية، كلمة (ايشان) وتعني التل المحاط بالماء، و تسمى الأهوار بالسومرية "الأكامي" وهي قريبة من لفظة الأجمة، التي تعني المسطحات المائية، التي تنمو فيها نباتات القصب والبردي"^٢. وفي الملحمة السومرية ورد ذكر الهور بالقول: "العلي": "عندما لم تكن بعد مراع خضر، عندما لم تكن بعد أجمات القصب"^٣. وعن قدم الهور أيضاً، أشار عالم الآثار طه. باقر في سياق دراسته أن

البردي معروف بـ: "أربتو" عند السومريين، كما وردت في كتابات الملك الآشوري شيلمنصر الثالث (٨٥٨-٨٢٤ ق.م)، قال باقر: "نكر نوع من القوارب صنعت من نبات أربتو، وميزت عن نوع آخر من القوارب كانوا يستعملون فيها الجلود المنفوخة، أي أن النوع الأول من القوارب هو الذي يشبه القوارب التي تصنع في العراق الآن من البردي والقير، كالمشاحيف والقارب المدور المسمى في العراق الآن باسم القفصة، كما ذكرت المصادر المسمارية الحصر المصنوعة من هذا النبات، وقد سميتها باسم أرشو أربتي، أي فرش البردي".

والأهم من هذا أن كلمة سومر ما زالت تتردد بالمنطقة بالصيغر أو الصيغر، كإسم لشريحة كبيرة من الناس يقطنون شمال البصرة على حافة الهور، وإسم لقادة كلفتهم الدولة العباسية والسلطة البويهية بمطاردة المتمردين. قال عامر حنك في "أهوار جنوب العراق" (ص ٤٥): "إن قبائل أهوار نهاية الفرات الجنوبية، ضمن هور الحمّار، يطلق عليهم أسم السيامر المشتقة من أسم السومريين، غير أنه لا توجد قبيلة بمفردها تحمل أسم السيامر، وإنما كل قبيلة تحمل اسمها الخاص بها، وترجع بنسبها إلى قبيلة من القبائل العربية المعروفة، وتعتبرها القبلية الأم، ومع هذا أن الانتماء إلى السومريين لا ضير فيه ما دام هم سكان العراق الأصليين". وذكر ابن حوقل في "صورة الأرض" منطقة بإسم الصيمرة أي الصيمرة، وهناك قادة عسكريين لقبوا بالصيمري. وأحسب أن القوارب المعروفة بالسيمريات، والتي كثيراً ما ذكرها الطبري في تفاصيل ثورة الزنج، محرفة من السيمريات أي السومريات، مثلما حرف العراقيون اسم القوارب المعروفة باليرمات إلى يلمات أو بلام (عبود الشالجي، تحقيق الرسالة البغدادية، هامش ص ٣١٧). ويعرف علي الشرقي السيمريات بقوله: "الزوارق الدقيقة ولا سيما لقطع السهورين المجاورين لها" (بعض مدن البطائح القديمة، مجلة لغة العرب، ١٩٢٧).

وعند مجيء العرب بعد الفتح الإسلامي عرف سكان الأهوار، وفلاحو الجنوب العراقي بالنبط، وعمم بعض المؤرخين هذه التسمية لتشمل سكان العراق كافة، وفي ذلك قال المسعودي في "التبیه والإشراف": "العراق أشرف المواضع التي اختارتها ملوك الأمم من النماردة، وهم ملوك السريانيين، الذين تسميهم العرب بالنبط". ويخص المؤرخ عبد العزيز الدوري أهل الأهوار بإسم النبط، بقوله: "يستعمل لفظ النبط للإشارة إلى الفلاحين، الذين يتكلمون الآرامية في العراق، وخصوصاً في منطقة البطيحة". وقال المسعودي، في المصدر نفسه، حول اختلاط النبط بالفرس بعد سيطرتهم على العراق: "قلما غلبت الفرس

عليهم لما كان بينهم من التحزب والحروب، واختلاف الكلمة، وتباين الممالك، ودامت أيامهم، واتصل ملكهم دخلوا في جملتهم، وتعزّزوا بهم، انتسبوا إليهم". وأيد عبد العزيز الدوري، بدوافع أخرى نسبة هؤلاء النبط إلى الفرس بقوله: "ويصيب المسعودي حين يعتبر النبط سكان العراق القدماء، وأن الفرس أضعفهم، ثم يذكر أن النبط دخلوا في جملة الفرس - انتسبوا إليهم ع د - وإنه لما حصلت الفتوحات الإسلامية ذهب بعض النبط إلى الانتساب للفرس". لكن الواقع ينقض قول الدوري الذي لا يحمل وداً للمنطقة وأهلها، فأهل الأهوار الأنباط، منهم من ظل على لغته الآرامية وتقاليد الدين كالأصابنة المندائيين، ومنهم من تكلم العربية بعد إسلامه، وأغلب مفكري البصرة من المعتزلة وغيرهم كانوا من الآراميين، وموالاتهم لا تعني فارسيّتهم، فكل عراقي غير عربي يُعدّ مولى.

وفي تشييع سكان الأهوار وردت آراء عديدة، أغلبها جانب الحقيقة، فمنها ما أكد علاقة ذلك بالنفوذ الإيراني، أيام وبعد، إسماعيل الصفوي، الذي حول إيران إلى المذهب الشيعي رسمياً، وأن ذلك حصل عند تبادل المواقع بالبصرة بين الصفويين الشيعة والعثمانيين السنة. ومن مؤرخي العهد العثماني اعتقد إبراهيم صبغة الله الحيدري في كتابه (عنوان المجد في أحوال بغداد والبصرة ونجد) أن تشييع عشائر جنوب العراق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كان سببه، حسب رأيه، ضعف تأثير فقهاء المذاهب السنية لقتلهم آنذاك. لكن الذين بحثوا في هذا الأمر لم يلتفتوا إلى وجود الإمارة الشيعية الإمامية في الأهوار التي أسسها عمران بن شاهين ربيب البويهيين السابق، والمختلف معهم فيما بعد بالسياسة والمذهب - كان البويهيون على المذهب الشيعي الزيدي صاحب الفروع الحنفية، أي هم أقرب إلى التسنن من التشيع -، والتي تابع يومياتها بالتفصيل ابن الأثير في كتابه (الكامل في التاريخ)، والقرطبي في كتابه (صلة تاريخ الطبري) وآخرون. ولا نعتقد أن هذه الإمارة كانت بداية التشيع في ذلك المكان.

أما حكاية نقل الزط إلى الأهوار مع جواميسهم فقد بُنيت عليها روايات شككت بأصل سكان المنطقة العراقي. لكن لأمر ليس هكذا، لأن الزط قدموا من الهند أيام الساسانيين، وقاموا بثورات عديدة ضد العباسيين، وكان منهم المزارعون وأهل الطرب والفن والخدمة العامة، وقد سكنوا المدن مثل البصرة وواسط، ولم يقتربوا من الأهوار، حتى قضى عليهم المعتصم بالقتل والتهجير إلى حدود الروم البيزنطيين، حيث تغور الحرب بين الدولتين، وبقياهم اليوم في بلدان شرق أوربا يعرفون بالسبكان. ومن المؤسف له أن الفقيه العلامة

هادي العلوي ينقل في (قاموس الإنسان والمجتمع) مثل هذه المعلومة دون تمحيص، فقد ورد تحت عنوان زُطَي: "رديء جاهل جلف نسبة إلى الزط، وهم نَزاع من الهند استوطنوا البطائح (أهوار العراق/ العلوي) وأثاروا مشكلات للدولة العباسية". ووجود حيوان الجاموس بالمنطقة قديماً يكذب تلك الرواية وناقليها، فهي بيئته الطبيعية، أكدت ذلك المنحوتات السومرية، ومنها ختم يصور "جلجامش يصرع جاموسين وحشيين من رجليهما الخلفية". ورداً على من جعل من الحجاج بن يوسف الثقفي خبيراً بأمر الأهوار، حتى جلب ما يلائمها من البشر والحيوان من الهند، قال أحمد سوسة: "إن الجاموس الوحشي كان موجوداً في منطقة الأهوار، قبل أن يظهره السومريون الفنيون على أختامهم وألواحهم بزمان طويل، ويعتقد أنه كان أول الحيوانات الوحشية التي انقرضت في جنوبي العراق، حيث اختفى كحيوان وحشي بعد منتصف الألف الثالث قبل الميلاد. وهذا يكشف خطأ النظرية القائلة بأن الجاموس عرف أول مرة في العراق في عهد ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي، حين أتى محمد بن القاسم، الذي أقتحم بلاد الهند والسند، بناس من شط السند والهند معهم أهلوهـم وأولادهم وجواميسهم، وأسكنهم البطيحة"⁶.

ومن تراث أهل الأهوار الشفاهي المتواتر أسطورة تدجين هذا الحيوان، سجلتها (هلبوش) عن قبيلة الشغبانة المتأصلة بالمنطقة: "جاء الجاموس من النهر العظيم، من الماء، وعندما ظهر لم يدر أحد نوع هذا الحيوان، فخافه الناس، ولكن أحد المعدان كان يعيش عند الهور، وكان يرى كل يوم قطعان الجاموس تمر من أمام بيته عند الصباح، وتعود في المساء، فتنام خلف كوخه. فخاف منها كثيراً، وهكذا مرت عليه ثلاثة أشهر وهو في هذه الحال. وذات يوم ولدت أنثى الجاموس، ولكن المعيدي لم يفهم ما حدث، إلا أنه كان يرى أن الجاموس الصغير يذهب إلى الجاموس الكبير ويمص ثديها فيخرج بعد ذلك ماء أبيض ويسيل من الثديين على الأرض. واستمرت به هذه الحال عشرة أيام وهو لا يستطيع فهم ما يشاهده، وبعد مرور هذه الأيام العشرة رأى أن الحليب يقطر من الثديين على الأرض فجاء بقدر ووضعته تحتها ثم ذاقه ليتعرف على طعمه فاستطابه، فأراد أن يحصل على جميع الحليب من الجاموس فربط عجل الجاموس حتى لا يشرب جميع الحليب، وبهذه الطريقة تعرف الإنسان على حليب الجاموس"⁷.

كانت بيئة الأهوار حاضرة في "مناظرات المياه" بين البصريين والكوفيين، وذكر المسعودي منها بقوله: "ولأهل البصرة وأهل الكوفة، ومن شرب من دجلة مناظرات كثيرة

في مياههم ومنافعها، منها ما عاب به أهل الكوفة أهل البصرة فقالوا: ماؤكم كدر زهك ذفر، فقال أهل البصرة: من أين يأتي ماؤنا الكدر وماء البحر صاف وماء البطيخة صاف، وهما يمتزجان في وسط بلادنا؟ قال الكوفيون: فضيلة مائنا على دجلة - الكوفة تشرب من الفرات - فما ظنك بفضيلته على ماء البصرة، وهو يختلط بماء البحر، ومن الماء المستنقع في أصول القصب والبردي^٨. وذكر صالح أحمد العلي مناظرة في المياه جرت في مجلس أبي العباس السفاح بين بصري وكوفي، قال الكوفي: "وإنما البصرة من العراق بمثابة المثانة من الجسد، ينتهي إليها الماء بعد تغييره وفساده، مضغوطة من قبل ظهرها بأخشن أحجار الحجاز وأقلها خيرا، ومضغوطة من فوقها ببطيختها - أهوارها -"^٩.

رأى الجاحظ أن الأهوار مصفاة طبيعية للمياه، جاء ذلك في رده على تقولات أهل الكوفة على مياه البصرة: "وهم يعيرون ماء البصرة، وماء البصرة رقيق، قد ذهب عنه الطين والماء المشوب بماء بغداد والكوفة لطول مقامه بالبطيخة، وقد لان وصفا"^{١٠}. ومقولة الجاحظ في الماء بعد مروره بالأهوار نابعة من اعتقاد ما زال حيا بين الناس، فمن تجربة متراكمة يرى أهل المنطقة أن الماء يبدو عذبا كلما توغلوا في عمق السهول، فعادة يكون الماء هناك صافيا، وزلالا عند الشرب. ومن غير مروره بين القصب والبردي يمر ماء السهول عبر نباتات أخرى عديدة تعلق فيها الجسيمات الصغيرة جدا، ومنها نبات (الشمبلان) الخشن الملمس، الذي تشبه أوراقه الشوكية وتماسكها أسلاك مصافي الماء الاصطناعية.

ظلت الأهوار، قديما وحديثا، ملجأ آمنا للمغضوب عليهم من السلطات، وقد آمن من استجار بقصبها وبرديها، وحول ذلك يخبرنا التاريخ القديم بخبر الملك الأشوري (سنحاريب) وهو يطارد اللاجئين المتحصنين بالأهوار، وتظهر إحدى التحف الفنية جنود آشور وهم يركبون الزوارق (السيمريات) يشقون بها غابات القصب والبردي. كذلك لجأ أهل البصرة إليها عقب الفتح الإسلامي، ولجأ إليها أيضا ثوار الزنج بعد أن ضاقت البصرة بهم، ولجأ إليها أهل البصرة وأهل واسط بعد سماعهم بحصار المغول للنتار ببغداد، كما لجأ أهل الحلة والكوفة وما حوالها إلى الأهوار المحيطة بمنطقة الديوانية، والصغيرة بالقياس لأهوار الجنوب.

ومن أبرز لاجئي الأهوار كان الخليفة القادر العباسي، قبل أن يتولى الخلافة، هاربا من تربص الطائع بالله به، ذكر ابن الأثير خبره في (الكامل في التاريخ) بقوله: "خرج من داره واستتر ثم سار إلى البطيخة (...) وكانت مدة إقامته سنتين وأحد عشر شهرا". وذكر

القاضي أبو علي المحسن التتوخي (ت ٣٨٤هـ) قصة لجوئه إلى الأهوار بقوله: "كان لسي في هذا الحديث، خبر طريف، وذلك أنني كنت لجأت إلى البطيحة، هاربا من نكبة لحقتني (...). فألقيت هناك جماعة من معارفي، بالبصرة وواسط، خائفين على نفوسهم، قد هربوا من ابن بقية، الذي كان في ذلك الوقت وزيرا - عند البويهيين -، ولجئوا إلى البطيحة"^{١١}.

وجاء في (صلة تاريخ الطبري)، (أحداث السنة ٣٣٨هـ)، خبر هروب عمران بن شاهين من أمير واسط البويهي، فأقام بعد ذلك إمارة في الأهوار، وعاش "بين القصب يصيد السمك، ثم تلصص، واجتمع معه جماعة من الصيادين". ومن اللاجئين الأمير الأموي يزيد بن المهلب، ذكر الطبري (أحداث السنة ٩٠هـ) قصة لجوئه، بقوله: "بعد هروبه من سجن الحجاج إلى البطائح ثم السماوة". وذكر ابن الجوزي في (المنتظم)، و(الرونداورى) في (ذيل تجارب الأمم) خبر لجوء نقيب الطالبين محمد بن عمر العلوي (ت ٣٩٠هـ) بعد أن نقم عليه عضد الدولة البويهي، وخبر وجهاء آخرين. ولعل الزعيم المصري أحمد عرابي كان حفيدا لأحد اللاجئين في الأهوار، فقد ورد في مذكراته: "أن جده السيد صالح البلاس نسبة إلى بلاس وهي قرية صغيرة في بطائح العراق"^{١٢}.

ويختصر صاحب (معجم البلدان) مهام الأهوار في مقارعة الأنظمة بقوله: "وتغلب عليها في أوائل أيام آل بويه أقوام من أهلها، وتحصنوا بالمياه والسفن، وجارت تلك الأرض عن طاعة السلطان، وصارت تلك المياه لهم كالمعاقل الحصينة". كما كانت الأهوار في العهد العثماني ملاذا للاجئين، فلجا إليها حسين باشا، وهو من أسرة أفراسياب، بعد أن عزل وعين ولده أميرا على البصرة بدلا عنه، وقد طارفته القوات القادمة من بغداد بقيادة وزير العراق، ودخلت إلى الأهوار منطقة الجبايش العام ١٦٦٨م، ورد في الخبر "وفي دار بني أسد أصطدم الجيش وثلة مؤلفة من خمسة آلاف مقاتل من أتباع حسين المدججين بالسلاح، فكسرت شر كسرة، وكابدت خسائر فادحة بعد قتال دام عدة ساعات. فتفرق رجال القبائل بمشاحيفهم بين آجام البردي العالية في الهور. وشيد قره مصطفى منارة من رؤوس قتلى العدو تشديدا لعزم رجاله"^{١٣}. ولعل هذه الرواية للصادرة من المفتش الإداري في الحكومة العراقية آنذاك، حسب تعريف مترجم الكتاب للمؤلف، غائبة عن أنظار الذين كتبوا عن العهد العثماني برومانسية، ومن الذين جعلوا من بناية السراي، وبعض أعمال مدحت باشا، وجادة خليل باشا (شارع الرشيد) مفخرة تركية، أما منارة الرؤوس ليس لها أثر في كتبهم، وبالتأكيد جمع لها الحاكم العثماني آلاف الرؤوس، بعد أن فصلها عن الأجساد، حتى ترتفع فوق قمة القصب السامقة. ومن أخبار تسعينيات القرن التاسع عشر أن عاقب

قائد الخيالة بالعراق كاظم باشا - أخو زوجة السلطان عبد الحميد - الشيخ صيهود شيخ آل بو محمد وعشيرته من أهوار العمارة، وأبعد الشيخ حسن الخيون "من الهور عنوة"، وهناك أحداث كثيرة لا مجال لذكرها في هذا البحث.

وفي العهد الملكي اشتدت ثورات الأهوار بالناصرية بقيادة الشيخ غضبان الخيون، الذي أبعد أخوه سالم الخيون بعد محاكمة بدسية من محسن السعدون إلى خارج العراق، وقصف الجبايش العام ١٩٢٥ بالطائرات البريطانية، ولم تهدأ تلك الثورات حتى قيام الجمهورية في ١٤ تموز، وذهاب الشيخ غضبان لمقابلة الزعيم عبد الكريم قاسم لكنه توفي في الفندق ببغداد، بعد تناول طعام الغداء بالفندق، وما زال الناس يشيرون إلى تعرضه لعملية اغتيال. وآخر ما حدث في الأهوار قبيل مجيء البعث إلى السلطة ظهور حركة الكفاح المسلح، والمعروف من رجالها في هور الحمار أمين الخيون، وقد قتل أخوه جميل الخيون من قبل الجمعيات الفلاحية بعد انقلاب ١٩٦٨ بشهور، والجمعيات المذكورة تنظيمات أمنية لا علاقة لها بالفلاحة، ومن مهامها الرئيسية تنفيذ عمليات الإغتيال والتجسس. كذلك اتخذت سلطة البعث إجراءات احترازية من قيام حركة ما بالأهوار بعد فشل تنظيم القيادة المركزية، فقامت بترتيب تنظيم أمني. وبأثر ذلك اغتيل في ٥ مايو ١٩٧٠ محسن الخيون، وهو رجل لا علاقة له بالسياسة ولا يقرأ ولا يكتب، ولكن دخل ذلك التنظيم الوهمي المتصل بأمن البصرة بدافع مصلحة العائلة. وقد شهدت جثته وهي مرمية على حافة الهور، وكانت حادثة مرعبة للمنطقة الآمنة، والذي نفذ العملية رجال أمن قدموا من بغداد ليلاً، بالتعاون مع شخص كان من تنظيمات الكفاح المسلح بالمنطقة، يدعى جاسم مكطوف خشان. وطريقة الاغتيال كانت بحشر كوفيته بفمه حتى الرئتين، وربط يديه وكسرهما، وثلاث رصاصات في عنقه، سمعا صوتها وسط أجواء الهور الهادئة، ولكننا فسرناها برمي طيور أو ما شابه ذلك.

حول تجفيف الأهوار

إن لتجفيف الأهوار أكثر من دافع، لكن دافع تصفية المعارضة، التي تتخذ عادة من أغوارها مكاناً للتحرك، يبقى الرئيسي، فالدولة التي لا تبحث بالأسباب وتعالجها لا تجد أمامها غير قتل المنطقة بسد منافذ الماء إليها، لتسهيل دخول جنودها بوسائل النقل البري. ومن دوافع التجفيف الأخرى توسيع الأراضي الصالحة للزراعة وتنظيم الري، ويعني هذا قديماً زيادة الخراج، وتسهيل دخول جباته إلى المنطقة، وبطبيعة الحال لا يحسب مصلحو

الأرض حسابا لطبيعة المنطقة، وما فيها من تفاصيل نادرة.

ومن تاريخ تجفيف المنطقة قديما ما قام به الملك البابلي (نبوخذنصر)، من عمليات في سبيل تنظيم الري. ومن أعمال هذا الملك، قريبا من الأهوار، أنه "أحتفر النهر المعروف بنهر الملك - لعله نهر الغراف حاليا -، وهو الذي حفر موضعاً واسعاً وترعة للماء الزائد من الفرات، أي خزاناً، وأقام سدوداً كثيرة"^{١٤}. كذلك حاول الملوك الساسانيون تنظيم الري، فأقاموا "القناطر والسدود، وردع الماء بالمسنيات، حتى أن الملك أبرويز صلب في يوم واحد أربعين جساراً لتسامحهم في شأن السدود". وفي سبيل زيادة نسبة الخراج ولي معاوية بن أبي سفيان، عبد الله بن دراج مولاه على خراج العراق: "واستخرج له من الأرضين بالبطائح ما بلغت غلته خمسة آلاف ألف درهم، وذلك أنه قطع القصب، وغلب الماء بالمسنيات"^{١٥}. وذكر الجغرافي ابن رسته: "أن خالد بن عبد الله عامل الأمويين حاول أن يسكر - يعد - دجلة، وأنفق الأموال فلم ينجح سعيه، وسط دجلة على البنيان المعمور"^{١٦}. وفي محاولة لإصلاح الأرض بتجفيفها استكثر الوليد بن عبد الملك ثلاثة ملايين درهم، بعد أن عرض عليه الحجاج بن يوسف الثقفي تقديراً لتكاليف المشروع. ويذكر البلاذري في (فتوح البلدان): أن حسان النبطي، صاحب حوض البصرة تمكن من تجفيف جزئي في الأهوار، و"استخرج للحجاج أيام الوليد، ولهشام بن عبد الملك أرضين من أراضي البطيحة". وجرى محاولات عديدة، غير ناجحة، لسد نوافذ المياه على المنطقة في مواجهة المعارضة في العهدين البويهي والسلجوقي، وقبلهما من قبل العباسيين أيام ثورة الزنج بالبصرة وامتدادها إلى الأهوار. وفي العهد العثماني أجتهد أحد شيوخ المنطقة، بموافقة آل سعدون بالمنتفك (الناصرية) بإقامة سد على طول هور الحمار، لا يحجز الماء عن الأهوار، وإنما يحمي الأرض التي خلفه، من أجل زراعتها، ويمتد هذا السد من سوق الشيوخ إلى القرنة، وكان ذلك بالسبعينيات من القرن التاسع عشر، ومن تفاصيل هذه العملية: "قام الشيخ حسن لبنائه الآلاف من أفراد عشيرته بطريقة السخرة، فلما سامت العلاقة بين حسن آل خيون وناصر باشا آل سعدون هدم الشيخ حسن السد وبقي بعد ذلك مخرباً"^{١٧}. ويذكر أهالي هور الحمار خراب هذا السد لخلاف مع آل السعدون، بسبب منه المذهبي ومنه الاقتصادي، ويشار إلى هدم ذلك السد بمكان يسمى حالياً بكرمة حسن، قريبا من سوق الشيوخ"^{١٨}.

ومن محاولات التجفيف في العهد الملكي يذكر عامر حस्क - من شيوخ الإمارة بالبصرة، وضابط كبير بالجيش العراقي ومتصرف لواء الناصرية العام ١٩٦٦-١٩٦٧ -

قرار مجلس الأعمار بتجفيف أهوار شرق دجلة ثم هور الحمار، بقوله: "كان مجلس الأعمار قد أعد مشروعا لتجفيف الأهوار التي نحن بصددھا، غير أن المشروع أصطدم بواقع أن الأهوار تعتبر الأماكن الطبيعية لتربية الأسماك، حيث تتغذى علی حشائشھا وأعشابھا، وتحتمي في مخابئھا وكهوفھا المتواجدة تحت منابت القصب (...) ولما كانت الأسماك مادة غذائية واقتصادية لا غنى للشعب العراقي عنھا، لذا صرّف النظر عن تجفيف أهوار المنطقة الوسطى - بين دجلة والفرات - والمنطقة الشرقية - شرق دجلة - لعلاقة الحكومة الإيرانية بھا، واتجهت الفكرة إلى تجفيف أهوار منطقة الحمار فقط. هذا ما نقله لي المرحوم طه الهاشمي رئيس مجلس الأعمار حينذاك"^{١٩}. وفي السبعينيات وردت حجة التجفيف في المرجع نفسه: "بعد أن وجد النفط، ولا سيما في منطقة الأهوار الوسطى، فقد بدأت الطرق تشق وسط الأهوار، وبدأ الحوض يتقلص، ولا شك أنه ماشي إلى التجفيف". ومعلوم، أن استخراج النفط يتم بطرق فنية من البحار العميقة جدا، فلماذا يشترط استخراجه، إن وجد، من تحت مياه الأهوار بضرية التجفيف؟ إن لم يكن هناك دافع آخر!

أما ما شاع حول النهر الثالث بأنه إحياء لمشروع اروائي قديم، لم تتمكن السلطات السابقة تنفيذه، فلا وجود له على أرض الواقع، بالصورة المطروحة من قبل الجهات الرسمية، صرح بذلك وزير الزراعة والري (١٩٥٣-١٩٥٤) عبد الغني الدلي بقوله: "إن ما رأيته عند زيارتي لمشروع البزل الرئيسي في لواء الحلة (بابل) كان مدهشا حقاً، حيث كانت مكائن الحفر الضخمة تشق جدولا بلغ عرضه نحو (٣٠-٤٠) متراً، وترتفع أكداًس التراب على جانبيه إلى علو شاهق، أما عمقه فكان يتراوح من ستة إلى سبعة أمتار، واذكر جيداً أن أحد المهندسين قال لي متباهياً: إننا نسمي هذا البزل النهر الثالث، لأنه سوف لا يقل أهمية وسعة بعد إكماله عن النهرين، دجلة والفرات. وهكذا فإن ما صار يعرف منذ ذلك الحين بالنهر الثالث لم يكن مشروعا لسقي الأرض وريھا، بل كان مشروعا ضروريا لتصريف المياه من المزارع بعد سقايتها، ومنع الماء من تكون مستنقعات"^{٢٠}.

لا يليق بتلك المنطقة غير أن تبقى مؤثرة في توازن البيئة والمناخ ووطنا كبيرا للأسماك والطيور، ومشتا رائعا للسائحين من المناطق الباردة. وأخيرا إن جفت الأهوار فالأمل في محاصيل (جذور) البردي والقصب، فإنها ستورق من جديد ولو بعد حين.

الهوامش:

- ^١ الري والحضارة في وادي الرافدين، مطبعة الأديب للبغدادية ١٩٦٨، ص ٢٠٨.
- ^٢ جبار الجبوري، جريدة الثورة العراقية، ٧ أيلول ١٩٩٢.
- ^٣ أنيس فريحة، ملامح وأساطير من الأدب السامي، دار النهار للنشر، ص ٨٩.
- ^٤ النباتات في المصادر السومرية، مجلة سومر، ١٩٥٧/٩.
- ^٥ تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، دار المشرق، ص ٣١.
- ^٦ الري والحضارة في وادي الرافدين، ص ٤٩.
- ^٧ مدينة المعدان في الحاضر والماضي، مجلة سومر ١٩٥٧/١٣.
- ^٨ مروج الذهب، تحقيق شارل بلا، ص ١٩٠-١٩١.
- ^٩ خطط البصرة، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٨٦، ص ٣٠.
- ^{١٠} المصدر نفسه، عن كتاب البلدان للجاحظ.
- ^{١١} الفرج بعد القنطرة، تحقيق عبود الشالجي، بيروت، دار صادر ١٩٧٨، ص ١٧١-١٧٢.
- ^{١٢} أهوار جنوب العراق، ص ٤٩، عن كتاب الهلال، فبراير ١٩٥٣.
- ^{١٣} ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخياط، الطبعة الرابعة، ص ١٤٦.
- ^{١٤} علي الشريقي، مجلة لغة العرب، للسنة الخامسة ١٩٢٧.
- ^{١٥} فتوح البلدان، ص ٤١١.
- ^{١٦} مجلة لغة العرب، عن ابن رسته، "الأعلاق النفيسة".
- ^{١٧} مجلة سومر، ١٩٥٧/١٣.
- ^{١٨} كان آل السعدون قبيلة نجدية سنية قدمت من نجد إلى جنوب العراق، وينتمي آل خيون، قبيلة بني أسد، إلى الشيعة، واستمر هذا العداء حتى تبوأ عبد المحسن السعدون منصب وزير الداخلية، وأنتقم بطريقته من الخصوم الأوائل، بتحريضه الأنكليز على قصف منطقة الجبايش بالطائرات، بعد أن أشتراط سالم الخيون مشاركته في انتخابات المجلس التأسيسي بإسقاط وزارة السعدون وعودة علماء الشيعة الذين أبعدهم تلك الوزارة عن العراق (عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات، بيروت ١٩٨٢، ص ٢٦٦).
- ^{١٩} أهوار جنوب العراق، ص ٦١.
- ^{٢٠} حقيقة النهر الثالث، مجلة النور، العدد ٤٣، ديسمبر ١٩٩٤.

التغيرات الدولية وإشكالية الكفاح الثوري

خاصة على الصعيد العربي

لطفي حاتم

يتوصل لطفي حاتم في هذه المقالة الى ضرورة التجديد في اليسار العربي من حيث الفكر والممارسة وذلك استناداً الى قراءته لما شهد العالم في السنوات العشر الأخيرة من تحول، بالإضافة الى خبرة تجربة بناء الاشتراكية ومسار حركة التحرر الوطني.

يثير انهيار ازدواجية التطور الاجتماعي وسيادة وحدانية التطور الرأسمالي الكثير من الإشكالات الفكرية والسياسية لقوى اليسار العربي، وتبرز هذه الإشكالات في كيفية الجمع بين النضال الديمقراطي الذي يتمتع بأهمية أساسية وبين التصدي لهجوم القوى الطبقية الماسكة بالسلطة السياسية على مكتسبات الشعوب العربية التي أنجزتها في نضالها الوطني.

وإزاء تداخل المصالح الوطنية/ الدولية وتنامي ميول التبعية والتهميش التي تفرضها المرحلة الجديدة من التوسع الرأسمالي تثار أسئلة عديدة منها: هل تستطيع الأحزاب الشيوعية تجديد منطلقاتها الفكرية والسياسية بما يتلاءم والتحديات الجديدة؟ وهل بإمكانها صياغة أساليب فاعلة محركة للنضال الوطني الديمقراطي؟ واستناداً الى ذلك هل بإمكان اليسار العربي أن يوسع قاعدته الاجتماعية من خلال جذب قوى طبقية تتعدى إطاره الطبقي التقليدي؟.

بهدف المساهمة في إدامة الحوار الجاري حول عملية التجديد المستمرة في الكثير من أحزاب اليسار الراديكالي أحاول التعرض الى موضوعتين أساسيتين: أولهما العنف الثوري وموقعه في الجدل السياسي التاريخي بين فصائل الحركة الاشتراكية العمالية. وثانيهما التعرض بملاحظات عامة لمفاصل التجديد في البنية الفكرية - الاجتماعية لقوى اليسار العربي.

الحركة الاشتراكية بين الثورة والإصلاح

انقسمت الحركة الاشتراكية العمالية الى تيارين كبيرين انطلاقاً من رؤيتين متعارضتين لطبيعة الرأسمالية، فبالوقت الذي استندت الرؤية الأولى الى تقديمية النظام الرأسمالي، وتواصل مستلزمات تطوره وضرورة استثمار مؤسساته للوصول الى السلطة السياسية، استندت الرؤية الثانية الى اعتبار الامبريالية (أعلى مراحل الرأسمالية وعشية الثورة الاشتراكية).

إن اختلاف الحركة الاشتراكية حول طريقة الوصول الى سلطة الدولة فرضتها درجة تطور البلدان الرأسمالية حيث رأت بعض الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية في المراكز الرأسمالية أن النضال السلمي ونهج الإصلاح يتطلب الإقرار بالشرعية البرجوازية والعمل على تطوير الديمقراطية المتمثلة بمبادئ الانتخاب العام، والحريات السياسية، واستندت الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية في محاججتها تلك على أن مبادئ الشرعية البرجوازية خاصة مبدأ فصل السلطات حقوق سياسية وقانونية مكتسبة تؤدي إذا ما تعزز النضال الديمقراطي السلمي الى تفكك احتكار السلطة السياسية من قبل الطبقة البرجوازية الحاكمة ويفرض في نهاية المطاف اقتسامها - السلطة - بين القوى الاجتماعية المتصارعة على أساس الموازنة الطبقية. إن الرؤية المشار إليها تقاطعت معها رؤية التيار اللينيني الذي رأى في اعتماد العنف الثوري وسيلة ضرورية للوصول الى السلطة.

لقد نضجت الرؤية اللينينية حول الانقلاب الثوري من عوامل ثلاثة: أولها دراسته لتجربة الحركة العمالية الأوربية بدءاً من كومونة باريس وانتهاء بتجربة الحركة الديمقراطية الروسية. وثانيها طبيعة الظروف الاقتصادية - السياسية التي تفردت بها روسيا القيصرية والتي يمكن تحديدها بـ:

١- حكم استبدادي مطلق حول البلاد الى سجن لشعوب الامبراطورية. فضلاً عن اضطهاده للحركة الديمقراطية الثورية.

٢- تعرض الطبقة العاملة الروسية الى استغلال مزدوج من قبل الرأسمال المحلي والوافد، وما نتج عن ذلك من تداخل المهام الوطنية - الطبقية.

٣- قدرة الحركة الثورية الروسية على استنهاض حركة جماهيرية وطنية معادية للحكم الاستبدادي.

وثالثها القراءة اللينينية للفكر الماركسي المتعلق بطبيعة الدولة البرجوازية حيث شكلت موضوعات الاستيلاء الثوري على السلطة السياسية وتحطيم مكنة الدولة الرأسمالية، وضرورة ديكتاتورية البروليتاريا كمرحلة انتقالية في التطور الاشتراكي وأخيراً ضرورة الثورة الاجتماعية، أساساً نظرياً لتبرير العنف الثوري.

إن الرؤية اللينينية حول الثورة الاجتماعية اكتملت بتحديد النظم النظرية لطبيعة الامبريالية وموقعها في التطور التاريخي اللاحق حيث توصلت الى استنتاجات فكرية - سياسية أبرزها إمكانية انتصار الثورة الاشتراكية في الحلقة الأضعف من النظام الرأسمالي.

إن انتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية والذي جاء بفعل عوامل دولية/ وطنية يتصدرها استخدام وتوظيف مختلف أشكال النضال الاقتصادي السياسي الفكري في خدمة التكتيك الانقلابي أعطى دفعة جديدة للنضال الثوري، حيث استثار انقلاب أكتوبر موجة جديدة من النضالات السياسية والتحوليات الفكرية - التنظيمية لدى الكثير من الأحزاب العمالية، وجرى اعتماد العنف الثوري وسيلة أساسية لاستلام سلطة الدولة. لقد أدى ذلك الى تكريس التعارضات الفكرية بين فصائل الحركة الاشتراكية العمالية وتحولها فيما بعد الى تناقضات عدائية. والسؤال الذي يواجهنا هو كيف أثرت ثورة أكتوبر العظمى على نضالات حركة التحرر الوطني؟ وكيف تطورت موضوعة العنف الثوري عند مختلف الحركات الثورية؟ لغرض الإجابة يجدر بنا التوقف عند بعض أشكال الكفاح الثوري الذي أفرزته التجربة التاريخية.

العنف الثوري في مرحلة النضال الوطني

من المعروف أن انتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية وظهور الدولة السوفيتية أوجد مناخاً دولياً ملائماً لتطور نضال الحركة الوطنية التحررية العالمية التي اعتمدت بدورها على التكتيك الثوري لتحقيق طموحاتها الوطنية والاجتماعية. إن اعتماد الكفاح الثوري الذي أملتة شرعية المقاومة الوطنية للهيمنة الكولونيالية من جهة ومواجهة شراسة القوى المحلية من جهة أخرى تجلى بأساليب متنوعة نشير الى بعض منها:

أولاً: الكفاح المسلح

لقد اعتمدت الحركات الثورية في بلدان مختلفة هذا الشكل الكفاحي، حيث عكس خصائص تاريخية ملموسة عاشتها تلك البلدان وعلى أساس تلك الخصائص يمكننا الإشارة إلى نماذج الأساسية:

١- كفاح مسلح اندلع في دول تشكلت تاريخياً بمعنى أنها تركز على تشكيلة اجتماعية تبلورت بفعل التطور التاريخي الداخلي لها. وعلى الرغم من غلبة العنصر الفلاحي فيها إلا أنها أقرزت أحزاباً ديمقراطية - ثورية مكنتها من قيادة النضال الوطني - الطبقي وتمثل المسيرة الصينية الكبرى، وكفاح شعوب شرق آسيا نموذجاً لذلك الشكل النضالي.

٢- حروب تحرير ساهمت في إنضاجها عوامل عدة تتقدمها الهيمنة الكولونيالية المباشرة وغياب الدولة الوطنية من جهة وقوة المؤسسة العشائرية التي احتضنت المشاعر المعادية للأجانب من جهة أخرى. إن أهداف تلك الحروب التحررية تتلخص بطرد القوى الأجنبية وإقامة السلطة الوطنية، فضلاً عن تحقيق تحولات اجتماعية معادية للرأسمالية كخيار للتطور الاجتماعي. وتقدم القارة الأفريقية المثال الملموس لهذا الأسلوب الكفاحي.

٣- حروب أنصار تطورت إلى حروب أهلية كخيار فرضته متطلبات مواجهة عنف الديكتاتوريات العسكرية في أمريكا اللاتينية ومن الملاحظ أن الحروب الثورية ركزت على التخلص من الوصاية الأجنبية وإقامة سلطة العدالة الاجتماعية.

ثانياً: الانقلاب العسكري

لقد ظهر هذا الشكل في الكثير من الدول الوطنية التي نشأت كاستجابة ضرورية لمتطلبات محاربة الهيمنة الخارجية وبروز الجيش كأداة من أدوات الدولة الوطنية الناهضة. إن تنامي دور المؤسسة العسكرية في الحياة السياسية واستخدامها للتغيير السياسي - الاجتماعي فرضته طبيعة الدولة الوطنية الوليدة المتسمة بـ:

- ضعف مكونات التشكيلة الطبقية في الدولة الجديدة، فضلاً عن غياب الكتلة الاجتماعية المنظمة القادرة على فرض إرادتها الوطنية.

- تناقضات التشكيلة الكولونيالية وتطورها بالضد من المصالح الوطنية.

- تنامي الروح الوطنية، والقومية لدى الطواقم الوسطية في المؤسسة العسكرية بسبب

حصولها على التعليم الضروري لاستخدام التكنولوجيا العسكري.

إن المواصفات المشار إليها وفرت الشروط اللازمة لنمو وتطور النزعة الانقلابية. وقبل ختامنا لأشكال العنف الثوري لابد من إيراد الملاحظات التالية:

أولاً: إن أشكال العنف الثوري المشار إليها قد استنفدت مشروعيتها التاريخية، ولم تعد إطاراً ملائماً لاستنهاض حركة شعبية ديمقراطية.

ثانياً: إن الشرعية الثورية التي أفرزتها حروب التحرير، والنزعة الانقلابية قد تحولت إلى غطاء أيديولوجي لاستمرار الأنظمة اللاديمقراطية.

استناداً إلى هذه الاستنتاجات نتساءل هل يستطيع اليسار أن ينهض كقوة اجتماعية - سياسية فاعلة في الظروف التاريخية الملموسة؟ وهل بمقدوره الوصول إلى السلطة السياسية بأساليب سلمية - ديمقراطية؟

إن الرد بإيجاب يفترض دراسة حقلين: أولهما التوقف عند التفسيرات الاقتصادية - الاجتماعية التي تتعرض لها الدولة الوطنية. وثانيهما انعكاساتها على عملية التجديد الجارية في الأحزاب اليسارية. ولكن قبل تعرضنا للتغيرات الجارية وانعكاساتها دعونا نتوقف عند الظواهر الجديدة في السياسة الدولية.

التوسع الرأسمالي والصراعات الوطنية

أفرزت وحدانية التطور الرأسمالي الكثير من التداخلات الوطنية/ الدولية، وتشكل الكثير من القواعد الجديدة النازمة للعلاقات الدولية، لعل أبرزها احتكار العلف بشكليه الاقتصادي والعسكري (المشروع دولياً) بيد المراكز الرأسمالية من جهة وتكييف السياسة الدولية بما يتلاءم واستراتيجيات الهيمنة من جهة أخرى. إن تبدلات السياسة الدولية تتداخل مع ظواهر أخرى فرضتها المرحلة الجديدة من التوسع الرأسمالي تتمثل بـ:

١- تشترط المرحلة الحالية من حركة التوسع الرأسمالي تفكيك الدولة المركزية وتحويلها من مالك/ منتج لثروات البلاد الأساسية ومحتكر رئيسي للتجارة الخارجية إلى (شريك) تابع للاحتكارات الدولية.

٢- تقضي وحدة العالم الرأسمالي بشطريه التابع المتخلف والمتبوع المتطور إلى وحدة المصالح بين التكتلين المتحالفين الداخلي/ الخارجي وما يعنيه ذلك من نمو وتطور طبقة برجوازية كسموبوليئية.

٣- يؤدي التدويل المتسارع لرأس المال وما يفرزه من تسامي ازدواجية الهيمنة الوطنية/ الدولية على اقتصادات الدول الوطنية إلى ازدواجية الكفاح الوطني/ الديمقراطي.

وتشير التجربة الى أن القوى الخارجية تمارس تأثيرات متزايدة على النزاعات الداخلية. بمعنى نقل الصراعات الاجتماعية من محيطها الوطني الى شأن من شؤون السياسة الدولية.

الدولة العربية بين التبعية والتهميش

تتعرض البلدان العربية الى تطورات اقتصادية - اجتماعية متسارعة أفرزتها الحركة الراهنة من التوسع الرأسمالي والمتمثلة بشروط وتوصيات رأس المال الوافد ومؤسساته الدولية. ولدى تفحصنا لهذه التغيرات نراها تتركز بـ:

- العمل على تصفية منجزات حقبة الاستقلال الوطني واستبدال خطابها السياسي - الاقتصادي الهادف الى تعزيز الروح الوطنية وتطوير التنمية الاقتصادية بخطاب ليبرالي يعتمد سياسة الانفتاح وتعميق التبعية للمراكز الرأسمالية.

- التفكك المتسارع لقطاع الدولة الاقتصادي الذي شكّل ركيزة أساسية للتنمية الوطنية، حيث تظهر عملية التفكك بشكلين أحدهما مشاركة رأس المال الأجنبي في ملكية الأصول الأساسية لقطاع الدولة. وثانيهما خصخصة أصول أخرى لصالح القطاعين الوطني والأجنبي.

- الانفتاح الشامل على الرساميل الدولية وما يفترضه ذلك من مساهمة قوى خارجية في صياغة التوجهات العامة للسياسة الاقتصادية عبر التزام الدولة العربية بتوصيات المراكز المالية المعادية للمصالح الوطنية.

- تنامي بناء الأسس المادية لازدواجية الهيمنة الاقتصادية (داخلي/ خارجي) على الدولة الوطنية وما يشترطه ذلك من بناء أسس تحول الدولة الى وكيل وطني حارس لمصالح الاحتكارات الدولية.

إن إشارتنا الى بعض التغيرات السياسية - الاقتصادية لا يستثني القوى الحاكمة وقاعدتها الاجتماعية، ويمكن للمتابع رصد أهم مظاهرها والتي تتجلى في تحول الأسر الحاكمة خاصة في الدول الريفية الى طبقات اجتماعية تحتكر السلطتين السياسية والاقتصادية. ويرتكز هذا التحول الطبقي على عمليات الخصخصة الجارية لقطاعات الدولة الاقتصادية والخدمية، الأمر الذي يفسر قدرة الأسر الحاكمة على التحول الى قوى اقتصادية فاعلة تستمد قوتها من سلطة الدولة أولاً ومن تحالفاتها الخارجية ثانياً.

إن التحولات الجارية في دول الشرعية الوراثةية تتزامن مع تحولات في دول

الشرعية (الثورية) حيث تتحول الطواقم العسكرية الحاكمة الى قوى سياسية ناشطة في دعم وحماية القوى الطبقية النافضة في هذه البلدان والمتحالفة مع قوى وفعاليات الرأسمال الدولي.

وبعكس التحولات السلمية الهادئة في بلدان الشرعية الانتقالية يلاحظ أن الحصار الاقتصادي على العراق قد ساهم بتعديل وتغيير التركيبة الطبقية للمجتمع العراقي، حيث أنجز العنف الاقتصادي بشكليه الداخلي والخارجي تحول العشيرة الحاكمة الى طبقة كمبرادورية جديدة راغبة في التحالف مع الاحتكارات الدولية شريطة ضمان مصالحها الاقتصادية والسياسية في نظام مستقبلي للعراق. إن طبيعة الحراك الجارية في القاعدة الاجتماعية السائدة لنظام الحكم في العراق تتلازم مع تغيرات أخرى تشهدها منطقة الحماية الدولية في كردستان حيث تجري تحولات متسارعة في بنية بعض الأحزاب وتبرز فيها شرائح تجارية مترابطة المصالح مع القوى السائدة لنظام الحكم المركزي، وما يعنيه ذلك من مصالح مشتركة تشكل عتبة لتحالفات سياسية لاحقة.

إن التغيرات الحاصلة في طبيعة القوى الحاكمة تترابط مع تفاعلات متواصلة داخل الطبقات الاجتماعية الناشطة في المجتمعات العربية. فعلى صعيد البرجوازية العربية يتسارع نمو وتطور الطبقة الكومبرادورية الجديدة التي تتصف بسمات منها تبعية لحركة رأس المال الدولي، وثانيها اغترابها عن المصالح الوطنية، وثالثها تركز أنشطتها بقطاعات هامشية. وتشهد الساحة السياسية العربية ملامح تحالفات اجتماعية - سياسية بين فئات البرجوازية المالية وبين الشرائح العليا من الطبقة الكومبرادورية، حيث تنصدر هاتان القوتان المشهد الاقتصادي - السياسي العربي المدعوم من الاحتكارات الدولية. وبذات الاتجاه يلاحظ تراجع مواقع البرجوازية الوطنية التي تشكل التطورات الاقتصادية الجديدة (حرية حركة رأس المال والتجارة الحرة) كوابح لتطورها اللاحق وما ينتج عن ذلك من تحجيم دورها السياسي.

إن الإشارة بملاحظات عامة الى شرائح وفئات البرجوازية العربية تشترط معاينة التغيرات الحاصلة في الطبقة الوسطى التي تشكل الطبقة الأوسع والأكثر تأثيراً في المجتمعات العربية، وتشير بعض المعطيات العامة الى أن الفئة العليا من هذه الطبقة خاصة (ذوي الكفاءات والمؤهلات العلمية) تترابط مصالحها مع الشركات الأجنبية والمكاتب التجارية. وتستفيد أقسام أخرى من التطورات الاقتصادية التي تشهدها الأسواق العربية. وعلى أساس تنامي الانقسامات الحاصلة في الطبقة الوسطى يتعين دراسة

التغيرات المستمرة في شرائحها وتحديد مواقع فئاتها في الحركة السياسية واتجاهاتها الفكرية والتي سيتوقف على مشاركتها الفعلية في النضال اللاحق حل الكثير من الإشكالات السياسية والاجتماعية.

إن عملية الحراك الاجتماعي المتواصلة في المجتمعات العربية تترافق مع تطورات أخرى على صعيد الطبقة العاملة، حيث تتطور قاعدتها الاجتماعية بسبب رفدها بقوى من البرجوازية الصغيرة - الريفية والمدينة - التي ينحدر مستوى معيشتها الى مستوى الطبقات الكادحة. إن توسع حجم الطبقة العاملة يتداخل مع تغيرات بنيوية في إطارها الطبقي يتركز في ظاهرتين: أولاها نمو شريحة عمال الخدمات انطلاقا من التطور السريع لقطاع الخدمات والسياحة مقابل تراجع نسبة العمال الصناعيين. وثانيتهما إحاطة الطبقة العاملة بحشد هائل من القوى الهامشية وما يفرزه ذلك من تأثيرات على تطور تماسكها الطبقي وضياح خبرتها النضالية.

خلاصة القول إن بلادنا العربية تشهد تحركات اجتماعية - اقتصادية كبيرة تتمثل بضياح فرص التنمية الوطنية المستقلة وتنامي ازدواجية الهيمنة الاقتصادية، الأمر الذي يفرض على قوى اليسار التحول والاستناد الى قوى اجتماعية عديدة تشكل في المحصلة الأخيرة (كتلة تاريخية) قادرة على التصدي والمقاومة لعمليات التبعية والتهميش. إن التحول المفترض لقوى اليسار أراه في ركيزتين أساسيتين أولاها تفعيل بنيته الفكرية - التنظيمية. وثانيتهما تطوير برامج النضالية وأساليبه الكفاحية.

تفعيل البنية الفكرية - التنظيمية

إن تقدير السياسة كعلاقة قوة بين الطبقات الاجتماعية يتطلب تحديد الإمكانيات الفعلية لقدرة الطبقات وموقعها في الصراعات الدائرة في الظروف التاريخية الملموسة. واستنادا الى ذلك يتطلب الأمر صياغة خطاب سياسي يتبلور في توجهات سياسية - فكرية تاريخية ملموسة تنطلق من مبنيين: صياغة رؤية وطنية للعلاقات الطبقيّة الداخلية/ الخارجية، ومستوى المساهمة في صياغة منطلقات فكرية تشكل أساسا لنقل اليسار من حركة سياسية معارضة الى حركة فاعلة تساهم بنشاط في صياغة توجهات السياسة الوطنية. إن ترسيخ العلاقة بين المستويين يشترط بناء سياسة تكون محصلة للعقل الجماعي للحزب خاصة قواه الفكرية الحية التي يقع على عاتقها دراسة وقائع الحياة الحقيقية وتحديد اتجاهات تطورها وعدم الارتكان الى صياغة شعارات سياسية عائمة

تشكل عبئا على الممارسة النضالية وتكون نتيجتها القطع بين الفكر والممارسة. استفادا الى ذلك أرى أن رسم سياسة واقعية يشترط عاملين أولهما مزاجية التجربة النضالية للحزب الثوري والتطورات الجديدة بعد تطعيمها بروية واضحة للمهام النضالية الملموسة. وثانيهما الانتشار الجماهيري في منظمات المجتمع المختلفة - النقابات، الجمعيات، الاتحادات، النوادي - وما يوفره ذلك من قراءة صحيحة لطبيعة المهام النضالية، فضلا عن ترسيخ العلاقات الفعلية بين الجهاز السياسي القائد للحزب وبين الحركة الفعلية لتطور الحياة الاجتماعية.

أخيرا لابد من التركيز على الانتقال من موضوعة القفزة الثورية ونقل الحزب من (هيئة أركان) الى جهاز سياسي - تنظيمي جماهيري يستند الى التطور الارتقائي. وبهذا الطريق يستطيع اليسار أن يساهم بفعالية في إنضاج الحلول الاجتماعية - السياسية الهادفة الى صيانة مصالح شعوبنا العربية. إن تفعيل البنية الفكرية - التنظيمية تتطلب الخوض في مرتكز آخر من مرتكزات الحركة اليسارية وبالتحديد طبيعة البرامج النضالية والقوى الاجتماعية الساندة لها.

برامج المهام الوطنية الملموسة

على الرغم من وضوح الهوية الطبقيّة لليسار العربي إلا أن وحدانية التطور الرأسمالي، وتنامي عمليات التبعية والتهميش ترغم اليسار الراديكالي على تعديل تمثيله للقوى الطبقيّة وتجاوز حصرها بطبقات اجتماعية محددة. ويستند هذا التقدير على بعض المؤشرات منها سعة القاعدة الاجتماعية المتضررة من الطور الجديد لحركة التوسع الرأسمالي، ومنها تفاقم المشاكل الاجتماعية النابعة من هجوم الرأسمال الدولي والقوى الحليفة على المكتسبات الشعبية التي أفرزتها سنين التطور الوطني، وآخرها الاستقطاب الاستراتيجي المتنامي بين توجهات (الرأسمالية المتوحشة) وبين تطلعات الإنسانية نحو التنمية والسلام. إن هذه المبررات تدعو قوى اليسار الى مراجعة برامجها النضالية، وتتركز هذه المراجعة حسب ما أرى على محورين: الأول منهما التخلي عن البرامج التي تغطي مراحل تاريخية أو ما يسمى ببرامج الحد الأعلى والتي تشكل بجوهرها صياغة ايديولوجية ترتبط بموديلات فكرية للتطور. بمعنى آخر التخلي عن البرامج ذات المضامين الطبقيّة المشيدة لأغراض استلام السلطة واحتكارها. والثاني التركيز على صياغة برامج ملموسة تغطي فترات زمنية قصيرة معبرة عن الظروف التاريخية

الملموسة التي تجد تعبيرها في الصراعات الاجتماعية الحقيقية. بعبارة أدق لابد أن تتوفر في هذه البرامج مواصفات عديدة منها ظرفية وملموسية الأهداف البرنامجية، ومنها واقعيتها وإمكانية تحقيقها. وهنا لابد من التذكير بأن الكثير من البرامج لازالت تصاغ على أساس مهمات تعوزها القوى الاجتماعية القادرة على تنفيذها الأمر الذي يجعل تلك البرامج في مصاف الطوباوية رغم أهميتها الإنسانية. وأخيرا تعبير البرامج عن أهداف وتطلعات قوى اجتماعية متعددة، بمعنى عدم اختصارها على تمثيل مصالح اجتماعية محصورة بالتمثيل الطبقي التقليدي اليسار، والسبب يتلخص في أن المهام المطروحة هي مهام إنسانية - وطنية شاملة الأمر الذي يتيح لقوى اليسار إمكانية التحرك على قوى اجتماعية عريضة تؤهله لبناء تحالفات اجتماعية - سياسية واسعة مقاومة لنهج التبعية والإفقار. إن صياغة برامج وطنية ملموسة تتطلب تقدير العلاقة الواقعية بين الوطني/ الدولي من جهة، وتحديد طبيعة التحولات الدولية من جهة أخرى...

النضال الوطني وازدواجية الهيمنة

إن التشابكات الوطنية/ الدولية وتنامي ازدواجية الهيمنة الاقتصادية على الدولة الوطنية تفرض ازدواجية النضال الوطني المعادي للتبعية والتهميش، والديمقراطي الهادف الى خلق توازنات سياسية - اجتماعية في المحيط الوطني. والسؤال الذي يواجهنا هو كيف يتسنى لليسار الراديكالي موازنة طرائقه النضالية؟ وما هي الايديولوجيا القادرة على أن تكون أداة الموازنة في الكفاح المناهض لأطراف الهيمنة الداخلية/ الخارجية؟. الإجابة تتطلب الالتفات الى الموضوعات التالية:

أولا: تتطلب ازدواجية النضال المناهض لأطراف الهيمنة الداخلية/ الخارجية تحويل ايديولوجية الديمقراطية وحقوق الإنسان الى ايديولوجية وطنية/ دولية بعد تحويلها من ايديولوجية عائمة للرأسمال وذريعة للهيمنة الى قاعدة من قواعد القانون الدولي.

ثانيا: تشترط عالمية حقوق الإنسان إقامة علاقات دولية تنطلق من وتستند الى موازنة المصالح الوطنية/ الدولية من خلال:

- تحريم استخدام العنف بأشكاله الاقتصادية/ العسكرية في العلاقات الدولية.
- تفعيل دور الدول الوطنية باعتبارها مساهمة في السياسة الدولية بهدف خلق مجتمع دولي يركز على وحدة المصالح الإنسانية، وتطوير تلك الوحدة الى مبادئ أخلاقية تدين تركز الثروة وتأييد الفقر والتبعية.

- الاحتكام الى شرعية دولية مرتكزة على قواعد قانونية ناظمة لوحدة المعايير في السياسة الدولية.

ثالثا: تشكل عالمية حقوق الإنسان ركيزة أساسية للنضال الداخلي/ الديمقراطي الهادف الى تجسيد تلك الحقوق في تشريعات وطنية وما يفرضه ذلك من رقابة شعبية/ دولية، لأوضاع حقوق الإنسان.

رابعا: تتيح ديمقراطية العلاقات الدولية لقوى اليسار حرية اختيار برامج السياسية/ الاجتماعية في حال استلامه/ دخوله السلطة السياسية بعيدا عن التدخلات الخارجية في شؤون بلاده الوطنية.

استنادا الى ذلك يمكن القول إن تحويل اليسار الى قوة شعبية وطنية يتطلب تكيف الرؤية السياسية الملائمة لايديولوجيا الديمقراطية وحقوق الإنسان بمستويين، مستوى دولي يتمثل في النضال من أجل إقامة علاقات دولية تركز على احترام وموازنة المصالح الوطنية/ الدولية حيث يشكل هذا النضال الركيزة الخارجية للكفاح الوطني ومستوى داخلي بمعنى الدفاع عن الحقوق السياسية - الاجتماعية للإنسان المواطن. وبهذا المعنى فإن النضال الوطني/ الديمقراطي الداخلي/ الخارجي يرتكزان على شرعية دولية واحدة.

إن الملاحظات الأنفة الذكر لا تشترط تحديد أساليب الكفاح الوطني/ الديمقراطي بل تطرح إطارا عاما للنضال، إذ أن التطورات اللاحقة ستمد الحركة اليسارية بأساليب نضالية تفرضها الحركة الفعلية للصراعات الاجتماعية المنبثقة من المصاعب الاقتصادية وتطور المشاعر الإنسانية المناهضة لسياسة التبعية والتهميش.

١٩٩٩/٢/٤

الاشتراكية البيئية

ديفيد رانسوم

ترجمة: مصطفى الكاظمي

هذه المقالة تعالج موضوعا كان الشيوعيون حتى وقت قريب يهملونه أو لا يعيرونه ما يستحق من اهتمام في النظرية والتطبيق. فقد انصب اهتمامهم على الاقتصاد دون العناية بشؤون البيئة. الكاتب داعية للاشتراكية الايكولوجية، مؤكدا على ضرورة التعاون بين "الاحمر والخضر"، وهي دعوة تقتضي مراجعة الفكر والممارسة على حد سواء. وقد نشرت مقالته هذه في مجلة *New Internationalist* (الأممي الجديد) في تشرين الثاني ١٩٩٨.

[ث ج]

كانت غابات الأمازون في حالة من القوضى في كانون الثاني ١٩٩١، وكنت أبحث عن أي أثر للمنطق في عبثية تدمير هذه الغابات الاستوائية. ولقد شعرت بقدر لا يستهان به من الإحباط عندما وصلت الى مكتب عالم البيئة الأميركي، فيليب فيرنسايد، الذي قال "إن السؤال هو: من يربح من التدمير؟ فلو تم توزيع الربح ما كان لهذا التدمير أن يحصل لو أن الربح والتكاليف المترتبة عليه قد وزعت بالتساوي، إذ لن يكون ثمة نفع يذكر لشخص واحد. الحقيقة هي أن أصحاب النفوذ يجنون الأرباح بينما يدفع فقراء المنطقة الثمن. وهكذا فإن الأمر منطقي تماما من وجهة نظر من يجنون الأرباح". ويشير فيرنسايد بذلك الى بناء سدود مائية لمعامل صهر المعادن والمعامل التي تصدر علب

الألمنيوم. وقد أجرى بطريقة بارعة حسابات للربح والفائدة، لا تهم أحدا بشيء إلا إذا صانف أن يكون واحدا من أهل السلطة الأوليغارشية في البرازيل، أبرز بلدان العالم من حيث غياب العدالة. والسبب ليس أهم من تعبئة البيرة أو المشروبات الغازية، أغرقت تلك الغابات الإستوائية بالمياه، وهجر الآلاف من السكان الذين داهمتهم الأمراض، بينما حاق الدمار بالثقافات الأصلية التي لا تقدر بثمن. ولأنه لم يحدث الشيء الكثير لغير مصلحة الأوليغارشية في البرازيل، لم يكن الأمر مفاجئا بالنسبة لي أن يتواصل تدمير الغابات الاستوائية بهذه السرعة. لقد أفلقني ذلك ودعاني الى تذكر وقت كانت فيه غابات الأمازون على جميع الألسن مقارنة بجميع القضايا البيئية الأخرى، وها هي الآن قد باتت نسيا منسيا بالنسبة لوسائل الإعلام العالمية. أما السياسات الراديكالية فلم تكن مهمة كثيرا بالقضايا الرائجة قدر اهتمامها بكفاح الناس البسطاء لتدبير شؤون حياتهم اليومية.

نقد قدم وليم موريس، عالم البيئة الاشتراكي، تصورا ماهرا في القرن التاسع عشر، لمثل هذه المشاعر إذ وصف كيف أن "الناس يناضلون ويخسرون المعركة، لكن الشيء الذي يناضلون من أجله يحصل بالرغم من هزيمتهم، وعندما يحصل هذا الشيء ينقلب الى ما لم يقصدوه ثم يضطر آخرون للنضال من أجل هذا الهدف المقصود باسم آخر".¹ فليس هناك نضال فاشل كل الفشل أو كامل النجاح.

لا شك أن القضيتين السياسيتين الأساسيتين في عصرنا هما التفاوت بين البشر وتدمير البيئة، وأن نتائجهما جلية في مناطق مثل الأمازون، مع أنها موجودة في كل مكان تقريبا. وبينما يمتد دفاع المتحمسين للمساواة والبيئة الى خارج حدود هاتين القضيتين أحيانا، فإن الجسر الذي يربط بين السياسة الراديكالية الحمراء والسياسة الخضراء تنقصه المتانة الكافية لتحمل ثقل سياسي أكبر ولتوليد تغيير دائم. ومع ذلك، يتضح باستمرار أن التفاوت الاجتماعي وتدمير البيئة مترابطان بصورة مباشرة، بل إن من العسير إثبات عدم ارتباطهما، علما أنهما يحصلان في زمن واحد، كما أنهما يتفاعلان بطرق معقدة تسرع من تفاقمهما بصورة تتذر بالخطر.

يعود السبب في ذلك الى أنه ما لم يتم كبح الرأسمالية الاستهلاكية العالمية، فإنها ستتمو باستمرار وستسعى الى تدمير أي شيء، يتعارض مع مصالحها المباشرة. إنها، فضلا عن ذلك، ذاتية التدمير، ملغومة بالتناقضات، فإما أن تنمو وإما أن تتفجر. فهي عاجزة عن كبح جماحها بنفسها.

أحد هذه التناقضات هو أن الرأسمالية تقف على تضخم الأرباح وانخفاض الأجور،

مما يؤدي الى تفاقم حدة التفاوت الاجتماعي. وبذلك تتراكم عوامل الأزمة، لأن أجور العمل لا يمكن أن تشتري جميع السلع التي ينتجها العمل، الأمر الذي يقوض، في نهاية المطاف، نزوعها للنمو، فينجم عن ذلك انفجار هائل، من النوع الذي يتردد في آذان كثيرة، في هذه الأيام بالذات. ويطلق الرأسماليون الموفقون على ذلك تسمية "الهدم الخلاق" وهو أحد تسلياتهم المفضلة.

ولأن الاشتراكية تعرف كيف يجري كل ذلك، فإنها لم تفقد أيا من أدواتها التفسيرية. لكن لدى الاشتراكيين بضع مشاكل علاوة على الإرث الستاليني الثقيل وليس أقل متاعبهم ما يتردد بأن الاشتراكيين قد اندثروا وحل محلهم أصحاب الطريق الثالث، الناعم الذي لا طائل وراءه، الذين يرغبون بالكلام عن "العدالة الاجتماعية" و"تكافؤ الفرص"، واليانصيب هو التجسيد لذلك. وليس مجديا بعث كارل ماركس في صالونات الأرثوذكسية شريطة التأكيد بأنه أخطأ بشأن الشيوعية رغم صوابه في ما يخص الرأسمالية^٢.

مع ذلك، فإن أكبر مصاعب الاشتراكيين تكمن في أنهم أفضل الى حد كبير في مسألة إعادة توزيع الثروة منهم في إعادة النظر في تعريف الثروة. فقد تلهفوا الى السيطرة على عتلات ماكينة الثروة الرأسمالية، لا الى إعادة النظر في تصميمها. وكان عليهم أن ينصتوا الى علماء البيئة، فقد ثبت أنه ليس هناك إشكال نظري في إضافة تناقض أخضر الى التحليل الأحمر للرأسمالية، خصوصا أن ثمة محددات بيئية للنمو الرأسمالي. ولكن الأمر يستلزم أيضا القبول بعدم وجود أفق، مهما كان، لخلق اقتصاد ذي طابع اشتراكي واضح لا يلبي متطلبات البيئة^٣.

"عالم الحياة"

أجرى الفلاسفة الراديكاليون، مثل أندريه غورتس، بحوثا أولية حول طبيعة الثروة، فافترضوا وجود "عالم حياة" Lifeworld يتضمن كل شيء نطمح إليه كأفراد أو كجماعات. وفي هذا العالم يجب أن يحتل الاقتصاد حيزا صغيرا، بحق، رغم أن الاقتصاد يسود حياتنا ويهيمن عليها. ففي نهاية المطاف، ما جدوى الثروة المادية إذا كانت لا تخدم سعادتنا؟ وكيف يمكن أن تتحقق السعادة مادما عبيدا للماكينة الاقتصادية؟

وهنا يتردد صدى الكتابات الاشتراكية التي تعود الى القرن التاسع عشر، عندما كان وليم موريس حيا. فقد كان أوسكار وايلد ينادي بإلغاء الملكية الخاصة لمصلحة أصحاب الملكية أنفسهم، لأنها تشغلهم عن أمور أكثر أهمية، أي أن السؤال هو من نحن، وليس

ماذا نملك؟ وفي الواقع أن أوسكار وايلد كان يدافع عن الاشتراكية لسبب ليس في الحساب حين قال: "المطلوب هو الفردانية. وإذا كانت الاشتراكية تسلطية، وإذا كانت ثمة حكومات مسلحة بسلطة اقتصادية، كما هي مسلحة الآن بسلطة سياسية، وإذا كنا سنخضع السى استبداد صناعي، فإن الدولة الأخيرة أسوأ من الأولى".

إن غورتس ليس واثقا من أن الرأسمالية قابلة للتحول بدفع تخوم "الاقتصاد" إلى الخلف تدريجيا، بحيث أتاحت تقليص وقت العمل، كما يوصي بذلك. ويظل غورتس مدافعا عن أكثر الجوانب الديناميكية في المجتمع الصناعي من منظور أوربي إلى حد كبير. لكنه يبقى في غاية الوضوح حين يرى أن المساواة والبيئة ورفاهية الإنسانية جمعاء لا يمكن أن تتقدم إلا بتحويل الرأسمالية.

لا يتفق جميع الخضر، بأية حال، مع ذلك. كما لا يقرون بأي قرابة مع الحمر على الإطلاق. فهم يقولون "لا يسار ولا يمين، بل إلى الأمام"، وهم كذلك يحاولون تفادي الإقرار بأن "البطيخة" خضراء من الخارج وحمراء من الداخل، إلى جانب وجود فيض من الكراهية الاستبدادية لبعض تدرجات الأخضر الغامقة. مع ذلك، ليس لدى الخضر، الأكثر تبصرا، مشكلة كبيرة مع الاشتراكية.

يقول المفكر الألماني ولفغانغ زاخس إن "الاشتراكية تستند على نظر ثاقب إلى حد كبير" وإن "التقدم العلمي يوفر لنا أرضية لا ينبغي لأي أحد أن يسقط تحتها. إن بالإمكان القضاء على العوز، فغاية الاشتراكية أن يحيا الناس حياة كريمة. أما نظرية البيئة فتضيف لذلك بعدا آخر، إذ ترى أنه لا يوجد حد أدنى فحسب، بل كذلك حد أعلى. وهناك نقطة ليس يمكن بعدها تحقيق مزيد من العدالة والديمقراطية، لأن التقدم وخلق الثروة يتخذان عندئذ شكلا ليس بوسع كل واحد المشاركة فيه. فثمة سقف إذا تجاوزناه يكتسي تكوين الثروة طبيعة أوليغارشية".

إن الصعوبة التي تواجه الخضر هي أنه بالرغم من وجود نفوذ لديهم إلا أنهم لم يمتلكوا السلطة. المشاريع وجداول الأعمال تتكاثر لكن الرأسمالية تتكيف، وتواصل الأشجار سقوطها، ويتعمق التفاوت الاجتماعي. ومع أنه يمكن الرد بأن النفوذ أفضل من السلطة، إلا أن ذلك، كما أرى، تهرب من القصد. وإن ما ينبغي على الحمر والخضر أن يستعدوا له تماما هو إلزام أنفسهم بديمقراطية الشعب.

اللائظام العالمي الجديد

ثمة سبب مقنع لللائظام العالمي الجديد، كما تتبأ أوسكار وايلد، هو السلطة الهائلة للدولة الحديثة. وبغض النظر عن الآراء المعارضة، فإن الرأسمالية لابد أن تكون قد آلت الى الانهيار منذ أمد بعيد، لولا الدولة القوية، دع جانباً، إذا شئت، دور الدولة في حماية الملكية الخاصة، واحتواء الاضطرابات، وإقاز البنوك الخاصة، وتمويل إعانة العاطلين، وإيجاد صيغ جديدة للمعارك الفاصلة، وخوض حروب مربحة، وخلق ظروف ملائمة لتهرب الشركات والأغنياء وذوي النفوذ من الضرائب، وحشرنا في كارثة متجددة. دعونا نعمن النظر بما يأتي: ساهمت الدولة - حسب الأمم المتحدة - بتقديم منح مالية، في أوائل التسعينات الى نشاطات صناعية مدمرة للبيئة في مجالات الطاقة والمياه والطرق والزراعة، في أنحاء العالم، تصل قيمتها الى ٧١٠ مليارات دولار كل عام. ويعادل هذا الرقم أربع عشرة مرة المبلغ الذي يلزم لإزالة الفقر المطلق^٧.

وهكذا تكون الدولة لاعبا رئيسيا في اللانظام العالمي الجديد. وإذا كنا جادين بإجراء التغيير، فإنه، ببساطة، لا معنى لترك الدولة وشأنها في ممارسة ألعيبها. فبوسعنا مناقشة ما ينبغي أن تفعله الدولة، بل وافترض اختلافاتها في عالم مثالي. وبوسعنا، كذلك، اقترح أنه مادامت رأسمالية الاستهلاك العالمية بارعة في رعاية مصالحها، فإن الأولى بالحكومة الديمقراطية، أن تتبنى مهمة رعاية مصالحنا، نحن. وللانتقال من ذاك الموقع الى هذا، يجب أن تسود ديمقراطية الشعب.

يراد لنا أن نعتقد بسيادة الديمقراطية الشعبية بالفعل، لأن عصرنا هذا عصر الديمقراطية. فأمريكا اللاتينية أصبحت في حال أفضل بكثير، في الوقت الراهن، إذ يقبع الجنرالات المشبعون بالدماء في تكتاتهم. ورغم أن حال أفريقيا يدعو الى الشفقة، لابد من تحية نيلسون مانديلا. لقد رحل كل من موبوتو وماركوس وسوهارتو جميعهم، ورحل، أيضا، جدار برلين. آه، جدار برلين! كان في موسكو، قبل بضعة أشهر [المقال مكتوب في تشرين الثاني ١٩٩٨ - المترجم] مشهد قصير، فقد كان بيل كلنتون موجودا في المدينة، من أجل رقصة التانغو الأخيرة مع بوريس يلتسن، ليثبه اقتصاد السوق بقوة الجاذبية الأرضية. وجاء هذا التشبيه وسط خراب رأسمالية "قطاع الطرق" في روسيا. إن أحد قوانين الجاذبية، كما كان ينبغي لكلنتون أن يضيف، هو أن ما يرتفع الى أعلى يجب أن يهبط الى أسفل. بعد ذلك، بفترة قصيرة، ينذرنا المضارب الأسطوري، جورج سوروس، الذي ينسب إليه فضل التعجيل بالانهيار الروسي الأخير، بأن اللانظام الرأسمالي

العالمي آخذ في التمزق^٨.

وتحوم منذ عدة أشهر، عقبان "التدمير الخلاق" حول المعمورة، منتظرة أن تسقط جثة أخرى بفعل الجاذبية هذه، بينما تقف نماذجنا الديمقراطية مصلوحة تتباهى بعجزها عن عمل أي شيء، وأن وضع خاتمة لذلك يجسد المعنى الحقيقي لعصر الديمقراطية. يدرك أي شخص عاش، مثلما فعلت، في ظل حكومة الوحدة الشعبية في تشيلي، أوائل السبعينات، أنه حينما يأتي المد الديمقراطي الى شاطئ الرأسمالية، فإن أمثال الجنرال بينوشيه جاهزون "لإنقاذ البلاد من أجل الديمقراطية" أجل، هذه بالضبط هي كلمات الجنرال في أعقاب الانقلاب العسكري عام ١٩٧٣. لكننا، أيضا، ذقنا لوهلة، مثل جورج أورويل في "برشلونة الجمهورية"، أو ربما في زمن أقرب، مثل شعب جنوب أفريقيا، ذقنا طعم التحرر وتحقيق الذات. وما إذا كان أي منا قد ذاق هذا الطعم فعلا أم لا، فإني أحسب أن الجميع يعرف بالفطرة أنه موجود هناك. إلا أننا لا نستطيع، دائما، تقدير الجهود اللازمة لإيجاد هذا النوع من المجال المتحرر، في أنحاء المعمورة، ضمن زمن محدد، ذلك لأننا لا نملك سوى وسائل قليلة لمعرفة مقدار هذه الجهود:

- مسيرة لشعب الماوري في العاصمة النيوزيلندية ولينغتون احتجاجا على اتفاقية الاستثمار المتعدد الأطراف MAI.
- آلاف المعلمين في الأرجنتين يضربون عن الطعام احتجاجا على التقليلات في قطاع التعليم، التي فرضها البنك الدولي.
- الفلاحون في الهند يحتجون على منظمة التجارة العالمية وسيطرة الشركات على محاصيلهم الزراعية.
- سكان أوربا يقتلعون المحاصيل المطورة وراثيا.
- حركة "احتلال الشوارع" ضد تلويث الجو بواسطة السيارات يتظاهرون تضامنا مع عمال الموانئ الذين طال إضرابهم في ليفربول.
- خمسون ألف شخص يشاركون في احتجاج على معاناة أربعة ملايين جائع في البرازيل.
- ثلاثمئة احتجاج ضد العولمة في سيئول.
- عشرات الآلاف يطالبون قمة مجموعة الدول الصناعية، المنعقدة في برمنغهام، بإلغاء ديون دول العالم الثالث.

... وقد تطول القائمة، التي لو لم تقدمها لي كاترين النغر بغية كتابة تقديم لمقالها، في

المجلة نفسها، لم أكن لأعرف كل ذلك، رغم أن من صلب عملي متابعة الأحداث. تلك هي قوى "الهدم الخلاق" وهي نذير بأن سياسات اليسار الأخضر قد تحقق في نهاية المطاف ما عجز عن تحقيقه الحمر أو الأخضر على انفراد. وسواء أطلقت علينا تسمية "حركات اجتماعية" أو "مجتمع مدني"، أم اعتبرنا أنفسنا نقابات أو محاربين من أجل البيئة، وسواء يحفرنا التفاوت الطبقي المفروض علينا، أم انتهاك حرمة الطبيعة، فيما الرأسمالية، من جديد، عند مفترق طرق، فإننا يجب ألا نقلل من شأن قوتنا وأن نتجنب عدم تحمل مسؤوليتنا بالعمل سوية.

إن معظمنا، كما أعتقد، مشدود إلى فكرة أن التوق إلى ديمقراطية الشعب سيدفع في المستقبل، كما فعل في الماضي، إلى الخلف ما هو "اقتصادي" بحت، ويرفع من مستوى حياتنا. وحالما نسلم بأن هذا هو الهدف عندئذ ننطلق لوضع التفاصيل عن أفضل السبل لعملنا. أما الآن، فلا بد من الاحتفاء بما هو موجود: التنوع، والإنسانية وسحر العالم الطبيعي. ونحن نجل المساواة لأننا نشبه بعضنا، ولأنه ليس من سبيل آخر لتحقيق ذواتنا. وها نحن نحث الخطى صوب القرن المقبل لنصنع كل ما هو جميل ونافع، ونحطم كل ما هو بشع وضار، بل ونحمي بعضنا وكل ما لا يمكن تعويضه.

مرة أخرى أعود إلى وادي الأمازون وسكانه، فقد كنت في يوم ما جالسا مع مجموعة من النساء على أرض انتزعت من غابة تم تدميرها، وفي هذه البقعة أوجدت هؤلاء النسوة واحة وسط أرض خراب. ومن حين لآخر، رغم ذلك، يأتي مسلحون مستأجرون بهدف السيطرة عليها، قائلين إنها تعود لشخص آخر مهددين بالويل. لم أعرف تماما ما أقوله لهؤلاء النسوة، كما لم أعرف لماذا سألتهن: "هل تعتقدن أن بالإمكان أن تحكمن بلادكن، في وقت قريب؟".

كانت لحظات من الصمت، راودني خلالها شعور متطفل على أفكار مكتومة. كنا مغمورين بسكون الواحة المتحرك، فأحسست بأن ذلك تعبير عن إجابتهن. ثم صرخت إحدى النساء قائلة "نعم" ونظرت إلي مبتسمة. فتبعتهما أخرى وأخرى: "نعم، بالطبع". صنفقن جميعا إطراء لأنفسهن. وساد ضحك مغلف بالارتياح والبهجة.

الهوامش

المصادر أدناه بالانكليزية:

^١ وليم موريس، "حلم جون بول"، في ثلاثة أجزاء، دار لورانس آند وشارت، لندن ١٩٨٦ (طبع أصلاً في ١٨٨٦/١٨٨٧).

^٢ مثلاً كون كاسيدي: "عودة كارل ماركس" المنشور في "ذا نيويورك ريفيو" في ٢٠ و ٢٧ تشرين الأول ١٩٩٧.
^٣ أكثر ما يدعو للاهتمام هنا مناقشة لذلك في مجلة "للرأسمالية، الطبيعة الاشتراكية" الأميركية، خصوصاً مساهمة جيمس أوكورنر.

^٤ أندريه غورتس، "الرأسمالية، الاشتراكية، البيئة" - دار فيرسو، لندن ١٩٩٤.

^٥ أوسكار وايلد، "روح الإنسان في ظل الاشتراكية" دار بنغوين، لندن، ١٩٨٦.

^٦ مقابلة شخصية، شباط ١٩٨٨.

^٧ تقرير التنمية البشرية، ١٩٩٨، برنامج الأمم المتحدة للتكمية.

^٨ صحيفة الغارديان، ١٦ أيلول ١٩٩٨.

خاتمي: نصف دورة رئاسة

حميد سلمان الكعبي

وصل السيد محمد خاتمي الى رئاسة جمهورية إيران الإسلامية في انتخابات تميزت بارتفاع نسبة المشاركة الجماهيرية - وخاصة في أوساط الشباب والنساء والأقليات - ووجود منافسة حقيقية بين المرشحين، أو - إذا أردنا الدقة - بينه من جهة والآخرين معاً من جهة أخرى، ثم فوزه بنسبة عالية من أصوات الناخبين. وكان حقاً لأنصاره أن يصفوا فوزه بالـ "ملحمة"، لهذه الأسباب مجتمعة وتغلبه على منافسيه رغم ما وضع في طريقه من الغام، وما استُخدم إزاءه من أساليب¹، أيضاً.

ونشأ عن فوز خاتمي وضع شاذ نوعاً ما: رئيس منتخب في أكثر انتخابات إيران انفتاحاً وأعلاها مشاركة وأصحبها منافسة، يحصل على تفويض جديد من الشعب، يجد نفسه أمام مجلس شوري منتخب في أقل الانتخابات انفتاحاً وأدناها مشاركة وأشوهها منافسة، في تفويض سبق انتخابات الرئاسة بسنتين.

ولكي يتمكن الرئيس الجديد من تنفيذ مشروعه الذي انتخبه الشعب على أساسه، ضامناً دعم المجلس له فإن الأسلوب المتبع في الأنظمة الديمقراطية - وإيران منها - دستورياً - هو الدعوة الى انتخابات جديدة - خاصة وأنه طرأ تغير يشبه الثورة على مزاج واتجاه جمهور الناخبين في الفترة بين انتخاب المجلس الخامس وانتخابات الرئاسة السابعة - ولكن الدستور الإيراني لا يسمح لرئيس الجمهورية بذلك، ولا يبدو أن زعيم الثورة (اللقب الرسمي للولي الفقيه، السيد خامنه إي) كان سيقبل القيام بهذا الإجراء لو أن

خاتمي اقترحه عليه. وهكذا، فقد ترتب على خاتمي أن يعمل مع مجلس يعارضه نحو نصف أعضائه (١٣١ من ٢٧٠) معارضة تامة، وهدد زعماءهم في مجالسهم الخاصة، والأوسع قليلاً، بأن رئاسة خاتمي لن تمتد ستة أشهر، وأنهم سيجعلون مصيره كمصير رئيس الجمهورية الأول بني صدر بإعلانهم عدم أهليته، ويقسمون جميعاً متضامنين - في أي تصويت مهم - لا على المشاركة في التصويت وحسب، وإنما على التصويت بالشكل الذي يريدون، بصرف النظر عما يدور من نقاش، يساندتهم نحو خمسين عضواً آخرين في الكثير من مواقفهم.

وقد اتضح تعقيد الموقف منذ أن قدم خاتمي أعضاء وزارته للحصول على الثقة بهم، فلم يكد وزير منهم ينجو - هو أو ترشيحه في الأقل - من انتقاد واعتراض الأكثرية. ومع أن خاتمي نجح في فرض كل وزرائه، إلا أنه كان واضحاً منذ البداية أن ثلاثة منهم سيعانون من مصاعب حقيقية مع المجلس. وهكذا كان، فبعد نحو سنة فقط من تشكيل الوزارة سحب المجلس ثقته من عبد الله نوري - وزير الداخلية - وأفلت وزير الإعلام - عطاء الله مهاجراني - من التصويت على الثقة نتيجة تنازله المشين عن موقفه (الرخو أصلاً) إزاء حرية الصحافة، في تصريحاته المشهورة لصحيفة "السفير" اللبنانية، وتجنب مرة أخرى طرح موضوع استيضاحه باللجوء إلى إجراءات إدارية - كان يرفضها سابقاً بوصفها غير قانونية - لغلق عدد من الصحف، مما أدى إلى استقالة معاونيه لشؤون الصحافة، وتخلص مرة ثالثة من سحب الثقة به، بعد أن طرح الموضوع للتصويت مؤخراً، نتيجة صفقة لم تعلن أسرارها بعد - ودعك مما قيل عن شرحه المنطقي المهادئ لسياسته أمام المجلس، فإن الأكثرية ما جاءت لتسمع أصلاً!

إضافة إلى هذا الموقف العسير، واجه خاتمي مسائل أخرى جدية:

- ١- مع أن جهاز الأمن تديره وزارة منذ أكثر من عشر سنين، إلا أن وزيرها لا يختاره رئيس الجمهورية - رئيس السلطة التنفيذية - وبالتالي فهو لا يخضع لسيطرته، ولا يكاد يعرف شيئاً عن أعمال الوزارة، فكيف بتوجيهها وقيادتها؟
- ٢- مع أن قوى الأمن والنظام (الشرطة) هي جزء من وزارة الداخلية تنظيمياً، إلا أن قائدها العام لا يعينه وزير الداخلية، فهو بالتالي لا يخضع لسلطته ولا يتلقى توجيهاته منه!

وإذا ما أضفنا إلى ذلك أن ثمة مجلساً للأمن القومي لا يرسم شؤون السياسة الأمنية للبلاد فحسب، وإنما يعمل على تنفيذها أيضاً، يشكل رئيس الجمهورية وأنصاره فيه أقلية

شبه معزولة مقابل غالبية من متنفذين ونوبي مصالح، يسعون بكل الوسائل الى إبقاء الوضع "المريح" الذي تجري فيه الأمور منذ بضع عشرة سنة، وإذا أخذنا بنظر الاعتبار أيضاً الولاءات الخاصة التي تشكلت داخل الأجهزة الأمنية خلال هذه الفترة الطويلة نسبياً، لا لخط سياسي معين فقط بل ولأشخاص بالذات أيضاً، لأمكننا فهم صعوبة هذه المسائل وحساسيتها.

٣- إن السلطة القضائية مستقلة تماماً عن السلطة التنفيذية، وفي حين يفترض أن تكون موازية لها، فهي تلعب على الخارطة السياسية الإيرانية دور المخالف العنيد لها. وقد ترجم رئيسها، (السابق) الشيخ محمد يزدي، خلافه الذي عرضه بشكل صبياني يوم تحليف الرئيس خاتمي، الى خطوات عملية تكاد تشل أية خطوة يتخذها خاتمي على الصعيدين الداخلي والدولي.

فالسلطة القضائية تتولى مباشرة جانباً كبيراً من مهمة الحفاظ على الأمن في البلاد عن طريق محكمتين (الثورة، ورجال الدين) المخولتين بالاعتقال والتفتيش. وفيما يؤكد خاتمي وأجهزته التنفيذية على اللجوء الى القانون إزاء الصحف، أوعز يزدي لقاضي محكمة الصحافة بالتشدد، حتى وصل الأمر بهذا الى إعفاء الأعضاء الأصليين من هيئة المحلفين الذين أضربوا عن الحضور الى المحكمة احتجاجاً على استخفافها بتوصياتهم، ثم لجأ الى أسلوب اعتقال الصحافيين وحبسهم أثناء مراحل التحقيق، وتكيل من لا يحبسه منهم بكفالات باهظة يعجزون عن تقديمها - فتكون النتيجة حبسهم أيضاً!

ولم يكتف الشيخ يزدي بذلك، بل كان يحيل بعض الصحف الى محكمة الثورة - التي ينكر القانونيون دستوريته ويشككون بقانونيتها - بدعوى أن جريمتها "غير صحفية" وإنما تتعلق بالرأي العام. كما تواصل محكمة رجال الدين - غير الدستورية هي الأخرى - مطاردة الكتاب والباحثين، من رجال الدين، دون رقيب أو حسيب، بدعوى تسببهم في زعزعة النظام في ما ينشرون، مما يتجاوز مقولة التعبير عن الرأي!

وتعمل هاتان المحكمتان في معالجة قضايا سياسية وفكرية ينص الدستور، وقانون أصول المحاكمات، على النظر فيها علناً ومن قبل هيئة منصفة منتخبة من أوساط مختلفة، من دون اعتبار لهذين الشرطين، بل ومن دون السماح لمحام - أصلاً - بالدفاع أمامهما أحياناً.

ولكل من هاتين المحكمتين مأمورها، الذين يتمتعون بصلاحيات واسعة لخطف المواطنين واستصحابهم الى أماكن مجهولة اتضح لاحقاً أنها "سجون" غير شرعية!

وممارسة أنواع التعذيب النفسي والجسدي معهم للحصول على "اعترافات" بجرائم مزعومة قاموا بها هم أو آخرون، فيدانون بسببها!

وكما خطا خاتمي خطوة لتبييض صورة إيران عالمياً وتطبيع علاقاتها مع العالم من حولها، تعمل السلطة القضائية على تفجير قنابلها الموقوتة لإبطال مساعيه، وهذا ما تتطوي عليه محاكمة وإعادة محاكمة هذا المواطن الغربي أو ذاك، أو اعتقال "الجواسيس" مع كل خطوة دبلوماسية تحقق لخاتمي نصراً على سبيل الانفتاح عالمياً، أو مع اقتراب موعد حوار الحضارات الذي أقرته الأمم المتحدة بناءً على اقتراحه، الأمر الذي أدى إلى تجريده من أي سلاح إزاء تقارير منظمات حقوق الإنسان عن إيران.

٤- ليست لرئيس الجمهورية أية سلطة على الحرس الثوري، وقوات "التعبئة" (بسيج) الملحقة بالحرس، في حين أنهما يلعبان دوراً كبيراً في شؤون الأمن الداخلي. وقد أثبتت وقائع السنتين المنصرمتين من رئاسة خاتمي أن هاتين المؤسستين تعملان على النقيض من سياساته لإقامة وتحكيم المجتمع المدني.

٥- جرى تشكيل "مجمع تشخيص مصلحة النظام" على أيام المرحوم الخميني كجهاز تحكيم في الخلافات التي تنشأ بين السلطتين التشريعية والتنفيذية حول تنفيذ القوانين، أو بين شقي السلطة التشريعية (مجلس الشورى ومجلس صيانة الدستور) حول شرعية و/أو دستورية القوانين. وكان ينعقد برئاسة رئيس الجمهورية، ويضم الطرفين المتخاصمين، فيلعب الرئيس دوراً أساسياً في حسم النزاعات.

ولكن مع اقتراب انتهاء ولاية رئيس الجمهورية السابق، الشيخ الرفسنجاني، أصدر زعيم الثورة أمراً عهد بموجبه، لهذا المجمع برسم سياسات البلاد العامة "خارجية"، "اقتصادية" و"داخلية"، وعين الشيخ رفسنجاني رئيساً له! وعدا عن المفارقة التي أدت إليها هذا الإجراء، وهي شكاية الظاهر عميقة المحتوى: فقد تحول رئيس الجمهورية - المسؤول بموجب الدستور عن مراقبة تنفيذ الدستور وسلامة هذا التنفيذ، ورئيس السلطة الذي ينظم برنامج التنفيذ وفق الخطة الخمسية والميزانية السنوية اللتين يقرهما مجلس الشورى - إلى منفذ لسياسات يرسمها المجمع الذي لا يتمتع بمثل هذه الصلاحيات دستورياً، وانتفى عملياً دور المجمع كحكم مقرر بين سلطتين ومرجع لحل الخلافات داخل السلطة التشريعية بشقيها. أقول، عدا عن هذه المفارقة، أخذ زعيم الثورة يضغط على جسد المجمع أعضاء جدداً من وزراء رفسنجاني الذين استغنى عنهم خاتمي مما جعله هيئة كبيرة يضيع وسطها خاتمي ومن يمكن أن يؤيده ممن ضمهم الزعيم إلى المجمع لإظهار

"حيادية" إجراءاته، كما اتخذ رفسنجاني الخطوات اللازمة لجعل المجمع مؤسستاتي الطابع بأن عين له سكرتيراً عاماً وجعل يعقد الجلسات المنتظمة "لتعيين السياسات"، مما جعل منه حكومة موازية!

أمام هذا الحصر والتطويق، كان على خاتمي الرجوع إلى الشعب - الذي أعطاه التفويض بانتخابه - . ولما كان إجراء استفتاء متعزراً عليه دستورياً، فقد كان رجوعه إلى الشعب هادئاً وبسيطاً: إجراء مقابلات مباشرة ولقاءات متعددة مع جماهير الشعب ومع مجموعات محددة منه: شباب، نساء، مثقفين، طلاب، الخ... وحثهم على النضال من أجل حقوقهم، وممارستها، وتحمل الصعاب في سبيلها. وكذلك منح مزيد من الامتيازات للصحف. فإزاء موقف اليمين عموماً، والسلطة القضائية خصوصاً، المعادي للصحافة والمتشنج إزاءها، كانت سياسة خاتمي تتميز بمنح امتيازات إصدار صحف أكثر (هناك امتيازات صدرت لم تستثمر بعد وأبقيت محفوظة احتياطاً لتستعمل في حال إغلاق هذه الصحيفة أو تلك)، ومنح حرية نسبية أوسع للصحف في الأمور التي تتناولها، والتقليص إلى أدنى حد لإجراء غلق الصحف وسحب امتيازاتها، الإداريين.

وقد نجحت هذه السياسة، حتى الآن، في مسألتين مهمتين:

١- تسييس جماهير واسعة ممن شاركوا في انتخابات خاتمي، وانتخبوه، بعد أن كانوا اندفعوا إلى المشاركة في الانتخابات لعوامل عدة لم تكن السياسة بمفهومها الدقيق من بينها، بقدر ما كان هدفهم تغيير النظرة إليهم وتمكينهم من "العيش على طبيعتهم" بشكل أوسع.

٢- دفعت إلى السطح مناقشة مسألة "ولاية الفقيه": حدودها والتزاماتها، بعد أن كانت من "المقدسات" التي لا يجوز - عملياً في الأقل - تناولها.

كان الخميني يقول: "إن كتب فقهاء المسلمين الكبار ملأوا، باختلاف الآراء والأذواق والاستنتاجات في مختلف الحقول العسكرية والثقافية والسياسية والاقتصادية والعبادية، إلى حد أنه في المسائل التي يزعم أن فيها إجماعاً يوجد رأي أو مخالفة، وحتى في المسائل الاجتماعية يمكن العثور على آراء مخالفة... أفيمكن أن نتصور إذن أن الفقهاء - إذا اختلفوا مع بعضهم بعضاً - قد عملوا خلاف الحق وخلاف دين الله؟".

وصرح منتظري، وهو من منظري ولاية الفقيه، أنه وأنصاره لم يفكروا قط [حين أقرروا ولاية الفقيه في الدستور أثناء مناقشته في المجلس التأسيسي] في أن تكون الولاية مطلقة بالشكل الذي يفهم من الإطلاق اليوم... وأعلن أنهم لم يبرروا لها مقاماً خارج الدستور، بله فوقه.

وقد صارت الصحافة الإيرانية تطرح اليوم، بجرأة، مسألة ضرورة قيام مجلس خبراء الزعامة (أو الولاية) بواجباته الدستورية كاملة: انتخاب الولي الفقيه، مراقبة عمله، وعزله إن وجد قاصرا عن أداء مهامه. وبصراحة أكثر، إن على مجلس الخبراء هذا بعد أن ينتخب الولي الفقيه أن يناقشه - كما يناقش مجلس الشورى رئيس الجمهورية - وحتى يعزله إن اقتضى الأمر، وأن يقدم تقريرا بمناقشاته للرأي العام الذي انتخبه، لكي يعرف الشعب ماذا يعمل المجلس وكيف يعمل.

إن ما أثار أوساط اليمين في هذا الأمر ليس الحرص على ولاية الفقيه نفسها، بقدر ما هو الحرص على إبقاء الولي الحالي نفسه، الذي يدعم مواقف هذا اليمين أولاً، وإلى استعمال المسألة كلها في التهويل على أنصار خاتمي باعتبارهم أعداء لولاية الفقيه، الأمر الذي جعله اليمين طوال سنوات أمرا مساويا للكفر!

كيف يعالج اليمين الموقف؟

لقد استفاد اليمين المحافظ كل مساعيه لوقف الاندفاع الذي أحدثه فوز خاتمي ووقفف التموج الذي أحدثته الحجارة التي رماها في بركة السياسة الإيرانية الراكدة:

١- فقد صعد الاعتداءات بالسلاح البارد على التجمعات، وحتى الندوات العلمية، في حين كانت قوى أمنه الداخلي تقف متفرجة على الاعتداءات، لتعتقل الضحايا بعد انتهائهم، حتى امتد الأمر إلى الاعتداء على نائب ومستشار لرئيس الجمهورية ووزيرا وإلى تخريب صلاة جمعة، ثم الاعتداء على إمام جمعة - شخصيا - الأمر المعادل للكفر!

٢- واستفاد من اتساع حرية الصحافة ليصدر صحفا تقوم بالتهويل على الحريات العامة، والتشهير بالوجوه السياسية والصحافية الإصلاحية، والإيحاء بممارسة المزيد من أعمال العنف والاعتداءات، وذلك عن طريق إطلاق التكفيرات على بعض تلك الوجوه أو إعلان معاداتها لولاية الفقيه، أو عن طريق تلقين المعتدين - المعتقلين - بطرق الدفاع عن أنفسهم عن طريق إنكار وقوع الاعتداءات أصلا أو الزعم بأنها "اعتداءات ذاتية".

يعني أن الضحايا أصابوا أنفسهم أو كلفوا من يعتدي عليهم ليثيروا قضية ضد خصومهم!

٣- استفاد من الأزمة الاقتصادية التي تمر بها البلاد، على نحو ضيق، وذلك لسببين: أولهما أن الحكومة إنما تنفذ سياسة يرسمها لها مجمع تشخيص مصلحة النظام، والثاني أن الإصلاحيين يهددون - كلما جرى كلام في هذا المضمار - بالتوسع في بحث المشاكل الاقتصادية التي أوقعت حكومة رفسنجاني^٢ النظام، والبلاد، فيها.

٤- لم يتورع عن اغتيال عناصر معارضة حقيقية (الزعيم السياسي داريوش فردهر وزوجته براونه اسكندري) وعناصر تسبب مجرد صدام (الكاتب والشاعر مختاري والكاتب والمترجم في مجال حقوق الإنسان بوينده)، وربما عناصر أخرى من هذا النوع، سابقا، أثرت فيما مضى شكوك عن مقتلها أو "موتها".

٥- استخدم بنجاح سلاح سحب الثقة من الوزراء مع وزير الداخلية، وبغير نجاح - أو بنجاح على طريقة أخرى - مع وزير الإرشاد، وهدد باستخدامه مع وزراء آخرين.

٦- استخدم، بنجاح، مجلس صيانة الدستور للحد من وصول عناصر إصلاحية جريئة حقا إلى مجلس خبراء الزعامة، وأعطى للجنة الأحزاب والجمعية في مجلس شورى مثل صلاحية مجلس الصيانة فيما يتعلق بانتخابات البلديات - ولم يوفق في النتائج.

وأمام اليمين، والبلاد كلها، أهم انتخابات نيابية في تاريخها الحديث، وهو سيستخدم - لذلك - كل هذه الأسلحة والأساليب فيها، وسيكون هدفه الأول تقليل وإضعاف المشاركة الجماهيرية في الانتخابات، وتقليل عدد المرشحين الذين يقبل اشتراكهم، وابتكار طرق جديدة لإغراء العناصر غير المسييسة للتصويت لمرشحيه وتشويه صورة منافسيه، ثم في قبول من يفوز منهم.

وسيقع هذا على أرضية من إحباطين: أ) ازدياد تفاقم الأزمة الاقتصادية في البلاد، فقد كانت نسبة من يعيشون أدنى من خط الفقر أثناء رئاسة رفسنجاني ٥٠ بالمئة من السكان، ارتفعت إلى ما بين ٦٠ و ٧٠ بالمئة في أوائل سنة ١٩٩٩ ويتوقع أن ترتفع إلى أعلى من ذلك خلال هذا العام وحتى أوائل سنة ٢٠٠٠، ب) التنامي المحتمل لإحساس الجماهير بعدم جدوى مشاركتها في العمل السياسي عموما، والانتخابات خصوصا، مادامت الأحداث تفرض عليها، وعلى حكومتها، بشكل لا ترتضيه.

آفاق النصف الثاني

قد يكون خاتمي راضيا عن صبره وهدوئه اللذين يؤثران عنه، ولكن لا يتوقع أحد من جماهير الشعب أن تحافظ على صبرها، فهي إما أن تزداد ابتعادا عن العمل السياسي والعام - كما جرى في الترشيح لانتخابات البلديات وفي المشاركة في الانتخابات أيضا - وإما أن تلجأ إلى عمل عنيف لإزالة القيود التي تطوقها، الأمر الذي ربما كان اليمين المحافظ يراهن عليه للتخلص من خاتمي شخصيا والقضاء على "ثورته" الجديدة. وستكون

المجريات اليومية للسياسة الإيرانية هي ما يحدد أيا من الطرفين ستختار الجماهير، مع الانتباه إلى الغياب الكامل تقريبا لمؤسسات المجتمع المدني - أحزاب وتنظيمات جماهيرية حقيقية -.

وكلا هذين الطرفين في غير صالح خاتمي وهدفه المعلن: تحقيق المجتمع المدني وتمكين الجماهير من ممارسة التحكم بمصيرها.

ولذا، فإن عليه مضاعفة جهوده في هذا السبيل، وخاصة في تحقيق دعم أقوى للصحافة، التي أثبتت أنها - في غياب الأحزاب الحقيقية - خير سلاح لتحقيق المجتمع المدني، مع أنها من أدواته ومظاهره.

لقد بدأ معركته - على طريقته - على صعيد القضاء، مع تغيير رئاسة السلطة القضائية، فيبدو أنه يعرف ما يريد، وكيف ينبغي أن يعمل. فهل سيواصل هذه المعركة حتى الانتخابات القادمة على الأقل؟

*

لقد جاءت أحداث أوائل تموز الماضي لتعزز التوقعات الواردة أعلاه، وقد تحرك الطلاب في رد فعل سريع على إجراء متشنج للسلطة القضائية: فقد كانت هذه السلطة تقر بصحيفة "سلام" منذ مدة، واستغلت نشرها رسالة "المخطط" المعلن لعمليات اغتيال المثقفين والمعارضين السياسيين ومنفذها الحقيقي¹، لخلقها بصورة غير قانونية².

وقد اتخذت الأحداث، واختلاط أعمال تخريبية مشبوهة بها، ومعالجتها مسارا لم يخرج عما جرى على الواقع السياسي في إيران طيلة السنتين الماضيتين: دان الولي الفقيه لفظيا القمع الوحشي لانتفاضة الطلاب، ولكنه أبقى قائد الشرطة هدايت الله لطفيان، ذا السوابق العديدة المشابهة، في موقعه، ولم تحرك السلطة القضائية ساكنا تجاه صحيفتيين يوميتين وثلاثة أسبوعية نشرت رسالة إنذار من قيادة في الحرس الثوري لرئيس الجمهورية يتحدثون فيها بصراحة عن نيتهم في التدخل المباشر إن لم ينفذ مطلبهم في مواجهة التحركات التي تهين القيم والرموز!

وهذه الرسالة سرية طبعا، سواء أرفعها أولئك الضباط سرا أم علنا، فمضمونها يشير إلى هذا الانقسام الحاد في وجهات النظر، وأسلوبها مهين للرئيس، وكلا الأمرين يضعف النظام!

كما أن دائرة الادعاء العام - سواء أكان ادعاء محكمة الثورة أو الادعاء العسكري - لم تتخذ إجراء بحق عسكريين يتدخلون في صراع سياسي، وهو أمر ممنوع عليهم،

ويجتمعون ليقدموا مطالباً جماعياً، وهو أمر ممنوع آخر!
ومع صدور النتائج الأولية للتحقيق في قمع الطلبة، بقي ما لا يقل عن مائة منهم معتقلاً و"مفقوداً"، وانتهز صاحب القرار الأعلى زحمة الأحداث وصخبها ليدخل أعضاء أكثر يمينية ممن سبقهم في مجلس صيانة الدستور: "يزدي" بعد خروجه من رئاسة السلطة القضائية، "طاهري خرم آبادي" الذي دان الانتفاضة الطلابية من على منبر صلاة جمعة طهران، و"استادي" مدير "جامعة" (جمعية) مدرسي حوزة قم العلمية، وصاحب المقالة الوحيدة في الأمور السياسية التي شجب فيها حديث خاتمي إلى CNN!
وهكذا، لم يتغير، تحت السطح، الكثير، وأجّلت الإجراءات الحاسمة إلى معركة الحسم الكبيرة، والذي يبدو أن الطرفين يخافان أن يخطئوا في الحساب فيستفيد الطرف المقابل من هذا الخطأ في معركة الانتخابات القادمة.

الهوامش

¹ ابتداء من إدراج اسمه أخيراً على قائمة المرشحين، في حين كان يجب أن يكون أولاً لأن القائمة مرتبة حسب الحروف الأبجدية، ومن تجاهل وسائل الإعلام الرسمية له، وافتعال نشاطات داخلية وخارجية متعددة لمنافسه الرئيس (ناطق نوري)، أو تقديم خاتمي في أوقات غير مناسبة، بينما يتم تقديم منافسه الرئيس في أفضل أوقات البث التلفزيوني، إلى شراء الأصوات بالطرق المعروفة: اللواتم، ثم للشراء نقداً على مرحلتين: تسليم نصف الورقة النقدية مقدماً على أن يتم تسليم نصفها للثاني بعد الاقتراع! إلى اعتقال الشبان والشابات من مراكز الاقتراع، بحجة عدم رعاية الحجاب الإسلامي أو "الشؤون" الإسلامية، واحتجازهم لحين انتهاء الوقت الرسمي للانتخاب، وذلك لتأكيد أجهزة الأمن والمخابرات من أن هؤلاء سيصوتون له، إلى شن الخطباء والوعاظ حملات تلح إلى أن انتخابه حرام، ومراقبة عدد من أعضاء مجلس صيانة الدستور عند أجهزة الهاتف يصرون تعليماتهم أولاً بأول إلى الأجهزة المشرفة على الانتخابات، وعقد قيادة الحرس الثوري سلسلة اجتماعات تسرب عنها صدور تعليمات بالحد من محاولات "بلنة" إيران وتهديدات بأن الحرس سيحولها إلى "بلقنة"، وأنه مستعد لاستئصال السيوف لحز الرقاب وقطع الألسن! وانتهاء بإنتاج فيلم فيديو وزعت منه آلاف النسخ في طول البلاد وعرضها، وعلى كبار رجال الدين أساساً، زعم أنه يصور فرحة خاتمي وانصاره باحتمالات الفوز، سمي بـ "عصر عاشوراء"، وتسيير سيارات تحمل "المبتهجين" بقرب الفوز، عصر يوم عاشوراء أيضاً، وصور موكبها في فيلم فيديو آخر باسم "مهرجان البهجة"، للإيعاء باستهتار خاتمي ومؤيديه بالمناسبة الأليمة و- بالتالي - بالقيم الإسلامية! ومشاعر الشعب الإيراني! وعندما انكشف أن الفيلمين جرى تليفهما وإنتاجهما في مؤسسة الإذاعة والتلفزيون - التي يقودها واحد من خصوم خاتمي الأداء - جرت لقفلة محاكمة المشتريين في "مهرجان البهجة" خوفاً - فيما يبدو - من اقتضاح أسرار تتعلق بالعملية، ثم خيم صمت تام في معسكر اليمين بالنسبة للموضوع.

^١ كان الولي الفقيه السابق، المرحوم الخميني، يعالج التفرات والإشكالات الدستورية بحلول "يسارية" وكان يقف - في قضايا الخلاف - عمليا إلى جانب المتمردين والإصلاحيين، مع أن شخصيته لم تكن تسمح بإثارة قضايا تفصيلية حادة، وإنما كانت الخلافات تنور حول قضايا عامة وبشكل مزوق. أما الولي الحالي السيد الخامنه نسي، فبرغم دعوته اللفظية إلى الوحدة وتسوية الخلافات بالتفاهم، إلا أنه عمل على إسناد مواقف اليمين، والمتشدد منه بشكل خاص، في الواقع العملي. فقد جدد عضوية أعضاء مجلس الصيانة اليمينيون جميعا، عندما انتهت عضويتهم فيه، ولم يستفد من فرصة تقدمهم في السن، إلى جانب انتهاء مدة العضوية، لتغييرهم. كما جدد لرئاسة علي لاريجاني لمؤسسة الإذاعة والتلفزيون عند انتهاء مدتها القانونية في السنة الماضية، رغم معاداته المكشوفة لرئيس الجمهورية ورغم انكشاف ضلوعه في الفيلمين سيئي السمعة، وفي برنامج تلفزيوني وجه الاتهام لرئيس الجمهورية وأنصاره - بعد ذلك - بالضلوع في اغتيالات السياسيين والمثقفين! ووجد لرئيس مؤسسة المستضعفين والمضحكين - وهي إمبراطورية اقتصادية كبرى - حتى بعد انكشاف وجود فساد مالي فيها حسب تقرير لمجلس الشورى - اليميني هو الآخر! والخط الذي أثير عن احتمال تمويله حملات مناقسي خاتمي في انتخابات الرئاسة. وحتى عندما اضطر وزير الأمن إلى الاستقالة بسبب ضلوع وزارته في القتل السياسية، كان البديل الذي فرضه السيد الخامنه نسي على خاتمي، عن ذلك الوزير، يمينا هو الآخر. وعندما انتهت رئاسة الشيخ يزدي للسلطة القضائية ولم يجد له، عين يمينا آخر، وإن كان أكثر هدوءا من يزدي، للمنصب، يتميز - وهذا أمر بالغ الدلالة - بكونه قريبا جدا منه، وربما - بالتالي - أكثر طاعة في تنفيذ رغباته المباشرة.

^٢ مع أنه أحد أقطاب "جامعة رجال الدين المناضلين"، لتنظيم الرئيس لليمين السائد رسميا في إيران، إلا أنه يعمل على تقديم نفسه كمعتدل. ومع أن وزارته التي شكلها في فترتي رئاسته كانت تضم عناصر يمينية أساسا، إلا أنها يمكن وصفها بالتكنوقراطية أكثر من اليمينية، وقد استفاد خاتمي من بعضها في تشكيل حكومته، وكانت تحظى عموما برضى اليمين، خاصة في مجلس الشورى.

^٣ في قانون الانتخابات الإيراني، يحق لمجلس صيانة الدستور أن يلغي نتائج انتخابات أي مركز انتخابي كلاً أو جزءا إذا اقتنع بأن الانتخاب فيها لم يجر بصورة سليمة. كما أن مجلس الشورى نفسه يحق له رفض من لا يقتنع المجلس بسلامة انتخابه.

^٤ أعدت هذه المقالة قبل الأحداث بأشهر.

^٥ أجمع المراقبون الخارجيون على كونه مجرد منفذ، ولمحت صحف "الإصلاح" الإيرانية على أن "انتحاره" كان تمثيلية مدبرة أريد بها عدم الكشف عن المخططين الحقيقيين.

^٦ لأن حكم الطاق صدر عن دائرة مدعي عام الثورة، لا عن محكمة الصحافة، أو محكمة رجال الدين التي سبق أن حاكمت الجريدة وأصدرت عليها حكما معلقا. وكانت ذريعة الإغلاق أن الجريدة نشرت وثيقة سرية (ما وجه سريتها؟) وبشكل مشوه (كيف؟) أريد بها إثارة القلق والاشفاق في المجتمع.

وثيقة

البلاغ الصادر عن المجلس الحزبي العام الخامس للحزب الشيوعي العراقي

انعقد على أرض الوطن في أيام ٢٦ - ٢٨ تموز ١٩٩٩ المجلس الحزبي العام الخامس للحزب الشيوعي العراقي.

وجرت أعمال المجلس بمشاركة ممثلي الحزب الشيوعي الكردستاني - العراق، ومندوبي تنظيمات الحزب في عمق الوطن وفي الخارج، ومندوبي لجان الاختصاص المركزية، وممثلات لجمهرة الرفيقات أعضاء الحزب، إضافة إلى أعضاء قيادة الحزب وبعض الكوادر القيادية.

وتداول المشاركون "موضوعات سياسية للنقاش" جرى إعدادها في إطار التحضير لعقد المجلس. وناقشوا في سياقها التطورات في السنتين الأخيرتين على الصعيد الداخلي: الأزمة الاقتصادية والمعاناة المعيشية، استمرار الحصار الاقتصادي والتلاعب بتطبيق القرار ٩٨٦، تفاقم المشكلات الاجتماعية، تشديد وتائر الإرهاب، تصاعد المقاومة الجماهيرية، التطورات على الصعيد الخارجي المتصلة بالشأن العراقي، الموقف الأمريكي، المعارضة العراقية، الوضع في كردستان خاصة عواقب الاقتتال الداخلي العبثي وضرورة تحقيق المصالحة والسلام، إضافة إلى الأوضاع العربية والدولية.

وقرر المجلس في ختام مناقشة الموضوعات المذكورة، إصدار بيان يستند إليها، وإلى التعديلات التي تقرر في مجرى النقاش إدخالها عليها، فضلاً عن الأفكار والملاحظات الواردة في عشرات من رسائل الرفاق والأصدقاء التي وصلت إلى المجلس الحزبي في شأن الموضوعات.

كذلك، وارتباطاً بتصاعد التحركات الجماهيرية ضد النظام الدكتاتوري في الأشهر الماضية، أصدر المجلس نداءً موجهاً إلى القوى الوطنية العراقية.

وبحث المجلس أيضاً تقريراً عن نشاط الهيئات القيادية للحزب في مختلف الميسادين، منذ المؤتمر الوطني السادس، وصادق عليه.

أواخر تموز ١٩٩٩

التقرير السياسي للمجلس الحزبي العام الخامس للحزب الشيوعي العراقي

شهدت السنتان الماضيتان اللتان أعقبنا المؤتمر الوطني السادس لحزبنا في أواخر تموز ١٩٩٧، تطورات كبيرة الأهمية في أوضاع بلادنا الداخلية وفي ما يتعلق بالشأن العراقي عربياً وإقليمياً ودولياً، وفي الأوضاع العربية والعالمية بشكل عام. وامتدت التطورات الى سائر ميادين الحياة الداخلية، وبضمنها الوضع في إقليم كردستان، وفاقمت محنة جماهير الشعب والكارثة التي حلت بالوطن، وعمقت الأزمة الشاملة للنظام الدكتاتوري وزادت تعقيداً واستعصاءً. وشملت التطورات أيضاً مواقف وعلاقات النظام الخارجية، والمواقف العربية والدولية منه ومن القضية العراقية، وعكست تخبطة سياسي وعزلته في الخارج أيضاً، وضيق هامش المناورة المتاح له في التعامل مع الأمم المتحدة وقرارات مجلس الأمن. وسجلت السنة الأخيرة بصورة خاصة، والأشهر المنقضية من العام الجاري بصورة أخص، تسارعاً في نبض الأحداث على الصعد جميعاً، وتزايدت في سياقها الدلائل والإشارات من الخارج والداخل على حد سواء، الى أن الفترة المقبلة يمكن أن تشهد تطورات غير عادية بالنسبة للنظام الحاكم وبالنسبة لبلادنا ومستقبل تطورها.

١ - على الصعيد الداخلي

أفضت مسيرة الأحداث في الداخل منذ المؤتمر السادس لحزبنا، الى تغير ملحوظ في مزاج جماهير الشعب واستعدادها للكفاح ضد النظام الدكتاتوري. وتجلّى التغير ملموساً في

تتامي السخط والتملل والتحفز في الأوساط الشعبية ضد سلطات النظام، والتراجع الجزئي للخوف من عسفها وبطشها، وما أسفر عنه ذلك ورافقه في الأشهر القليلة المنصرمة خصوصاً من موجة عمليات مقاومة وتصدد، ومواجهات وهبات جماهيرية، ظلت تتواصل وتمتد من محافظة الى محافظة ومن مدينة الى أخرى.

وجاءت هذه التطورات حصيلة لمجمل سياسات النظام ونهجه القمعي المتفاقم، ولعواقب الحصار الاقتصادي الدولي بعد ما يزيد على ٨ سنوات من فرضه، ولتأثير الضربات العسكرية الأمريكية - البريطانية التي تعرضت لها البلاد أواخر السنة الماضية، وعوامل أخرى.

أ- الأزمة الشاملة في البلاد

أسفر نهج النظام الدكتاتوري المتعارض مع مصالح الشعب والمقامر بمصائره، عن سقوط البلاد في أزمة عميقة، سياسية واقتصادية واجتماعية وأخلاقية. وظلت هذه الأزمة تتفاقم مع تفاقم الإرهاب وإصرار الحاكمين على سياستهم الاقتصادية المدمرة، ومع فوض الحصار الاقتصادي الدولي واستمراره، حتى تحولت الى أزمة عامة شاملة تطحن الشعب وتستنزف قوى البلاد وطاقاتها.

١- السياسة الاقتصادية للنظام والمعاناة المعيشية للشعب

شهدت الفترة الماضية اشتداد المحنة الحياتية والمعيشية لشعبنا، الناجمة عن بقاء الدكتاتورية متسلطة على البلاد، وعن الخراب الواسع الذي ألحقته حروبها ضد الجيران (إيران، الكويت) وضد أبناء شعبنا بالبنى التحتية للبلاد وبقدراتها الاقتصادية، وعن استمرار الحصار الاقتصادي الظالم، وكذلك عن سياسة النظام الاقتصادية المدمرة، وتقليص ثمار تطبيق القرار ٩٨٦ عبر مختلف أساليب الغش والتلاعب والنهب من جانب النظام، وأساليب العرقلة والإبطاء من جانب الإدارة الأمريكية وبيروقراطية الأمم المتحدة. وارتبط تفاقم الضائقة المعيشية لعامة الشعب بما أفضت إليه العوامل المذكورة من ركود اقتصادي مزمن، وشلل في حركة السوق، وتذبذب مستمر وانخفاض في سعر صرف الدينار، وتضخم متصاعد، وبطالة متسعة النطاق. وفاقت سلطات النظام هذا الواقع المتردي بابتداع شتى الوسائل وأقساها لجباية الأموال من المواطنين الذين يعانون أصلاً من بؤس القدرة الشرائية.

ونجم هذا التوجه نحو تعزيز الموارد الداخلية للدولة، والذي تركز بفرض المزيد والمزيد من الضرائب والرسوم والأتاوات، عن حرمان النظام من التحكم بعائدات النفط بعد فرض العقوبات الدولية، والتضاؤل الشديد لعموم موارده المالية. وعمدت سلطات النظام في هذا السياق الى:

* زيادة حجوم العديد من الضرائب المستحصلة، المباشرة وغير المباشرة، واستحداث المزيد منها. ونتيجة لذلك ازدادت واردات الدولة في عام ١٩٩٨ بنسبة ١٩٦% مقارنة مع عام ١٩٩٧، وبلغت نسبة الزيادة في بعض المجالات ٨٨٠%.

* زيادة حجوم العديد من الرسوم على الخدمات العامة والبلدية، وبضمنها الخدمات الصحية والتعليمية والكهرباء والماء وغيرها، وابتكار المزيد منها. وأصبح من واجب المواطن، مثلاً، تسديد معظم النفقات الدراسية لأبنائه، ونسبة متزايدة من تكاليف صيانة المباني المدرسية ونفقات الهيئات التعليمية والتدريسية.

* فرض مختلف أشكال الأتاوات، والغرامات الكيفية، وإجبار المواطنين على "التبرع". ومن ذلك جباية الغرامات الكبيرة من المواطنين المكتسبين على الأرصفة ومن سائقي السيارات وغيرهم بدعوى ارتكابهم "مخالفات".

* زيادة أسعار العديد من السلع التي كانت الدولة توفرها للمواطنين بأسعار مقبولة نسبياً. وقد عمدت في الأشهر الماضية، على سبيل المثال، الى مضاعفة أسعار النفط ومشتقاته (لتر البنزين من ٥ الى ١٥ ديناراً).

والى جانب تشديد الهجوم الضريبي، واصل النظام في ضوء سياسة النقشوف التي دعت إليها رسالة صدام حسين الى مجلس وزرائه في كانون الأول ١٩٩٥، خفض الإنفاق الحكومي وتقليص الخدمات العامة. وكان آخر ما اتخذته حكومته على هذا الصعيد، قرارها في أيار المنصرم تخفيض الإنفاق العام بنسبة إضافية تبلغ ١٠ في المئة.

وفي أثناء ذلك، استمر تطبيق سياسة الخصخصة التي تتجلى في بيع ممتلكات قطاع الدولة في سائر ميادين النشاط الإنتاجي والخدمي الى القطاع الخاص، والتي يشكل ما يسمى "التمويل الذاتي" للمؤسسات الحكومية شكلاً أولياً من أشكالها. وتهدف الخصخصة، بجانب تحقيق موارد ووفورات مالية لخزينة الدولة، الى ترميم القاعدة الاجتماعية للنظام. فمن المعروف أن المنشآت والتجهيزات والمعدات تباع الى أعوان السلطة وأزلامها قبل غيرهم، وبأسعار منخفضة تقل أحياناً بنسبة ٣٠% عن قيمتها الحقيقية.

كذلك استمر دعم القطاع الخاص وتحرير التجارة من التقييدات الحكومية، فجرى

تنشيط سوق بغداد للأوراق المالية، وتأسيس المزيد من البنوك الأهلية، ومنح القطاع الخاص إعفاءات ضريبية، والمباشرة بإنشاء مناطق حرة، وغير ذلك. واقترن ذلك كله ببقاء أسعار السلع الضرورية والكثير من المواد الغذائية مرتفعة بسبب عدم تحسن قيمة الدينار، بل وتدهور سعر صرفه حتى تجاوز في الربيع الماضي ولأول مرة منذ عام ١٩٩٧ حاجز ألفي دينار مقابل الدولار الواحد، وبسبب تغييب الرقابة على الأسعار، وارتفاع هوامش ربح الوسطاء الطفيليين، وغير ذلك. كما نجم ارتفاع الأسعار عن العديد من الإجراءات الاقتصادية سابقة الذكر، والتدابير الأخرى ومنها السماح بتصدير المواد الغذائية والمواد الأولية الضرورية للصناعات المحلية. ومن المتوقع أن تتأثر الأسعار سلباً كذلك بحالة الجفاف في السنة الحالية التي أدت إلى انتكاسة حادة في الإنتاج الزراعي، وانخفاض حجم المحاصيل الرئيسية بحوالي ٥٠% مقارنة بالسنة الماضية.

هذا في حين بقيت رواتب وأجور العاملين لدى الدولة على حالها عملياً، وعجزت "الزيادات" التزويقية في مخصصات بعض فئات العاملين، والتي يجري الإعلان عنها في أحيان متباعدة، عن وقف الانخفاض المتواصل لقيمتها الحقيقية، الناجم عن استمرار التضخم وتصادم تكاليف المعيشة.

وأدت التوجهات الاقتصادية المشار إليها والعديد من التدابير الجديدة المتخذة في هذا المجال، ومنها تعديل قانون الإيجار، إلى تعميق الركود الاقتصادي وإغلاق مئات المعامل الصغيرة والورش الإنتاجية وغيرها، في بغداد وحدها. وهو ما أضاف أعداداً كبيرة جديدة من المواطنين القادرين على العمل إلى جيش العاطلين الهائل المتسع.

ويرتبط بسياسات النظام عموماً وبعواقبها، استئراء الرشوة والفساد في جميع مفاصل الدولة وأجهزتها ومؤسساتها دون استثناء، وبضمنها مؤسسة القضاء. ويسهم هذا بدوره في استنزاف الموارد بالغلة الشحة للمواطنين، التي تتآكل - بين أسباب أخرى - بفعل إيقاف الدعم الحكومي وإلغاء بعض المزايا والإعفاءات الممنوحة سابقاً لفئات مختلفة من السكان.

لقد أسفر هذا التطور بمجمله عن المزيد من تدهور الأحوال المعيشية والمصاعب الحياتية لعامة أبناء الشعب. كما أفضى إلى تعميق التفاوت الاجتماعي، وإلى المزيد من مركزة الثروة بيد مجموعات أضيق من المرتبطين وثيقاً بالعائلة الحاكمة ورؤوس النظام الآخرين.

٢- استمرار الحصار الاقتصادي والتلاعب بتطبيق القرار ٩٨٦

شكل فرض العقوبات الاقتصادية من قبل الدول الامبريالية لاسيما الولايات المتحدة، في العقود الأخيرة، وسيلة لإملاء إرادتها على الدول والمجتمعات الأخرى، بذريعة معاقبة أنظمتها الدكتاتورية. غير أن التجارب أظهرت أن الشعوب لا الأنظمة، هي الضحية الأولى والمباشرة لهذا النوع من العقاب الجماعي المدان.

وذلك ما أكدته أيضا حصيلة تسع سنوات من الحصار الاقتصادي المفروض على العراق، والذي دفع شعبنا ويدفع ثمنه باهظا في معاناته الإنسانية المتعظيمة، وفي الأضرار الهائلة التي لحقت بالقاعدة الاقتصادية للبلاد، وفي إهدار وتعطيل عموم قواها وقدراتها، لاسيما البشرية، وفي ما خلفت من آثار مخرّبة في النسيج الاجتماعي، وما باتت تشكله من خطر على مستقبل الشعب والوطن.

ولقد كان موقف حزبنا منذ البداية الى جانب رفع الحصار الاقتصادي عن الشعب، دون قيد أو شرط، وبإشراف الأمم المتحدة. وإلى جانب تأكيد حزبنا تمسكه بموقفه هذا، فإنه رحب بالإجراءات الموقّعة الهادفة الى تخفيف معاناة شعبنا، وبضمنها القرار ٩٨٦ وتطويره اللاحق في القرار ١١٥٣.

غير أن الكثير من الآمال المعقودة على تطبيق القرارين لم يتحقق، نتيجة تلاعب سلطات النظام بالتطبيق من ناحية والعراقيل والمماطلات التي تعتمدها الولايات المتحدة وبريطانيا لكبح التطبيق، وتلكؤ الأجهزة البيروقراطية للأمم المتحدة، من ناحية ثانية.

وبالإضافة الى عدم حدوث تغير جوهري في الحصة التموينية الشهرية بمفرداتها وكمها ونوعها، والتي لا تكفي لتأمين المعدل الضروري للفرد من الأسعار الحرارية والمواد المغذية، فقد عمدت السلطات الى تأخير توزيعها حيناً، وحجب نسبة من بعض موادها حيناً آخر، والغش في نوعياتها واستبدال الجيد من المواد المستوردة وفق القرار ٩٨٦ بأخرى غير صالحة من خزين النظام الاستراتيجي. كما أنها لم تتورع عن استخدام الحصة سلاحاً ضد فئات غير قليلة من أبناء الشعب الذين تعتبرهم غير موالين لها.

ومن ذلك يتبين أنه لم يطرأ سوى تحسن محدود نتيجة تطبيق القرار ٩٨٦، في الحصة التموينية. وفي هذا يتجلى التوافق بين رغبة النظام من جانب، والقرار الأمريكي باستمرار الحصار من جانب آخر. فالنظام يؤيد في الواقع العملي الإبقاء على الحصار الاقتصادي ما لم يرفع عنه بالكامل، كي يبقى يتحكم بالشعب المستنزف بفعل هذا الحصار، ويتاجر بمأساه وعذابه.

على صعيد آخر، أدخلت السلطات اعتباراً من أول السنة الجارية، وعلى مرحلتين، زيادة جديدة على سعر الحصة (من ١٠٥ الى ٢٥٠ ديناراً) نتيج لها الاستحواذ على أكثر من ملياري دينار إضافيين شهرياً من المواطنين. فيما كشف الأمين العام للأمم المتحدة عن عدم توزيع النظام كميات كبيرة من الأدوية والمعدات الطبية، ومن الأجهزة والمعدات الخاصة بتأمين مياه الشرب وإعادة تأهيل شبكات الصرف الصحي، إضافة الى تجهيزات خاصة بالمدارس، وهو ما تم توريده جميعاً في إطار القرار ٩٨٦.

وفي موازاة ذلك جهدت الولايات المتحدة لعرقلة تنفيذ مراحل تطبيق القرار ٩٨٦ المختلفة، عن طريق المماطلة في تصديق العقود التجارية، والتعمد في تأخير وصول المواد المتعاقد على توريدها الى العراق، وغير ذلك. ونتيجة لهذا لم تتخط نسبة تنفيذ المراحل الخمس الأولى في تطبيق القرار ٥٠ - ٩٠ في المئة.

لقد أكد حزبنا تكراراً أنه حتى لو تم تطبيق القرار ٩٨٦ بالصورة المثلى، فإنه ليس ولا يمكن أن يكون بديلاً لرفع الحصار الاقتصادي عن الشعب تماماً. وهذا يبقى، الى جانب إدانة وتشديد العقوبات السياسية والدبلوماسية والعسكرية المفروضة على النظام، والعمل على تفعيل القرار ٦٨٨ الخاص بحقوق الإنسان في العراق، مهمة نضالية أساسية.

وعلى هذا الطريق طالب حزبنا أيضاً ويطالب بإلغاء تجميد الأرصدة العراقية في الخارج، للإفادة منها - تحت إشراف الأمم المتحدة - في تخفيف معاناة الشعب الغذائية والدوائية، وفي تحريك الدورة الاقتصادية في البلاد. وطالب أيضاً بإعادة النظر في النسبة العالية جداً (٣٠ في المئة) من عائدات النفط العراقي المصدر، المخصصة لتعويض المتضررين من الغزو الصدامي للكويت.

٣- تدهور واقع المجتمع وتفاقم مشكلاته

انجلت سياسة النظام وإجراءاته في الميدان الاقتصادي، وعموم نهجه الرامي الى إدامة الحكم الدكتاتوري، الى جانب عواقب الحصار الاقتصادي، عن تغييرات سلبية في واقع المجتمع، وتشويهات في بنيته وحياته، وتفكك في النسيج الاجتماعي والعائلي، وتصعد لنظام القيم الاجتماعية والأخلاقية، وانتعاش للروابط التقليدية والولاء القبلي.

والى جانب تآكل ما تبقى من الفئات الوسطى، استمر التدهور في أوضاع الطبقة العاملة، واشتد استغلالها في ظل تعطيل قوانين العمل وتخريب الضوابط والرقابة على أرباب العمل، وبضمنهم المؤسسات والمنشآت الحكومية. وتسرب عشرات الآلاف من

منتسبها الى مشاريع هامشية غير منتجة بفعل التوقف الكلي أو الجزئي لآلاف المشاريع الاقتصادية. كما تدهورت أوضاع الكادحين الآخرين وعموم ذوي الدخل المحدود من الموظفين والمستخدمين وغيرهم.

وفي مقابل ذلك تنامت فئة من أعوان النظام الذين تجري رعايتهم وتسمينهم ومنحهم الامتيازات الكبيرة، بهدف إحكام ربط مصائيرهم بمصيره.

واحتلت المرأة بشكل خاص موضع الصدارة بين ضحايا هذه التطورات بمجملها، حيث أصبحت هدفا لاضطهاد واستغلال مركبين، وهي تضطر الى إعالة أبنائها، وتلجأ من أجل ذلك في أحيان كثيرة الى ممارسة أعمال شاقة، وماسة بكرامتها كإنسان وكمرأة. كما واجهت وتواجه العنف الاجتماعي ومختلف مظاهر الفساد والإفساد.

وتعرض المثقفون الى المزيد من الاضطهاد والقمع والتشريد. وأدى ذلك بجانب الكبت والإفقار المنظمين للثقافة، الى تردي الحياة الثقافية والروحية الى أبعد الحدود، وازدياد هجرة المثقفين، كتابا وصحفيين وغيرهم، الى الخارج.

ومن ناحية أخرى، وفضلا عما جرت الإشارة إليه من اتساع نطاق البطالة السافرة والمقلعة وشمولها ملايين المواطنين، أدى الركود الاقتصادي والإفقار المتواصل الى المزيد من انتشار الفاقة والبؤس في صفوف المجتمع.

واقترن ذلك بتدهور شديد في الأوضاع الصحية وأوضاع التعليم، مما أفضى الى انبعاث حتى البعض من الأمراض الخطيرة التي سبق القضاء عليها، والى عودة الأمية التي كان قد أعلن في أواخر السبعينات عن تصفيتها، الى الظهور والانتشار، كما تفاقم الأضرار التي تلحق بالبيئة، واشتد تلوثها - هواء وماء وتربة، بفعل الإجراءات المستهترّة من جانب السلطة، وبضمنها تجفيف الأهوار، ونتيجة لإهمالها المريع ولامبالايتها البالغة إزاء التدهور الشديد في عموم الوضع البيئي في البلاد.

واضطر تقاوم البؤس أعدادا كبيرة جدا من المواطنين الى بيع آخر مقتنياتهم وحاجياتهم الضرورية، وحتى الأطراف والأعضاء الجسدية أحيانا. كما أدى اتساع نطاق التسرب من المدارس والمعاهد والجامعات، وانتشار عمالة الأطفال، والتسول، والدعارة، وتنامي الاستغلال متعدد الأشكال للأطفال والأحداث من الجنسين، وسقوط الكثيرين منهم في هاوية الفساد والجنوح والجريمة.

وفي هذه الأجواء أيضا انتشرت الجريمة بمختلف أشكالها، وتنامت الجريمة المنظمة خاصة، التي تحولت الى ظاهرة مقيمة، تجسدها قبل كل شيء سرقة ونهب ممتلكات الدولة

ومؤسساتها وثروات الشعب وخيرات البلاد، وتهريب الآثار والمعادن وغيرها الى الخارج، من جانب مافيات العائلة الحاكمة وبطانتها. كما تتجلى في ابتزاز الناس ومساومتهم على أمنهم وكراماتهم وأعراضهم وحتى أرواحهم، من طرف كبار المسؤولين والعصابات المرتبطة بهم وبالأجهزة الأمنية. والى جانب ذلك أصبحت ظاهرة الرشوة والفساد الإداري سمة ملازمة لوجود أجهزة الدولة ومؤسساتها، ومسممة لحياة المجتمع كله.

واستفحلت أزمة السكن بصورة لا سابق لها، وشهد العراق لأول مرة منذ عقود طويلة طرد أعداد متزايدة من العائلات من مساكنها المملوكة للدولة، والتي يجري من ثم بيعها في المزادات العلنية (للأعوان أيضا وبأثمان بخسة نسبيا) بدعوى "تحقيق وفورات لخزينة الدولة" أو من منازلها المستأجرة التي يرفع مالكو العقارات إيجاراتها في حالات غير قليلة، فتعجز العائلات عن الدفع!

وشهدت أوضاع عموم المواطنين الصحية والنفسية والحياتية مزيدا من التدهور في السنتين الماضيتين بفعل اشتداد أزمة الكهرباء والماء، لاسيما في موسم الصيف، وهو ما يتحمل الحكم جزءا أساسيا من مسؤوليته. ويظهر ذلك بوضوح أكبر في الصيف الحالي، ارتباطا بالشحة الاستثنائية للمياه هذه السنة.

على صعيد آخر، ونتيجة لاستمرار أجواء الإرهاب وتفاقمها والاشتداد المتواصل للضائقة المعيشية والمعاناة الحياتية، استمرت في الفترة الماضية هجرة أبناء الشعب الواسعة الى الخارج، خاصة من جانب منتسبي فئات الأكاديميين والخريجين والفنيين. الأمر الذي زاد من استنزاف قدرات شعبنا الفكرية والعلمية والتكنولوجية، وقدم دليلا إضافيا على قتامة الغد الذي ينتظر بلادنا، في حال بقاء الدكتاتور وزمرته متسلطين عليها.

لقد أمعن الحكام الدكتاتوريون في تجاهل معاناة الجماهير الشعبية، وفاقموا هذه المعاناة بإصرارهم على نهجهم وسياساتهم المعروفة. ووضع ذلك كله البلاد في مستهل طور جديد من الاحتقان الاجتماعي والسياسي، وأدى الى اشتداد الأزمة الشاملة للنظام نفسه.

ب- تفاقم أزمة النظام

لم تكن سياسات النظام في الميادين المختلفة السبب في نشوء واشتداد الأزمة العامة في البلاد فحسب، بل كذلك في تنامي وتفاقم الأزمة متعددة الأوجه للنظام نفسه، والتي تعود بدورها فتعمق أزمة البلاد في كل حين.

وتتجلى أزمة النظام في ازدياد تمرکز السلطة بيد مجموعة متضائلة من العائلة الحاكمة، واستمرار تنامي الصراعات بين أطرافها والتناقضات داخل الحكم عموماً. كما تتجلى في التآكل المتواصل لقاعدة النظام الاجتماعية، وهو ما يسعى رؤوسه لوقفه من جانب، ولترميم القاعدة ذاتها من جانب آخر. ومن أجل ذلك يمنحون السهبات والمكافآت المالية والامتيازات المتنوعة والتسهيلات الاقتصادية والإدارية إلى الفئات التي تتكون منها قاعدتهم، وبضمنها كبار منتسبي أجهزتهم ومؤسساتهم الحزبية والأمنية والعسكرية.

وفي هذا السياق يدفع النظام، مثلاً، مكافآت ثابتة في ١٣ مناسبة سنوياً إلى أعضاء "اتحاد الصداميين" و"رابطة أصدقاء صدام" الذين يحملون أوسمته ونياشينه. وهي تتراوح في مجموعها بين ربع مليون، ومليون ونصف المليون دينار.

ويعكس هذا الواقع، بحد ذاته، المدى الذي بلغته العزلة الداخلية للنظام، وتعمق قطيعة الشعب معه، واتساع الرفض الجماهيري لنهجه الاستبدادي الدموي. وهو ما تكمله عزلة الشديدة على الصعيدين العربي - الإقليمي والدولي.

وهناك أيضاً التردّي المتواصل لأحوال أجهزة النظام، لاسيما الحزبية، التي تفقد أكثر وأكثر القدرة والكفاءة والأهلية، وتتداعى معنويات منتسبيها وبضمنهم المسؤولون فيها، وتعجز حتى جهود رأس النظام شخصياً (الذي انخرط في لقاءات يومية مباشرة مع هؤلاء المسؤولين اعتباراً من ٩ حزيران ١٩٩٩) عن وقف هذه العملية أو تعويض ما يتآكل خلالها. وينعكس هذا بوضوح في استمرار انسلاخ أعداد متزايدة من أعضاء الحزب، كما من أبناء القوات المسلحة، وابتعادهم عن النظام وأجهزته - وهي ظاهرة تستحق المزيد من الاهتمام.

لكن تنامي استعداد الجماهير للكفاح وتزايد انخراطها في أعمال المقاومة المباشرة، هو أكثر ما يقلق رؤوس النظام، ويدفعهم إلى اتخاذ شتى التدابير المضادة، واعتماد التوجهات الرامية إلى تطويق أزمة نظامهم وتصريفها.

١- تصاعد المقاومة الجماهيرية

دفع الإرهاب الدموي المنفلت في الداخل، ونهج المناورة والمغامرة الخطير في اتجاه الخارج، إلى جانب الإجراءات التعسفية في الميدان الاقتصادي وما نجم عنها من تزايد المعاناة المعاشية للجماهير، دفع ويدفع المزيد من أبناء الشعب الساخطين إلى التعبير عن رفضهم وتحديهم للنظام، وإلى مد يد العون إلى من ينفذون العمليات الكفاحية ضد أزمته

ومواقعه، وحتى المشاركة المباشرة فيها.

وشهدت سنة ١٩٩٨ تنامي المقاومة الجماهيرية في أموار وأرياف المحافظات الجنوبية: العمارة والناصرية والبصرة، التي حظيت بنصيب استثنائي من البطش والتكيل والتقتيل والسبي على يد الحكام. كما شهدت تزايد العمليات الجريئة ضد رموز السلطة وجلالوتها، وبضمنها محاولة اغتيال عزت الدوري في كربلاء.

غير أن الواقع الجديد هذا لم يبرز بوضوح إلا في الأشهر المنقضية من السنة الجارية، غداة العدوان الأمريكي - البريطاني في كانون الأول الماضي، ثم خصوصا إثر جريمة اغتيال السيد محمد صادق الصدر بعد شهرين من ذلك.

وجاء التفجير الجزئي لخزين السخط الجماهيري العارم، ردا على إجراءات النظام الهستيرية التي ازدادت قساوتها وعنفها إثر الضربات العسكرية، التي تعرضت لها مواقع النظام وبعض مفاصله في عمليات "تغلب الصحراء"، ثم في غارات الاستنزاف منذ بداية العام، وفي أعقاب ازدياد التدهور في علاقات النظام العربية والدولية، بفعل السلوك العدواني والمتعطرس للزمرة الحاكمة إزاء بعض الدول العربية والمجتمع الدولي في الأسابيع التالية. يضاف الى ذلك اشتداد عزلته الداخلية، الأمر الذي ظهر واضحا تماما في ردود فعل الشارع على جريمة الاغتيال سابقة الذكر.

وأدى هذا كله، من جانب، الى هزة في معنويات أعوان السلطة وأجهزتها الحكومية والحزبية وتشكيلاتها المسلحة، ومن جانب آخر الى مزيد من تحفيز روح الكفاح لدى أبناء الشعب، خاصة جماهير الشبيبة والطلبة، ورفع استعدادهم لتحدي النظام. وهو ما اتخذ ملامح نوعية جديدة عكستها أحداث مدينة الثورة وغيرها في شباط، والمواجهات في الكوت والعمارة وهبة البصرة في آذار، والصدمات الدامية التي شهدتها مدينة الثورة موة أخرى في أواسط نيسان، وضرب مواقع السلطة في الكوت أواخر أيار، والهجوم على المواقع المماثلة والتصدي لعصابات النظام في الرميثة في حزيران وتموز، وفي الكثير من العمليات الأخرى التي جرت خلال ذلك ضد أزام السلطة في كربلاء والنجف ومدن الفرات الأوسط الأخرى كالديوانية والساوة والحمزة، والعديد من التحركات المتحدية في مدينة الفلوجة وفي أحياء الشعب والأمين والأعظمية والشعلة والعامل ببغداد.

وتجلى الجديد خصوصا في:

١- شمول المقاومة الشعبية أنحاء واسعة من الوطن.

٢- استمرارها على امتداد أشهر متتالية وحتى الآن.

٣- وضوح طابعها الوطني العام المعادي للدكتاتورية.

٤- التصدع في جدار الخوف من وحشية السلطة.

٥- تحسن مستوى التنسيق والتنظيم في إعداد وتنفيذ الفعاليات الجماهيرية، وهو ما ظهر خصوصا في هبة البصرة. ولعل هذا بالذات ما أثار أشد مخاوف الزمرة الحاكمة، واستثار ردها الدموي ضد المنتفضين وعائلاتهم، وترويع جماهير البصريين بصورة عامة.

ومما له دلالاته في هذا السياق أن نضال الجماهير المتصاعد يجتذب أعدادا متزايدة من العسكريين الناقمين على الحكم والحكام، بل وحتى البعض من منتسبي حزب السلطة الذين يزدادون إدراكا لحقيقة أن نهاية النظام تقترب، من جانب، ولا يرتضون لأنفسهم من جانب آخر، أن يبقوا سباطا بيد الدكتاتور يجلد بها جماهير الشعب ويسحق إرادتها. على أنه ينبغي القول إن النظام، وهو يفقد الوسائل القادرة على حمايته من الهجمات المسلحة الخارجية وغارات الاستنزاف المتواصلة، مازال يتوفر على ترسانة عسكرية، يعول عليها في مواجهة الجماهير وفي قمع أي تحرك شعبي أو مقاومة مسلحة. ومع هذا فإن مسار الأحداث والتطورات لا يصب في مصلحة النظام، الذي تزداد التناقضات داخله، ويعجز عن إيجاد مخرج من المحنة التي تسحق الشعب والوطن. ومن الجلي أن آفاقا أرحب تنفتح لمحاصرته وتشديد الخناق عليه وإسقاطه، خاصة إذا ما وجدت قوى المعارضة الوطنية نشاطها وارتقت به، وعززت علاقاتها مع جماهير الشعب والجيش الناقمة على النظام.

٢- محاولات تطويق الأزمة

* تشديد وتائر الإرهاب

أطلقت سلطات النظام في إطار سعيها لمواجهة السخط المتنامي في أوساط جماهير الشعب، الحملة الوحشية التي عرفت باسم "تنظيف السجون"، وأجهزت فيها اعتبارا من خريف ١٩٩٧ على المئات والمئات من أبناء الشعب المسجونين لأسباب سياسية، وفي أغلب الحالات بتهمة المشاركة في انتفاضة آذار ١٩٩١ المجيدة. وفي الوقت نفسه واصلت حملات إعدام المعارضين أو المشكوك في ولائهم من المواطنين العسكريين والمدنيين، ومن رافضي الخدمة العسكرية والهاربين من الجيش.

كذلك لم يتورع الحكام، والقلق من تصاعد النقمة الشعبية يشتد في صفوفهم، عن

مباشرة حملة تصفيات جسدية لرجال الدين الذين يعارضون النظام بصورة أو بأخرى، أو يرفضون وضع أنفسهم في خدمته، وهي الحملة التي بلغت ذروتها فسي اغتيال السيد الصدر في شباط المنصرم.

واستمر أثناء ذلك تصعيد العنف والبطش بسائر أشكالهما الأخرى المعهودة، في ظل حالة الطوارئ التي بقيت مفروضة عملياً طيلة السنتين الفائتتين، وفي أجواء الاستنفار الشامل في صفوف الأجهزة الأمنية والحزبية والعسكرية. وجرى تطويق المدن بالقوات المسلحة باسم تطبيق الخطط الأمنية، وحوصرت المناطق والمحتشدات السكانية وجرت مdahمة البيوت وتحريها بدعوى البحث عن العسكريين الهاربين، وكثفت عمليات استدعاء عوائل المعارضين والمقيمين في الخارج وتهديدها.

ورافقت ذلك، خاصة في أجواء تصعيد المجابهات مع الأمم المتحدة والولايات المتحدة، التي كانت السلطة توظفها في إبعاد الأنظار عن مشكلاتها الداخلية واشتداد أزمة حكمها، حملات "تعبوية" لإجبار الناس بالجملة على المشاركة في التدريبات العسكرية، بغية إرهابهم وإخضاعهم للرقابة الدائمة وإضعاف معنوياتهم واستعدادهم للكفاح ضد الدكتاتورية.

وفي الوقت ذاته اتسعت عمليات تهجير المواطنين الكرد والتركمان من كركوك بشكل خاص، ومن خانقين وبعض المدن الأخرى في محافظات ديالى والموصل وأربيل، وذلك - بين غايات أخرى - للتخلص ممن يمكن أن يساهموا في أي انتفاضة جديدة ضد النظام.

وفي أواخر ١٩٩٨ أعلنت السلطة تقسيم البلاد الى أربع مناطق أمنية - عسكرية، وتنصيب حاكم عسكري مطلق الصلاحية في كل منها. وإمعانا في تشديد الإرهاب لجأت في الأشهر الأخيرة الى احتجاز عوائل من تتهمهم بالمشاركة فسي عمليات المقاومة، ومصادرة ممتلكاتها، وهدم بيوتها، تماماً كما كانت تفعل ضد أبناء إقليم كردستان في الثمانينات.

ويأتي إيغال الزمرة الحاكمة في تصعيد القمع، في جانب منه، نتيجة للفشل الذريع الذي حصده ماكنتها الدعائية، في جهدها الهائل لتضليل أبناء الشعب وتبرير سياسات النظام المدمرة، والعاجزة عن الخروج بالشعب والبلاد من الهاوية التي دفع بهما الى قرارها.

* المساعي الرامية الى فك العزلة

بذل النظام ويبدل جهودا متواصلة متعددة الأشكال، لتخفيف وكسر العزلة الشديدة التي يعانيها في الداخل والخارج.

فعلى الصعيد الداخلي لم تكف السلطات يوما أو تخفف من حملاتها التضليلية الكثيفة ومناوراتها السياسية الخبيثة، للرامية الى إشاعة الأوهام في صفوف جماهير الشعب وحتى في أوساط الرأي العام العربي. وليس صدفة أنها تعود اليوم، وآفاق نظامها تتلبّد أكثر وأكثر، الى الحديث على لسان أعوانها هنا وهناك عن "الانفتاح" وإطلاق "التعددية" في البلاد و"الحوار" مع بعض الأطراف السياسية المعارضة، وتدعو عبر بعض المنابر الإعلامية العربية الى إعطائها مهلة سنة لا أكثر، كي تنقل العراق من دكتاتورية صدام حسين الى "ديمقراطية" صدام حسين!

والى جانب ذلك واصلت فعاليات الدعاية والخداع المختلفة، من قبيل "الحملة الإيمانية" المناقفة التي جرى إطلاقها بهدف تسخير الدين لخدمة النظام.

وعلى الصعيد الخارجي لم تتوقف السلطات عن المتاجرة بآلام أبناء الشعب ووفيات الأطفال، وغيرها من مظاهر الوضع المأساوي، الذي يتحمل النظام جزءا أساسيا من مسؤوليته، وذلك بهدف كسب التعاطف العربي والدولي مع النظام ورأسه، وإعادة تأهيلهما وفك عزلتهما.

ومن أجل ذلك أيضا قامت بمساع متواصلة وحثيثة للإفادة من علاقاتها مع روسيا وفرنسا والصين في استصدار قرار من مجلس الأمن، يلغي العقوبات الدولية ويعيد - بين أمور أخرى - تأهيل النظام وتطبيع العلاقات معه.

* المؤسسة العشائرية ومحاولات إحيائها

عمل النظام، في مواجهة تردي أوضاع الأجهزة الحزبية والحكومية وتزايد عجزها عن النهوض بواجباتها، على بعث المؤسسة العشائرية والإفادة منها في توسيع قاعدته الاجتماعية، واستخدامها في تحقيق مهمات دعائية وأمنية وسياسية.

غير أن هناك من الدلائل ما يشير الى تعثر هذه الجهود، ودخول سياسة إحياء المؤسسة المذكورة في مأزق. ويبدو الآن أن النظام بات يضيق ذرعا بها. فالتناقضات التي أثارها سياسة الإحياء ذاتها عطلت قدرة المؤسسة العشائرية على تأدية الوظائف المرتجاة منها، بل وجعلتها تشكل في أحيان غير قليلة، مصدر تحد وتهديد للنظام. وقد

شهدت مناطق مختلفة من الوطن وتشهد بالفعل صراعات مسلحة تخوضها بعض العشائر ضد أجهزة السلطة، رغم كل الجهود المبذولة لوضع حد لها.

٢- على الصعيد الخارجي

طبع التأزم والاستعصاء العلاقة بين النظام الدكتاتوري من جهة، والأمم المتحدة والولايات المتحدة من جهة ثانية، في السنتين الماضيتين أيضا. وجاء ذلك، في الأساس، نتيجة لتشبث كل من الجانبين بمواقفه السابقة المعروفة من قضية العقوبات، وفي مقدمتها الاقتصادية.

فالنظام بقي يصر على استصدار قرار من مجلس الأمن برفع الحصار الاقتصادي عنه، بما يمكنه من الاستحواذ مجددا على العائدات النفطية والتحكم في إنفاقها، مدعيا أنه نفذ قرارات المجلس ذات الصلة بصورة كاملة.

ومجلس الأمن الذي تتمتع الولايات المتحدة بنفوذ غالب فيه، ظل يصر من جانبه على عدم الخوض في موضوع رفع الحصار الاقتصادي، قبل التأكد تماما من تدمير النظام أسلحته المحظورة. فالولايات المتحدة التي تظهر اليوم، بتأييدها المشروع البريطاني - الهولندي المعروض على مجلس الأمن، استعدادا للموافقة على تجميد الحصار الاقتصادي مؤقتا، رفضت حتى الآن بتعنت كل حديث عن إنهائه. كما استغلت موقعها في أجهزة الأمم المتحدة، لعرقلة تنفيذ ما يترتب على المنظمة العالمية من التزامات مقابلة إزاء العراق.

وظلت الولايات المتحدة تتلقف الخطوات التصعيدية وافتعال المجابهات من جانب النظام، وتطلق التصريحات المتشددة وتهدد بفرض عقوبات جديدة على النظام وما إلى ذلك. ثم تستثمر الإمعان المقابل في التصعيد، للتلويح بالهراوة العسكرية وحشد الأساطيل والقوات الضاربة لإرهاب المنطقة برمتها.

وفي حين بقيت الأطراف كافة في الساحتين الدولية والإقليمية، تجمع على وجوب تنفيذ النظام جميع القرارات الدولية ذات الصلة، فإن اختلافات نشأت حول سبل التعامل معه لإجباره على ذلك.

وبعكس الولايات المتحدة، ومعها بريطانيا، دعت فرنسا وروسيا والصين، بتأثير من مصالحها الاقتصادية، إلى استخدام الحوار السياسي للوصول إلى ذلك، وحثت حتى على

تخفيف الحصار المفروض على النظام، كمكافأة على تنفيذ الجزئي لقرار تدمير أسلحته المحظورة.

وقد وضع التصعيد الصدامي ~ الأمريكي المتبادل شعبنا وبلادنا، أكثر من مرة، في خضم ظروف عصيبة ومخاطر جسيمة. ولعبت الضغوط الدولية والعربية، خلال ذلك، دورها في كبح المجابهات وإطفائها. إلا أنها أخفقت في ذلك في كانون الأول ١٩٩٨، عندما رفضت الزمرة الحاكمة التراجع، وفتحت بذلك عن سبق إصرار الأبواب أمام قوى العدوان المتأهبة. وبدأ واضحا أنها (الزمرة) كانت تضع في حسابها أن يدفع الشعب والبلاد الثمن الباهظ للعدوان، وأن تخرج هي وحكمها منه ومن تداعياته أقوى وأقدر على مواجهة المخاطر الداخلية والخارجية المحيطة بها.

لكن التطورات اللاحقة دلت على خطأ حساباتها تلك، وعلى قصر نظر سياسي جعلها توفر أيضا الذرائع للتحالف الأمريكي - البريطاني، كي يطلق بعيد ذلك سلسلة غارات الاستنزاف في مناطق الحظر، التي لا تكاد تجد نهاية منذ بداية السنة الحالية. وفيما بينت ردود الفعل الدولية والعربية، أن هناك رفضا عاما تقريبا للخيار العسكري والعريضة الأمريكية، ولازدواجية سياسة واشنطن ومحاولاتها الانفراد والهيمنة، فإنها اتسمت في الآن نفسه وأكثر من أي وقت مضى، بالتمييز في شعاراتها بين الشعب العراقي والنظام الدكتاتوري. وعكست الفعاليات الاحتجاجية في الشارع العربي الى حد كبير، مشاعر التضامن مع العراق كيانا وشعبا وسيادة وطنية، لا مع الحكام المتسلطين عليه، كما عبرت عن رغبة صادقة في تخليص الشعب العراقي من الحصار الاقتصادي، وفي الحفاظ على ما تبقى له من ثروات وبنى تحتية، وعن التعاطف مع تطلعه للخلاص من الدكتاتورية.

ولا ينبغي هذا بالطبع أن أوساطا معينة ظلت تعاني حالة تداخل وتشوش، وأن البعض عبر عن تأييده لصدام حسين دون اكرات باستبداده ودمويته وجرائمه بحق شعبنا. ومن ناحية أخرى فإن بعض الأوساط التي تعاطفت مع شعبنا، وعبرت عن الاستعداد لمزيد العون إليه، وحملت النظام مسؤولية معاناته، لم تمنح واقع مصادرة الديمقراطية والانتهاك البشع لحقوق الإنسان من قبل النظام، الاهتمام الكافي، ولم تتدد به. لكن الحكام أحبطوا في الجوهر، بتصرفاتهم الرعناء وبعدوانيتهم حتى إزاء بعض من تعاطف معهم، أحبطوا بأنفسهم آمالهم في الإقادة من الاحتجاجات على العدوان في تعزيز مواقعهم وفك عزلتهم العربية والدولية.

ويتعرض نظامهم اليوم الى الانتقاد الظاهر والمستتر من جانب دول عربية عديدة، تحمله مسؤولية ما حل بالشعب العراقي، وتعتبر بقاءه مصدر قلق وعدم استقرار لها والمنطقة. لذلك تؤيد بصورة أو بأخرى تغييره، رغم أنها لا تعلن عن ذلك لاعتبارات عديدة، وتتباين في نظرتها الى طرق الخلاص منه، وفي موقفها من التعامل مع المعارضة العراقية وكيفيته ومداه.

وقد أدى عموم سلوك النظام، في النهاية، الى إدامة حالة الاستعصاء في علاقته مع الأمم المتحدة، وهي الحالة التي يبقى شعبنا لا غير المتضرر الرئيسي منها. ويحدث هذا فيما تصاغ مشاريع متضاربة من جانب قوى دولية فاعلة متضادة، لتجاوز الجمود في قضايا التفتيش عن الأسلحة، ومسألة تخفيف الحصار، ومعاناة شعبنا وغيرها. وأيضا في الوقت الذي يستمر فيه التصعيد في الموقف الأمريكي - البريطاني تجاه النظام، والانفتاح إزاء خطط التغيير في العراق، التي ظهرت في الآونة الأخيرة إشارات الى تقبل بعض دول الجوار لها.

وتجدر الإشارة في هذا الشأن الى أن علاقات النظام مع كل من إيران وتركيا تدهورت في الفترة الأخيرة، وبدأت تظهر إشارات حذرة الى إمكان تأييد الدولتين التغيير في العراق.

وتختلط المخاوف التي تثيرها التطورات المذكورة جميعا في نفوس الزمرة الحاكمة، بمخاوفها الأكبر من أن تكون "حرب البلقان" في ناحية منها تمرينا للقيام بهجوم أوسع ضد حكمها، وهو ما لا تعدم الدلائل التي تبرره.

الموقف الأمريكي

حصدت سياسة الاحتواء التي اعتمدتها الولايات المتحدة رسميا إزاء العراق منذ عام ١٩٩١ (وسميت "الاحتواء المزدوج" بسبب شمولها إيران كذلك) مزيدا من الرفض والتنديد في الفترة الماضية. فقد أدت في حصيلتيها السياسية والاقتصادية الى إيقال كاهل شعبنا وتشديد معاناته، وأتاحت للنظام - رغم ضعفه واهتزازه - البقاء بالاعتماد على أكثر أساليب الإرهاب وحشية ضد الشعب وقواه الوطنية.

وسلط تواتر المجابهات العسكرية مع النظام في هذه الفترة، مزيدا من الضوء على السياسة الأمريكية عموما إزاء العراق، وكشف طابعها المتناقض. وتزايد الانتقاد خلال ذلك لتعامل الإدارة الأمريكية الانتقائي والازدواجي مع الشأن العراقي وحقوق ومصالح

الشعب العراقي، خاصة ما يعانيه جراء الحصار الاقتصادي المفروض عليه. وتصاعدت في أعقاب ذلك أصوات داخل الولايات المتحدة، تدعو لإعادة النظر في سياسة الاحتواء، باتجاه التشديد مع النظام واستخدام القوة لإسقاطه. وعبر عدد من المسؤولين الأمريكيين الكبار علنا عن رغبة الإدارة في واشنطن في رؤية صدام حسين يرحل عن السلطة، واستعدادها للتعامل مع حكومة تأتي بدلا عنه في بغداد.

وفي تشرين الأول ١٩٩٨ أجاز الكونغرس "قانون تحرير العراق"، الذي وقع الرئيس كلينتون عليه في آخر الشهر نفسه. واعتبر ذلك عموما بداية انتقال السياسة الأمريكية تجاه النظام من مرحلة الاحتواء والإضعاف، الى مرحلة المواجهة في اتجاه التقويض والإسقاط.

ولا يمكن بالطبع عزل العدوان العسكري في كانون الأول الماضي عن الخطة الاستراتيجية الجديدة للولايات المتحدة، التي أعلن أنها ترمي الى إضعاف النظام وتقويض مرتكزاته لتسهيل مهمة إطاحته. كما لا يمكن النظر بمعزل عن هذه الخطة الى غارات الاستنزاف، التي تشنها الطائرات الأمريكية والبريطانية في مناطق الحظر الجوي بصورة شبه يومية منذ مطلع العام الجاري، والتي تستهدف عمليا إدامة الضغط العسكري على النظام، والإبقاء على خيار القوة العسكرية قائما في التعامل معه، كي يمكن استخدامه ضمن أي خطة تستهدف المزيد من إضعافه، وإطاحته، وفرض البديل الملائم للولايات المتحدة.

وفي إطار الخطة أيضا صعدت الولايات المتحدة وحليفتها بريطانيا في الأشهر الماضية حملاتها السياسية والإعلامية على النظام. وجرى التأكيد على أعلى المستويات في الدولتين أن الحصار الاقتصادي لن يرفع مادام صدام حسين موجودا في السلطة، مع الاستعداد لتطوير برنامج المساعدات الإنسانية وفق القرار ٩٨٦ وخارجه.

غير أن الإفصاح عن حيثيات الانتقال في السياسة الأمريكية، والإعلان عن مساعدات بقيمة ٩٧ مليون دولار تقدم الى "المعارضة العراقية"، ثم نشر أسماء عدد من الأحزاب المعارضة التي يفترض أن تتسلم المساعدات - كل هذا ألقى ظللا من الشك على حقيقة الأهداف الآنية للسياسة الأمريكية في العراق. فليس في ذلك ما يشير الى تغير في جوهر هذه السياسة، الهادفة الى توفير مناخ مناسب للإتيان ببديل يخدم المصالح الأمريكية. وهو ما يتم عبر تغيير فوق، يضمن السيطرة على الوضع، وتأمين المصالح المذكورة ومجمل استراتيجية الهيمنة الأمريكية على العراق والمنطقة ومصادر اقتصادها.

وفي سياق التهيئة لذلك يجري العمل على احتواء من يمكن من قوى المعارضة، للإفادة منها كغطاء سياسي إعلامي، عند إحداث أي تغيير بمعزل عن إرادة الشعب العراقي. كما يجري بذل الجهود لاجتذاب دول الجوار وعموم المنطقة، وحشد تأييدها للاستراتيجية الأمريكية إزاء العراق.

٣ - المعارضة العراقية

استأثرت مسألة المعارضة وتنشيط فعاليتها ضد النظام الدكتاتوري باهتمام كبير من لدن الحزب.

فحالة التشتت التي تعانيها القوى المعارضة، وغياب الصيغ الفعالة لتنسيق نشاطاتها المناهضة للدكتاتورية، بما يرتقي بها ويطورها، شكلا ويشكلان مصدر قوة أساسيا للنظام، وعاملا رئيسيا في بقاءه، وفي استمرار وتفاقم المحنة التي تعصف بالشعب وبالبلاد.

والمؤسف والمحزن أن نداءات أبناء الشعب لتحقيق التعاون بين أطراف المعارضة، لم تجد حتى الآن التجاوب الضروري من هذه الأطراف، لاسيما الفاعلة منها.

وقد بادر حزبنا في أوقات المجابهات بين النظام والأمم المتحدة، والتطورات المرتبطة بتنامي المواجهات بين الجماهير والسلطة وغيرها من المناسبات، إلى الإسهام في تحريك أجواء المعارضة. إلا أن ما تمخض عنه ذلك من نتائج في شأن التعامل المشترك مع التطورات المذكورة، كان متواضعا، كما أنه لم يتطور في ما بعد إلى اتفاق للتعاون والتنسيق.

وكان حزبنا قد أطلق في هذا السياق، مشروعه الوطني الديمقراطي الذي أقره المؤتمر الوطني السادس، والذي حظي بتفهم وقبول واسعين من لدن أغلبية ممثلي أحزاب المعارضة وقواها، والعديد من الشخصيات المستقلة. إلا أنه اصطدم بالمعوقات ذاتها التي حالت دون التوصل إلى اتفاق مشترك.

وتوجهت مبادرات الحزب كذلك نحو تعزيز وتنسيق مواقف قوى التيار الديمقراطي، الذي يشكل اليسار الديمقراطي جزءا أساسيا منه، والذي يضم في صفوفه اتجاهات فكرية متعددة، يجمعها قاسم مشترك في العمل على إقامة للنظام الديمقراطي سياسيا واجتماعيا، والذي يحترم حقوق الإنسان، ويسعى إلى بناء دولة القانون والمؤسسات الدستورية. كما توجهت نحو الأحزاب ذات المواقف القريبة من تصورات حزبنا حول أشكال الكفاح لإسقاط

الدكتاتورية وإقامة البديل الديمقراطي، وحقت نتائج إيجابية، ولكن متواضعة أيضاً. وتوجه حزبنا في مبادراته أيضاً، نحو بعض القوى الإسلامية، وهو ما تكفل بزيارة وفد قيادي من الحزب إلى طهران في شباط الماضي، والاجتماع بقيادة هذه القوى وبحث ومعالجة حالة الفتور التي طبعت العلاقات المتبادلة، والمباشرة ببناء جسور الثقة المتبادلة والتفاهم في شأن القضايا المشتركة.

إننا نعتبر ما تحقق في الفترة المنصرمة من لقاءات بين حزبنا والأحزاب الأخرى الفاعلة داخل الوطن، خطوات على الطريق الصحيح، وقد حظيت بارتياح جماهير الشعب. ونرى ضرورة تكثيف الجهود لمواصلتها، وإزالة العقبات أمام عقد لقاء متعدد الأطراف لهذه الأحزاب.

من ناحية أخرى لم يستجب الحزب للدعوات التي تلقاها، شأن أحزاب معارضة أخرى، من بعض الجهات الأجنبية، ورفض المشاركة في لقاءات لندن مع الخارجية البريطانية والسفارة الأمريكية، وغيرها، باعتبارها فعاليات تنطلق من التعويل على العمل الخارجي، ومساع تقوم بها الجهات المذكورة بهدف الإمساك بخيوط المعارضة العراقية وتوجيهها، وإجهاض أي تحرك وطني تقوم به على أساس من الاستقلالية وحفظ المصالح الوطنية.

لقد أكد حزبنا دائماً أن أي عمل يستهدف إسقاط الدكتاتورية وتغيير السلطة، يجب أن يعتمد على قوى شعبنا في الداخل. وهذا لا يعني بالطبع الاستهانة بالعامل الخارجي أو إنكار دوره المتزايد في عالم اليوم، ولا ينفي ضرورة التفاعل الإيجابي مع كل جهد خارجي يدعم نضال شعبنا الوطني الديمقراطي، بل وضرورة العمل على توسيع وحشد هذا الدعم بمختلف أشكاله السياسية والمعنوية.

ورأى حزبنا، من ناحية أخرى، أن ارتهان بعض أطراف المعارضة العراقية للعامل الخارجي، أو ربط نشاطها بالخطط والمشاريع التي تهيأ من قبل هذه الجهة الأجنبية أو تلك، لا يساعد شعبنا في صراعه مع النظام الدكتاتوري، وإنما يسهم في إضعاف صدقية المعارضة العراقية ومواقفها الوطنية واستقلالية قرارها ونشاطها، ويعزلها عن أصدقائها والمتعاطفين معها في الخارج. كما يتسبب في ابتعاد شعبنا عنها، وزعزعة ثقته بها وبوطنيتها.

وبرغم تعقد اللوحة وتداخلها، فقد أفرزت التحركات الأخيرة تيارات مختلفة داخل المعارضة، منها من يعول في تحقيق التغيير على القوى الداخلية، مع الاستفادة من العامل

الخارجي في إطار البديل الوطني. وهذا التيار يتمثل في الأحزاب الموجودة والناشطة داخل الوطن، ومنها من ينشط في الخارج أساساً، ويستمد حضوره من الدعم الخارجي، ويتطلع إليه لإنجاز التغيير المرتجى.

وتسعى واشنطن حالياً إلى دعم التشكيل الذي تكون مؤخراً من المؤتمر الوطني العراقي الموحد وبعض الأطراف الأخرى، ومساعدته في إطار "قانون تحرير العراق" الذي تعلن الإدارة الأمريكية التزامها به، كما تسعى لاجتذاب قوى معارضة أخرى للانخراط في هذا التشكيل. ويندرج هذا التحرك ضمن المساعي الأمريكية الهادفة إلى احتواء المعارضة العراقية الفاعلة، ومنع اتحادها في أطر تتجاوز الرغبات والتوجهات المحددة في واشنطن، وإبعادها عن ساحة النضال الحقيقية.

إن التطورات الأخيرة في الداخل، وتنامي واتساع المعارضة الشعبية للنظام الدكتاتوري، يفرض على حزبنا والأحزاب الوطنية الأخرى السعي الحثيث لتطوير عملها والالتقاء على قاعدة النشاط المشترك، لاسيما ميدانياً، ووفق برنامج سياسي مرحلي يحدد المهام الآتية ومهام الفترة الانتقالية التي تلي إسقاط النظام. وإن الإسراع في إنجاز هذه المهمة الوطنية الملحة، سيساعد في تعبئة الجماهير المناهضة للدكتاتورية، والتي هي القوة القادرة ذات المصلحة الحقيقية في إسقاطها وإقامة البديل الديمقراطي.

٤ - الوضع في كردستان

توقف المؤتمر الوطني السادس بعمق عند الوضع في كردستان، وحدد العوامل الأساسية في استمرار الأزمة الداخلية الناجمة عن الصراع على السلطة بين الحزبين وعن تدخلات القوى الإقليمية والدولية، بالإضافة إلى المساعي التخريبية، للنظام الدكتاتوري وأزمة الديمقراطية. وسجل المؤتمر دعم الشيوعيين العراقيين للمسيرة، والعمل على تطويرها وحمايتها ومعالجة الثغرات التي رافقتها.

وأكد حزبنا أن رفض سبيل السلم والمصالحة الوطنية، وعدم الاعتماد على قوى الشعب المخلصة ذات المصلحة الحقيقية في السلام، سيعرض مكتسبات الشعب والإقليم إلى أشد المخاطر، وفي مقدمتها التدخلات العسكرية السافرة والتأثيرات المتزايدة للدول الإقليمية، وسيؤدي إلى ارتهان القضية الكردستانية للقوى الأجنبية والنظام الدكتاتوري.

وشهدت الفترة منذ المؤتمر السادس تطورات عديدة على الساحة الكردستانية. ورغم

الضغوط التي مورست ضد الحزب إلا أنه بقي ملتزماً بحياده وموقفه الرافض للقتال، والداعي إلى السلام والمصالحة، وإلى حل المسألة عبر الاتصال المباشر والمفاوضات السلمية، والاعتماد على العامل الداخلي مع الاستفادة من العوامل الخارجية لدعم التوجهات الداخلية. وبذل رفاقنا في الحزب الشيوعي الكردستاني - العراق (حشك) خصوصاً، وبالتعاون مع قوى الشعب المخلصة الأخرى من عراقية وكردستانية، جهوداً حثيثة من أجل تحقيق السلم والمصالحة الوطنية في الإقليم. خصوصاً وأن الاقتتال المدمر أدى كذلك إلى إلحاق أضرار جسيمة باقتصاد الإقليم، وفاقم الوضع المعيشي لجماهير الشعب، وخلف تأثيرات اجتماعية ضارة كثيرة، إلى جانب تهديد أمن واستقرار المواطنين، الذين أشاع في أوساطهم نهاية المطاف مشاعر الإحباط واللامبالاة والعزوف عن المشاركة في الحياة السياسية والعامة.

واتسم الوضع في كردستان العراق خلال العام الماضي بالاستقرار والهدوء، وبتحسن نسبي في أوضاع الجماهير، لكنه لم يخل من القلق والخوف على مصير المسيرة السلمية، التي بدأت في شباط ١٩٩٨ بعقد اللقاءات بين قيادتي الحزبين، تحت إشراف الرفيق عزيز محمد، وتواصلت حتى عقد اتفاق واشنطن في أيلول ١٩٩٨.

إن أهم ما أنجز يتمثل في إعلان الحزبين بشكل رسمي وعلمي، نيذهما اللجوء إلى الخيار العسكري والتمسك بالخيار السلمي في حل الخلافات. إلا أن عملية تنفيذ الاتفاق بدأت تتعثر وتتباطأ عند بدء البحث في المسائل الجدية والحيوية فيه، وخاصة موضوع تشكيل الحكومة الانتقالية، ودعوة البرلمان، وتطبيع الأوضاع الأمنية في أربيل والمدن الأخرى. وقد نجم ذلك عن التباين في تفسير كل طرف لنص وروح اتفاقية واشنطن.

ومن الواضح أن هناك جهات داخلية وخارجية لا تريد الإسراع في تطبيق الاتفاقية، خوفاً على مصالحها ومكاسبها التي وفرتها أجواء الاقتتال وحالة الاحرب واللاسلم. وقد أيد حزبنا النقاط الإيجابية في اتفاقية واشنطن، واعتبرها خطوة مهمة على طريق تحقيق السلام وتطبيع الأوضاع وإعادة وحدة الإقليم، وخلق الأرضية الملائمة لمساهمة القوى الكردستانية في النضال الوطني الديمقراطي العراقي، للخلاص من الدكتاتورية وإنهاء مأساة الشعب العراقي عامة.

وأكد حشك من جانبه على ضرورة معالجة النقاط السلبية، ومنه عدم إشراك الأحزاب الكردستانية التي لم تساهم في القتال، في اللجان المعنية بتطبيق بنود الاتفاقية، واقتصارها على الحزبين فقط، إضافة إلى النقطة المتعلقة بحماية أمن الدول الإقليمية. كما

أكد حزبنا أن تطبيق الاتفاقية يحتاج الى نضال جماهيري، وتعبئة القوى والفعاليات السياسية لتحقيق السلام.

وشهدت الأشهر القليلة الماضية عدا تنازليا وتراجعا عن طريق المصالحة الكردستانية، رغم الزخم الإيجابي الذي بدأت به، والخطوات الجيدة التي تم إنجازها بعد إعلان اتفاقية واشنطن بين الحزبين.

والتأم اللقاء الأخير (١٦-٢٤/٦/١٩٩٩) في واشنطن بعد توتر الأجواء بين الحزبين، بأمل أن يشكل خطوة إيجابية على طريق التخفيف من المأزق الذي وصلت إليه عملية المصالحة. إلا أنه لم يحقق الآمال.

إن ترسيخ السلام وتحقيق المصالحة الوطنية وعودة الوحدة الى كردستان، سيكون ضمانا لتحقيق مصالح وأمان شعب كردستان، ورافعة للنضال الوطني الديمقراطي العراقي. وانطلاقا من هذا الفهم عمل حزبنا ولا يزال لتحقيق تقارب الحزبين، وحثهما على تطبيق الاتفاق وتجاوز الحساسيات والصعوبات التي تعرقل عملية المصالحة.

إن بقاء الوضع على حاله دون حل جذري، يجعله محملا بمخاطر التدهور لاحقا، خاصة مع استمرار حالة انعدام الثقة بين قادة الحزبين، والتركيز على البحث عن النواقص والسلبات لعرقلة الخطوات التطبيقية.

كذلك فإن ظاهرة تقسيم الإقليم الى إدارتين، توفر أرضية خصبة للتدخلات الخارجية، لاسيما العسكرية التركية التي تستغل حالة عدم الاستقرار لإبراز دورها ومواصلة تواجدها العسكري شبه الدائم، بغية تحقيق توجهاتها وأهدافها. كما توفر الأرضية للمساعي المحمومة للنظام الدكتاتوري، الرامية الى الإبقاء على حالة التوتر والمجابهة، والإفادة منها في إمرار مخططاته الهادفة للعودة الى كردستان وبسط سيطرته عليها مجددا.

إن الدكتاتورية تسعى بكل طريقة الى إدامة حالة الصراع في كردستان، وتعمل بلا كلل من أجل عرقلة تحقيق المصالحة الكردستانية، وتعد الطبقات المتنوعة لهذا الغرض. وفي الوقت نفسه تواصل حملات التهجير القسري للمواطنين الكرد والتركمان من كركوك وخانقين وغيرهما، وتجبرهم على التوجه الى الأراضي غير الخاضعة لها من كردستان، أو ترسلهم الى مناطق الوسط والجنوب. ويجري تنفيذ هذه الحملة الشوفينية بصورة وحشية، وبعد تجريد العوائل من جميع وثائقها وممتلكاتها، في حال جرى ترحيلها الى مناطق كردستان المحررة من سيطرة النظام. ورغم الاحتجاجات الواسعة على هذه الانتهاكات لحقوق الإنسان، فإن النظام يمعن في إجراءاته الشوفينية، مما يتطلب حشد

أصوات التضامن مع قضية الشعب الكردي العادلة، وفضح إجراءات السلطة ونهجها العدوانية.

وفي ضوء ذلك ينبغي القول، إن التعويل من جانب بعض القوى الكردستانية على العلاقة مع الحكام الدكتاتوريين، لن يحل المشاكل القائمة، بل ويلحق أضرار بقضية الشعب الكردي.

وقد دلت التجربة العملية على أن أفضل الظروف لحل القضية الكردية، إنما يتوفر في ظل عراق ديمقراطي يؤمن الحقوق القومية للشعب الكردي، مما يستدعي مساهمة القوى الكردستانية الفاعلة في الجهد المعارض للخلاص من الدكتاتورية، وإقامة حكم ديمقراطي تعددي دستوري فيديرالي، ينهي مأساة الشعب العراقي عامة، ويحقق ديمقراطيا طموحات الشعب الكردي العادلة.

ورغم تلك العملية السلمية، والركود في الوضع الاقتصادي بسبب الأوضاع السياسية وعدم وجود سياسة اقتصادية مناسبة، والمشاكل المرتبطة بضعف الاستفادة من المبالغ المخصصة للإقليم وفق القرار ٩٨٦، فقد حصل بعض التحسن في أوضاع الجماهير المعيشية بعد تطبيق القرار، وجرى تمويل بعض المشاريع الخدمية وغير ذلك. مع أن هذا لم يعالج إفرازات القتال واستمرار حالة التقسيم في المجالات الاقتصادية والاجتماعية، التي يفاقم الجفاف هذا العام من عواقبها.

إن من مهمات النضال الملحة، السعي الحثيث جنباً إلى جنب كل القوى ذات المصلحة في السلام والاستقرار، من أجل تحريك العملية السلمية وتطبيق بنود اتفاقية واشنطن وتحقيق المصالحة وصولاً إلى الانتخابات البرلمانية. ويتطلب الأمر من سائر القوى المخلصة أن تلعب كذلك دوراً فاعلاً في نقد المظاهر السلبية عموماً، وتقديم الحلول والمعالجات، والقيام بكل ما يخدم الكادحين وجماهير الشعب، ويعزز النضال المتنامي لشعبنا العراقي وقواه السياسية المعارضة، من أجل إسقاط الدكتاتورية وإقامة العراق الديمقراطي الفيدرالي الموحد.

٥- آفاق تطور الوضع ومهماتها

تظهر وقائع السنتين الماضيتين في الوضع الداخلي بجوانبه المختلفة، وفي ما يتصل بالقضية العراقية، أن طبيعة النظام الدكتاتوري ونهجه وممارساته لم تتغير من حيث

الجوهر، وهي تكمن في أساس المحنة الشاملة لشعبنا، وتشكل عاملا رئيسيا في جميع الأزمات والكوارث، التي تعرض لها ويتعرض بجميع قومياته وفئاته الاجتماعية والدينية والمذهبية.

وتبين الوقائع أيضا أن النظام مازال، رغم تضاول قدراته ومصادر قوته واشتداد عزله داخليا وانحسار الإسناد الدولي والظروف الإقليمية المواتية له، باقيا يتحكم بالشعب والوطن وبحياتهما ومصيرهما.

ولا شك أن تآكل أي نظام وتهرؤه لا يعنيان بالضرورة سقوطه تلقائيا. بل لابد في الغالب من قوة تدفعه الى السقوط. وتتمثل هذه القوة في الحالة الملموسة لصراع شعبنا مع الدكتاتورية ومن أجل البديل الديمقراطي، في تعاون قواه السياسية المعارضة، وبضمنها قوى المعارضة الشعبية المتنامية.

لكن تحقيق هذا التعاون ليس سهلا المنال بفعل عوامل مختلفة، يتصدرها الدور الذي يلعبه العامل الخارجي، ممثلا هنا بالقوى الدولية والإقليمية، بتدخله في شؤون قوى المعارضة وإرباكه لوحة الصراع الداخلية.

ولا جدال في الأهمية الكبيرة للعامل الدولي، الذي يتوجب النظر إليه باعتباره فاعلا ومؤثرا، وهو قائم موضوعيا، ويفعل فعله عبر مواقف الرأي العام من جانب، ومن جانب آخر عبر السياسات التي تنتهجها القوى الدولية والإقليمية والمشاريع التي تسعى لتنفيذها، تطمينا لمصالحها وغاياتها.

وبالنسبة الى الوضع في بلادنا يمارس العامل الدولي تأثيره، قبل كل شيء، من خلال العقوبات الدولية، لاسيما الحصار الاقتصادي. وهو هنا يجسد إرادته في قرار دولي، يقول ببقاء الحصار الاقتصادي وعدم رفعه قبل إزاحة صدام حسين من السلطة. الأمر الذي يؤثر سلبا على نضال شعبنا، ويحد من طاقاته في مواجهة الدكتاتورية.

ويمارس العامل الخارجي تأثيره أيضا عبر المقاطعة السياسية والدبلوماسية للنظام والضغط الإعلامي عليه، وهو ما يساعد شعبنا في نضاله. لكن هذا لا يمكن قوله عن تأثير الضربات العسكرية الجوية، التي شنّها التحالف الأمريكي - البريطاني وشنّها. فإذا تلحق هذه الغارات بالنظام الأذى، فإنها في الوقت ذاته تستثير عوامل تخدمه، ويمكن أن تفيده في فك عزله عربيا ودوليا.

إننا إذ نتوجه لكسب أوسع أوساط الرأي العام العالمي الى جانب قضية شعبنا، فإننا لا نعارض أو نرفض الدعم الدولي السياسي والمعنوي. شرط أن يكون جادا وصادقا، يعين

قوى المعارضة على تطوير كفاحها، ويساعد في رفع الحصار الاقتصادي عن شعبنا. ونحن لا نعارض التعامل مع الحكومات والأوساط الرسمية في الدول الأخرى، وإنما ينحصر السؤال بالنسبة إلينا في كيفية هذا التعامل وغايته.

وعلى صعيد آخر فإننا لا نشارك البعض بأسهم بسبب بقاء النظام يحكم العراق حتى الآن، ولا نقاسمهم بالتالي فقدان الأمل في رؤية نهاية للنظام إلا بالتدخل الخارجي. في مقابل ما جرى ذكره وبموازاته، شهدت البلاد طيلة الفترة الماضية تطورات لافتة على مستوى الشارع، الذي تحول ميدانا لتحركات جماهيرية متنامية ومتسعة، سبق تسليط الضوء عليها.

وهذا هو العامل الداخلي (المتمثل في جماهير الشعب والجيش وقواها السياسية الوطنية، سواء القائمة المنظمة منها أو الناشئة حديثا، والأوساط التي تترك مواقع النظام وتنتقل في معسكر المعارضة) الذي ينزل الى ساحة الصراع حاملا الرد على من أعلنوا بأسهم من الشعب. ولم يكن تدفق الملايين الأربعة (باعتراف سلطات النظام ذاتها) من المواطنين على مدينة كربلاء في حزيران الماضي بمناسبة أربعينية الإمام الحسين، إلا مظاهرة تحد جبارة للنظام، واستفتاء جماهيريا جديدا أكد رفض أبناء الشعب، على اختلاف اتجاهاتهم السياسية وقناعاتهم الفكرية، للنظام الدكتاتوري، بعد أشهر من العمليات الكفاحية والمواجهات البطولية والهبات الشعبية.

لكن المقاومة المتصاعدة في وجه النظام، والتحركات النضالية المتسعة ضد أزمته ومواقعه ومؤسساته، بحاجة الى من يجمعها وينظمها ويقودها. ولا جدال في الأهمية غير العادية هنا لتعاون قوى المعارضة وتنسيق نشاطها.

وقد أمكن في الآونة الماضية إحراز تقدم معين في اتجاه تحسين العلاقات بين هذه القوى، وخلق أجواء إيجابية. إلا أن ذلك بقي دون مستوى الطموح، ودون مستوى الحاجة الى توحيد الخطاب السياسي لهذه القوى، وتحقيق وحدة برامج عملها ونشاطها الكفاحي، وبما يساعد في إضفاء الطابع السياسي الوطني على هذا النشاط.

ومن ناحية أخرى لا يمكن التفكير في التغيير والإعداد له دون وضع الجيش ودوره في الحسبان.

والجيش اليوم جيشان. إذ يميز النظام بين منتسبي القوات المسلحة، موليا اهتماما متزايدا للقوات الخاصة والحرس الجمهوري والتشكيلات الأمنية المتعددة، التي يشملها بالمكافآت والهبات. فيما يهمل الجيش النظامي، ويعمل على تمزيق بنيته، ويمتهن

منتسبيه، ويصفي أو يبعد أعدادا كبيرة من قاداته ومراتبه بحجج واهية. وكان هذا بالذات من أسباب اتساع ظاهرة انسلاخ ضباط الجيش ومراتبه بأعداد متزايدة عن النظام، والهروب المتسع لجنوده، وانضمام كثيرين منهم الى قوى المعارضة.

وتعكس ظاهرة هرب الجنود من الجيش، من جانب آخر، موقف الغالبية العظمى من شبيبة شعبنا وطلبته، الرافضين للنظام الدكتاتوري والمتطلعين والساعين للخلاص منه. وتشكل جماهير الشباب والطلاب في الواقع مصدرا رئيسيا لمخاوف النظام من انفجار الغضب المتعاظم عليه، نظرا الى كراهيتهم الطبيعية للظلم والعسف وحبهم للحرية وإقبالهم على الحياة. لذلك كانوا ومازالوا هدفا أساسيا للإرهاب والتكيل الوحشيين، ولمحاولات الإفساد وتشويه الوعي من جانب السلطة الدكتاتورية.

وعموما تنهياً لتطويع النشاط المعارض والنهوض به ظروف أفضل باضطراء، ليس آخرها تخلخل أجهزة النظام ومؤسساته.

إلا أن هذا النشاط يبقى محدودا وعفويا في الغالب، ليس فقط جراء القمع المنفلت، وبسبب ما سبق ذكره من غياب التنسيق والتعاون بين قوى المعارضة الناشطة داخل الوطن، بل أيضا بفعل تواضع نشاط كل من هذه القوى منفردة.

ويتوجب في هذا السياق أن نذكر من جديد بالأسس التي ينطلق حزبنا منها في سعيه للخروج بالبلاد من الأزمة الشاملة التي تخنقها، وإنقاذ شعبنا من محنته:

أولاً: توسيع وتصعيد النضال من أجل رفع الحصار الاقتصادي عن الشعب وإسقاط الدكتاتورية وإقامة البديل الديمقراطي في عراق فيديريالي موحد.

ثانياً: حشد طاقات شعبنا وقواه الوطنية الحية في النضال لتحقيق الأهداف المذكورة، وجمع نشاطاتها في أطر تعاون وتنسيق فعالة، وتأكيد دورها في التغيير، آخذين في الاعتبار دور العامل الخارجي وتأثيراته المختلفة.

ثالثاً: تحقيق المصالحة الوطنية الكردستانية بما يخدم مصالح شعب الإقليم، ويعزز دوره في المعركة ضد الدكتاتورية ومن أجل العراق الديمقراطي.

رابعاً: تفعيل النشاط الشعبي المعارض للنظام الدكتاتوري، والارتقاء به الى مستوى نوعي جديد، عن طريق تطعيمه، قبل كل شيء، بعنصر التنظيم الضروري.

خامساً: تطوير عمل الحزب ونشاطه في شتى الميادين السياسية والتنظيمية والفكرية، بما يطور الجهد المعارض للدكتاتورية ويعزز من مكانة الحزب ودوره في راهن العراق ومستقبله.

وفي ضوء هذه الأسس تنهض أمام حزبنا طائفة من المهام، التي يتوقف على إنجازها الارتقاء بنضاله وبدوره في الجهد الشعبي المتصاعد ضد الدكتاتورية:

* تعزيز تنظيمات حزبنا، وتوسيع صلاتنا مع الجماهير ومكانتنا بينها، والنهوض بأساليب عملنا، والإفادة الأفضل من قدراتنا وطاقاتنا في عمق الوطن وفي كردستان وفي الخارج.

* دعم التحركات الشعبية المتواصلة ضد النظام، وتحفيز المزيد من جماهير العمال والكادحين والشبيبة والطلبة والنساء وعموم المواطنين المكونين بسياسات النظام، على الانخراط فيها وفي مختلف أشكال النضال الأخرى، وبضمنها المطالبية، والعمل على إشاعة التنظيم في صفوفها وفي نشاطها بأجمعه.

* بذل جهود مضاعفة لكسب جماهير الجنود والمراتب والعسكريين عامة، الى جانب الكفاح الذي يخوضه أبناء الشعب، والعمل على تنظيمهم وتعبئة غضبهم وجمعه الى سخط جماهير الشعب في المعركة ضد الدكتاتورية.

* التوجه نحو منتسبي حزب السلطة وأجهزتها ومؤسساتها العسكرية والأمنية وغيرها، ودعوتهم للخلاص بأنفسهم من خدمة السلطة الدكتاتورية، جلادة الشعب، والانتقال الى صف الجماهير المناضلة لإنقاذ الشعب والوطن.

* العمل على تحريك أبناء الجاليات العراقية في الخارج، الذين يصل عددهم الى حوالي ثلاثة ملايين، كي ينهضوا بدورهم في معركة شعبنا ضد الدكتاتورية ومن أجل البديل الديمقراطي، وينشطوا في اتجاه كسب تعاطف الرأي العام العالمي (المتمثل في الأحزاب السياسية والمنظمات والنقابات والفعاليات الجماهيرية المختلفة، والتي ننظر إليها باعتبارها جزءاً أساسياً لا يتجزأ من العامل الدولي) وتضامنه مع شعبنا، من خلال خطاب عقلائي مؤثر.

* العمل على تكوين رأي عام دولي ضاغظ لحماية حقوق الإنسان في العراق، ومن أجل تفعيل قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٦٨٨ المتعلق بذلك، وتحويله الى البند السابع ليكون ملزماً للنظام، أسوة ببقية القرارات الدولية المتعلقة بالعراق.

* إن إنجاز ذلك كله يتطلب تعميق معرفتنا بالواقع وتغييراته، واستيعابنا للجديد من الظواهر، وتطوير إعلامنا والإفادة الأفضل منه، وباختصار: تطوير عملنا وتحسين أدائنا الفكريين.

على أن من أهم المهام التي تواجهنا، السعي لتحقيق التعاون بين أطراف

المعارضة. وينبغي تركيز الجهد في المرحلة الراهنة على تأمين الظروف المواتية للتوصل الى خطاب سياسي موحد لهذه الأطراف. وذلك ما يدعو إليه النداء الموجه من مجلسنا الحزبي العام الخامس الى جماهير الشعب وسائر القوى الوطنية العراقية، والذي يحدد المهمات الواجب تنفيذها كمدخل للاتفاق على ما هو مشترك، والذي ينطلق في الجوهر من المشروع الوطني الديمقراطي الصادر قبل سنتين عن المؤتمر الوطني السادس لحزبنا.

إن كل شيء يشير الى دخول الوضع في بلادنا طوراً جديداً من التآزم والاحتقان، نتيجة سياسات النظام وممارساته. وهناك مؤشرات كثيرة على كون النظام أصبح في حيل أضعف نسبياً، وأقل قدرة على احتواء تداعيات الوضع الداخلي، ومواجهة التنامي المستمر للنشاطات والعمليات الكفاحية والهبات الجماهيرية المتتابعة من بغداد حتى البصرة. وهذه الحقيقة تثير الفزع في نفوس الحكام، كما تثيره المواقف والمشاريع الأمريكية التي يبدو جلياً أنهم ينظرون إليها بجديّة كاملة، ومثلما تثيره حالة التوتر الاجتماعي والسياسي التي تطبع الوضع في البلاد بأسرها، والتي تشتد اليوم - بين أسباب أخرى - بفعل الجفاف غير العادي وعواقبه المتزايدة، التي تتعكس ملموسة في تـردّي الظروف المعيشية والحياتية للمواطنين.

وفي مواجهة هذا كله وتداعياته المحتملة، يتوجب علينا أن نكون في أعلى درجات الاستعداد، ليس فقط للتفاعل مع الأحداث ومواكبة حركتها، بل ولاستباقها ما أمكن، والسعي لإيجابية على الأسئلة التي يمكن أن تطرحها. وقبل هذا وبجانبه يتوجب علينا أن نواصل تعزيز حضور حزبنا في الساحة النضالية وسط جماهير شعبنا الناهضة.

٦- الأوضاع العربية والدولية

شهدت فترة ما بعد المؤتمر السادس مزيداً من التدهور في أوضاع المنطقة، وتفاقماً في الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تواجهها. وعاش العالم فترة حرجية من التوترات التي توجت مرحلة ما بعد الحرب الباردة، في أعقاب انهيار الاتحاد السوفياتي وتفكك المنظومة الاشتراكية وهيمنة القطب الواحد - الولايات المتحدة - على صعيد العلاقات الدولية.

أ- الأوضاع في الشرق الأوسط والعالم العربي

عانت منطقة الشرق الأوسط سلسلة من التوترات والأزمات الناجمة عن سياسة التعنت الإسرائيلية، التي اقترنت بمجيء زعيم حزب الليكود السابق نتنياهو إلى الحكم، مما انعكس سلباً على مسار التسوية الإسرائيلية - الفلسطينية وعموم مسارات التسوية في الشرق الأوسط. وتبع ذلك فشل إدارة كلينتون في إعطاء الزخم لعملية السلام، رغم توقيع إسرائيل والسلطة الفلسطينية على اتفاقية واي ريفر.

وفي الوقت ذاته تواصلت سياسة الاستيطان، وسياسة فرض الأمر الواقع التي اعتمدها نتنياهو، ضارباً عرض الحائط بالاتفاقات الموقعة مع الفلسطينيين، ومتجاهلاً الدعوات بما فيها الأمريكية لتطبيقها.

ورافقت هذا النهج مراوغة حذرة على صعيد الجبهة السورية، وحرب مستمرة في جنوب لبنان وخاصة في الشريط المحتل.

وجاءت نتائج الانتخابات الإسرائيلية في أيار الماضي وفوز باراك وحزب العمل، لتشكل فرصة جديدة لتحريك العملية السلمية. وطبيعي أن فوز باراك بحد ذاته لا يعني حلاً للأزمة المستعصية. والمعضلة كانت وستبقى مرتبطة أساساً بضرورة تحشيد كل عوامل القوة والفعل لدى شعوب البلدان العربية، وتوحيد جهود قوى حركة التحرر الفلسطينية، على أساس برنامج وطني - ديمقراطي، وتعبئة كل قوى السلام وحقوق الإنسان والديمقراطية في العالم، من أجل إجبار الحكومة الإسرائيلية على الانصياع لصوت العقل، وإجراء مفاوضات عادلة مع الجيران، والانسحاب الكامل من الجولان السورية وجنوب لبنان، والإقرار بحق الشعب الفلسطيني في نيل حقوقه وإقامة دولته الوطنية المستقلة.

ومعلوم أن المقاومة للاحتلال في فلسطين ولبنان، السلمية منها والمسلحة، لم تتوقف، وتصاعدت المقاومة المدنية وال جماهيرية في بعض المناسبات لتتخذ شكلاً أقرب إلى الهبة الشعبية.

على صعيد آخر مازالت أزمة الخليج الناتجة عن الغزو الصدامي للكويت، تلقي بظلالها على العلاقات العربية - العربية في المستويين الرسمي والشعبي، إضافة إلى تراجع دور جامعة الدول العربية. وأبرز ذلك كله حالة من الضعف في التضامن بين البلدان العربية، مما وفر المحفزات لتمادى إسرائيل في سياساتها العدوانية المدعومة أمريكياً.

وشهدت الفترة المنصرمة تطور التحالف العسكري والاستراتيجي بين تركيا وإسرائيل، الذي يحظى بدعم أمريكي واضح. ولم يقتصر الأمر على تبادل الزيارات بين المسؤولين في البلدين، بل تعداه إلى التصنيع العسكري المشترك وتنظيم مناورات عسكرية مشتركة.

وأسهم ذلك كله في توتر الأجواء بين تركيا والبلدان العربية، وخاصة مع سوريا. وشكلت الأزمة المثارة من جانب تركيا خريف ١٩٩٨ أحد أهم مظاهر التوتر في العلاقات التركية - العربية.

وأرادت تركيا من توقيت إثارة الأزمة، التخلص من تأثيرات المشكلة الكردية والأزمة الداخلية اللتين تواجههما، وانتزاع تنازلات من سوريا. ورافقت الاتهامات التركية لسوريا بدعم حزب العمال الكردستاني، تهديدات بعمل عسكري ضدها. ولقد أسهم حرص سوريا على تجنب الدخول في مواجهة عسكرية غير مأمونة العواقب في ضوء موازين القوى القائمة، الإقليمية والدولية، في نزع فتيل الأزمة.

ومثلت عملية إلقاء القبض على عبد الله أوجلان زعيم حزب العمال الكردستاني بتواطؤ بين مخابرات تركيا والولايات المتحدة وإسرائيل، التعبير الأوضح عن النظرة الشوفينية للحكومة التركية إلى قضية الشعب الكردي العادلة، والإصرار على نهج التصفية الدموية بديلاً عن الإقرار بالحقوق المشروعة والحل السلمي لهذه المسألة.

وقد دان حزبنا عملية اختطاف أوجلان، ودعا إلى إطلاق سراحه وإجراء محاكمة عادلة له، كما دعا إلى الحل السلمي الديمقراطي للمشكلة الكردية في تركيا، على أساس الاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الكردي.

وكانت المحاكمة الصورية التي أجريت لأوجلان، من الناحية العملية، محاولة من جانب الحكومة التركية لمحاكمة الشعب الكردي، الذي يتوق إلى حريته وحقوقه المشروعة. وإن حزبنا ليدعم جميع الجهود المبذولة لوقف تنفيذ الحكم الصادر بإعدام أوجلان، وإطلاق سراحه.

وعلى صعيد شمال أفريقيا والمغرب العربي، تجدر الإشارة إلى الانفراج في الأزمة الليبية مع الأمم المتحدة، وما رافقها من حصار جوي فرض على هذا البلد العربي، بدعوى تورط سلطاته في قضية لوكربي. وشكل تسليم المتهمين في القضية في أوائل نيسان الماضي ليحاكما في هولندا، بداية لحل سياسي للأزمة وبالتالي لوقف العقوبات ضد ليبيا.

وتتواصل الأزمة السياسية في السودان جراء إصرار عمر البشير على نهج القمع والإرهاب الشامل. وأكدت الوقائع غياب المصداقية في دعواته للمصالحة مع المعارضة، فيما قدم التجمع الوطني الديمقراطي المعارض، من جانبه، تصورات له للمصالحة، التي لم تلق حتى الآن تجاوبا من السلطة الحاكمة.

ورأى الحزب الشيوعي السوداني ضرورة توفر شرطين أساسيين في أي مشروع للحل السلمي، وهما:

* وقف الحرب الأهلية، وإرساء قواعد سلام عادل وشامل يفتح الطريق لإقامة السودان موحد ديمقراطي مستقر.

* تجريد الجبهة الإسلامية الحاكمة من المكاسب التي حصلت عليها بانقلاب ٣٠ حزيران ١٩٨٩، ومعاقبة كل من ارتكب جرما ضد الوطن والمواطنين، واسترداد ما نهب من المال العام أو من الأفراد.

وفي الجزائر شكلت الانتخابات الرئاسية في نيسان الماضي (رغم ما رافقها من أخطاء وتجاوزات على الديمقراطية)، وفوز عبد العزيز بوتفليقة فيها، وإعلان برنامج يعتمد العمل من أجل تحقيق السلم المدني، بداية لانفراج في الأزمة السياسية ولوقف النزيف الخطير الذي أسفر عن سقوط آلاف الضحايا. ومثلت خطوة الجبهة الإسلامية للإنقاذ المتعلقة بوقف العنف، وإعلان الحكومة عن العفو العام عن السجناء السياسيين ومباشرة إطلاق سراحهم، تطورا إيجابيا على هذا الصعيد.

وشهدت المنطقة تطورا محسوسا على صعيد العلاقات الإيرانية - العربية. ومثلت سياسة الانفتاح التي اعتمدها الرئيس الإيراني محمد خاتمي منذ فوزه في الانتخابات الرئاسية (أيار ١٩٩٧) تطورا إيجابيا انعكس في الزيارات المتبادلة بين المسؤولين من إيران والبلدان العربية، خاصة دول الخليج.

إلى جانب هذه التطورات، هناك ظواهر عامة يمكن رصدتها في اللوحة المعقدة للوضع في البلدان العربية وعموم المنطقة. تتوجب الإشارة إلى:

* استمرار الانتهاكات الفظة لحقوق الإنسان، حيث شهدت السنة المنصرمة تدهورا شديدا على هذا الصعيد في عموم البلدان العربية، خاصة في مناطق الأزمات، واتخذت أساليب التنكيل شتى الصور. وأشارت التقارير المحايدة إلى حقائق فظيعة في هذا الشأن.

* تدهور الأوضاع الاقتصادية، وانخفاض المداخيل ومستويات المعيشة الناجم عن ذلك. وانعكس التدهور سلبا على الطبقات والفئات المتوسطة والفقيرة بالدرجة الأساسية،

وأدى الى شيوع الفقر وارتفاع معدلات البطالة. وقد أدخل تقرير "التنمية البشرية" في الأعوام الأخيرة، مفهوم "الفقر البشري" الى العالم العربي والشرق الأوسط، وهو يقوم على أساس أن الافتقار متعدد الأبعاد، وهو أكثر من كونه افتقاراً الى ما هو ضروري للرفاه العادي. إذ أنه يعني الحرمان من الفرص والخيارات التي تعتبر أساسية للتنمية البشرية. وتشير المعطيات والأرقام الى حقائق قاسية على هذا الصعيد.

ولم تتج من ذلك حتى الدول النفطية، جراء الانخفاض في أسعار النفط، وشمل الركود حتى دول الخليج. وشهدت سوق النفط العالمية انهياراً كبيراً لأسعار النفط، مما ألحق خسائر إجمالية بدول أوبك تقدر بـ ٦٠ مليار دولار.

وقد اضطرت دول منظمة أوبك وغيرها بسبب ذلك الى تقليص إنتاجها من النفط. وأدى ذلك لاحقاً الى عودة الأسعار للارتفاع مجدداً. ومع هذا تبقى البلدان المذكورة جميعاً تعاني من أزمات اقتصادية حادة، وعجز في ميزانياتها، وتزايد في حجوم ديونها، وتقليص في الإنفاق الاجتماعي، وهو ما يرتبط وثيقاً - في أحد جوانبه - باستمرار عقد صفقات الأسلحة عالية الكلفة.

* تواصل نهج الهيمنة الذي تمارسه الولايات المتحدة، والذي ينطلق من الاهتمام بالشرق الأوسط ستراتيجياً واقتصادياً وعسكرياً. ويتجلى هذا النهج في صور شتى، بينها التدخل في الشؤون الداخلية، وفرض التواجد العسكري... الخ. مما أدى الى خلل في ميزان القوى لصالح إسرائيل على المستوى الإقليمي، ولصالح الولايات المتحدة وحلفائها على المستوى الدولي.

ومما عزز هذا النهج اعتماد الأنظمة الحاكمة في البلدان العربية سياسة اقتصادية وحيدة الجانب، تقوم على التبعية للامبريالية.

* شكلت أزمة المياه أحد أهم عناوين الرئيسية في تطور أوضاع المنطقة، وأشارت الدراسات الى أن العجز المائي العربي في العام ٢٠٠٠ سيبلغ ٣٠ مليار م^٣.

وحسب هذه الدراسات فإن الأردن وفلسطين يدخلان في دائرة الخطر مائياً، وأن العراق وسوريا يقعان ضمن الدائرة المهددة بالخطر، وفيما يخص مياه نهري دجلة والفرات لاتزال تركيا ترفض الاعتراف بكونهما نهريين دوليين، وتعارض المطالب السورية والعراقية في مياه النهرين وباستئناف أعمال اللجنة الفنية الثلاثية الخاصة بالمياه، والمتوقفة عن النشاط منذ العام ١٩٩٢.

وتشير التوقعات الى أن أزمة المياه في الشرق الأوسط ستكون في مقدمة المشكلات في القرن المقبل، فيما اعتبر بعض المختصين حروب المياه أهم ملامح القرن الحادي والعشرين.

في ظل هذه الأوضاع المعقدة التي تسود المنطقة، تتواصل النضالات الشعبية والوطنية في العديد من البلدان العربية، من أجل الديمقراطية وحقوق الإنسان. كما تتسع النشاطات الشعبية المعادية للسياسة الأمريكية في المنطقة.

لكن نشاط ودور قوى الديمقراطية واليسار، ومنه الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية، لا يزال دون الطموح. ويتوجب العمل الجاد لتفعيل دورها والارتقاء بعملها المشترك.

ب- الأوضاع الدولية

عاش العالم في السنوات القليلة الماضية حالة من عدم الاستقرار والتوتر والأزمات على جميع الصعد، في ظل "النظام العالمي الجديد" الذي عملت الولايات المتحدة الأمريكية على تسويقه دولياً، مما عمق حالة القلق من طغيان غطرسة القوة التي تعتمد على واشنطن والناتو.

وارتباطاً بهذه التطورات وتفاعلاتها يمكن تحديد أبرز ملامح التطورات الدولية:

- * استمرار وتصاعد نهج الهيمنة في سياسة الولايات المتحدة الأمريكية، والتحول الأكبر نحو استخدام القوة في العلاقات الدولية. وعلى حد تعبير وزيرة الخارجية: لقد تحولت سياستنا من الدبلوماسية المدعومة بالقوة الى القوة المدعومة بالدبلوماسية.

- * الانهيار الروسي جراء تفاقم الأزمات السياسية والاقتصادية، التي تعكس المآزق الخطير الذي قادت إليه سياسة يلتسن، ونهج اللهاث وراء صندوق النقد الدولي، وإطلاق العنان للتطور الرأسمالي المنفلت، وما أدى إليه ذلك من التدهور واشتداد الصراع، مع إفقار وتهميش قطاعات شعبية واسعة، تعيش اليوم خيبة أمل مريرة جراء فقدانها للمكاسب الاجتماعية، التي كانت تحصل عليها في ظل الاشتراكية.

- * اندفاع أوروبا نحو مزيد من الاندماج الإقليمي. وقد شهد الاتحاد الأوروبي خطوات ملموسة في عملية بنائه، لكن أوروبا تعيش في ظل أزمات اقتصادية واسعة تتجلى في ارتفاع معدلات البطالة بشكل خاص.

ولازالت أوروبا الشرقية تتخبط وهي تحصد خيبة الأمل، جراء الوعود التي لم تسفر

في الغالب سوى عن المزيد من التدهور. ولدت تجربة بلدان هذه المنطقة على أن الخصخصة والليبرالية الجديدة، لم تجلب لشعوبها سوى تردي الأوضاع في معظم الميادين.

* التدهور المريع الذي تعيشه البلدان النامية، والذي دفع البعض الى إطلاق تسمية "زمن الفقر العالمي"، ارتباطاً بانتهيار النظم الإنتاجية في الدول النامية وبتحلال البرامج الاجتماعية. وظهرت المجاعات في التسعينات على المستوى المحلي في أفريقيا وجنوب آسيا وبعض أجزاء أمريكا اللاتينية. وحرمت مئات الملايين من الأطفال من حق التعليم، وعاد ظهور الأوبئة في العالم الثالث. وتعيش هذه البلدان حالة من التهميش جراء التبعية والتخلف. ورافق كل ذلك اتساع دائرة الحروب الإقليمية بشتى أنواعها، مما أسفر ليس فقط عن وقوع ضحايا بشرية بل وتعمق حالة عدم الاستقرار.

* أزمة دول جنوب شرق آسيا (تموز ١٩٩٧) التي تعتبر إحدى نتائج العولمة المالية، التي تسعى الولايات المتحدة خاصة الى فرضها على العالم، مستخدمة في ذلك ما لديها من نفوذ على المؤسسات المالية. وقد فقدت هذه البلدان خلال أشهر قليلة ٤٠ - ٥٠% من ثرواتها، واستنزفت الأزمة نحو ١٣٧ مليار دولار جراء تعميم اقتصاد حريصة الأسواق وحرية التجارة، وغياب الإدارة الحكومية النزيهة والفاعلة. وأدى التوسع في منح القروض وإطلاق المضاربة، الى جانب ضعف الإدارة المالية، الى سلسلة من الانهيارات في أسعار صرف العملات المحلية.

* سعي حلف الأطلسي تحت تأثير الولايات المتحدة الى تغيير مفهوم الحلف وطبيعته، من كونه "أداة للدفاع" ضد عدو محدد، الى منظمة مشتركة للحماية ضد تهديدات غير محددة.

وبمناسبة الذكرى الخمسين لتأسيس الحلف، وبرغم ما يفترض من انتفاء مبرر وجوده منذ انتهاء منظمة "معاهدة وارشو" قبل عقد من السنين، أقرت دول الناتو في نيسان ١٩٩٩ استراتيجية جديدة، تتاح بموجبها مرونة أوسع في استخدام الخيار العسكري، بما يعطي للحلف الحق في استباحة العالم حيثما تقتضي ذلك مصالحه، وخاصة على صعيد إدارة الأزمات الإقليمية والدولية، وبذلك يجري فرضه بدلاً عن الأمم المتحدة.

ومثلت أزمة كوسوفو وحرب البلقان، التي اندلعت بهجوم حلف الناتو على يوغوسلافيا، واحدة من تجليات السياسة الجديدة للناتو، وأدت الى واحدة من أشد الأزمات خطورة في عالم اليوم، وعكست الى درجة كبيرة عدوانية الولايات المتحدة والناتو.

وقد توقف حزبنا أمام هذا التطور الخطير، وطالب بالوقف الفوري لعمليات الناتو العسكرية التي ألحقت أمدح الأضرار بشعب يوغوسلافيا وبسكان كوسوفو أنفسهم، وكذلك بوقف عمليات القمع والتهجير التي يمارسها الحكام الصرب ضد ألبان كوسوفو، والاعتراف بحقوقهم المشروعة، واعتماد الخيار السلمي لحل الأزمة.

وأشار حزبنا الى حق ألبان كوسوفو في تقرير مصيرهم. واعتبر العملية العسكرية للناتو التي أدانها، سابقة خطيرة، حيث تجاوز الحلف الشرعية الدولية ومجلس الأمن، ليستعيز عنها "بشرعية" القوة.

* ظاهرة العولمة التي شغلت العالم ولا تزال، من حيث تجلياتها وآثارها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية. وفي حين ينظر إليها البعض باعتبارها ظاهرة موضوعية، تسعى الرأسمالية لتوظيفها بما يؤدي الى انفتاح العالم على بعضه البعض ويحقق لها المزيد من الأرباح، يرى البعض الآخر أنها مؤامرة امبريالية ينبغي التصدي الحازم لها.

إن العولمة، بمعنى الانفتاح والتبادل والترابط بين شعوب ودول العالم، هي ظاهرة موضوعية ليست بالجديدة، وجاءت الثورة التقنية والمعلوماتية لتدفعها قدماً الى الأمام.

وتتجلى العولمة ليس فقط في الميدان الاقتصادي، بل وفي العلاقات الدولية وميادين أخرى، وتتضح فيها أكثر فأكثر ملامح سياسة الولايات المتحدة الأمريكية، الهادفة الى السيطرة على العالم وتكريس نهجها العدواني المعادي للشعوب. وتتوضح مخاطر العولمة الراهنة في إقامة أسواق معولمة، تخدم مصالح الرأسمالية العالمية ومراكزها الاحتكارية.

وأمام هذه التطورات وتفاعلاتها المختلفة، يجري العمل من قبل الأحزاب الشيوعية والعمالية والحركات السياسية اليسارية، على التصدي لهجوم الرأسمال وتحقيق عولمة إنسانية في مواجهة العولمة الرأسمالية، تقوم على أساس الدفاع عن مصالح الكادحين، بعيداً عن الهيمنة والاستئثار الذي كرسه الرأسمالية المعولمة. الأمر الذي يتطلب عولمة النضال وصياغة أشكال مناسبة من العمل الملموس، لتحقيق الخيار الذي تطمح إليه الشعوب - خيار العدالة الاجتماعية والاشتراكية.

* إن البشرية مثقلة، وهي تقترب من القرن الحادي والعشرين، بمشكلات جسيمة تهدد وجودها.

فالحروب الإقليمية والمحلية والتوترات العنصرية والانتهاكات الفظة لحقوق الإنسان وارتفاع معدلات البطالة والتضخم والتصاعد في ميزانيات السلاح، والزيادة الخطيرة

المتواصلة في تلوث البيئة وما تشكله من تهديد لمستقبل البشرية، فضلا عن مشاكل الجفاف وغيرها، تزيد من قلق الشعوب وهي في مرحلة الانتقال الى الألفية الثالثة. إن التوظيف غير المتكافئ لمنجزات العلم والتكنيك وثورة الاتصال، عمق الهوة بين الدول الغنية والدول الفقيرة، وزاد من حالة عدم الاستقرار في عالمنا المعاصر.

وفي ظل هذه الأوضاع المعقدة تقع على عاتق الأحزاب الشيوعية وقوى اليسار، مهمة فضح أساليب الرأسمالية المعاصرة، وصياغة البديل المناسب: إقامة نظام جديد للعلاقات الدولية، يقوم على أساس التكافؤ ويضمن التوازن في عالم اليوم المليء بالمشاكل، والسعي لضمان حقوق الإنسان وصيانة كرامته وتوفير مستلزمات وشروط حياته الضرورية، بعيدا عن العنف والاضطهاد في عالم خال من الأسلحة النووية والفتاكة الأخرى، عالم بعيد عن الحروب والتوترات. وفي ظل الأمن والسلام والاستقرار، يمكن تحقيق ازدهار البشرية وتطورها في القرون المقبلة.

إن العالم اليوم يشهد تناميا في النضالات من أجل الحقوق السياسية والاجتماعية، ولدرء هجوم رأس المال. كما تتزايد النشاطات الشعبية دفاعا عن حقوق الإنسان والبيئة. ومنى العديد من الدكتاتوريات بهزيمة ماحقة على يد الشعوب المناضلة، ولنا من مثال أندونيسيا ما يؤكد ذلك.

ويتبلور في هذا السياق المزيد من أشكال التعاون والتنسيق بين قوى اليسار وعموم القوى المعادية للرأسمالية، وتبذل الأحزاب الشيوعية والعمالية جهودا متواصلة من أجل الارتقاء بعملها، وتحديد المعالجات الملموسة للقضايا المطروحة. وتقوم المنظمات والجمعيات النقابية والشبابية والطلابية والنسائية وغيرها، بدور مرموق في الدفاع عن قضايا الكادحين والشعوب، وتتصدى بحزم لعدوانية الامبريالية، وتطرح بالحاح شعار عولمة التضامن.

وتقع اليوم على عاتق الشيوعيين خاصة، مهمة تحديد ملامح المستقبل، وتقديم البديل المبرر علميا للرأسمالية المأزومة، والمستند الى عولمة إنسانية تكون قاعدة للاشتراكية.

أواخر تموز ١٩٩٩

وثيقة

نداء

الى جماهير شعبنا العراقي
الى سائر القوى الوطنية

يشهد الوضع في بلادنا منذ مطلع هذا العام أحداثاً وتطورات تعكس تصاعداً نوعياً في مستوى تحدي ومقاومة السلطة الدكتاتورية. ويتجسد ذلك في سلسلة التحركات الاحتجاجية وأعمال المقاومة والهبات الشعبية والمجاهدات المسلحة ضد قوى النظام الإرهابية، التي شملت العاصمة بغداد ومعظم مدن وسط وجنوب العراق، وهي تتواصل ومرشحة للتوسع.

وترتبط هذه الانفجارات المتوالية للغضب الجماهيري بمجمل السياسات الإرهابية للنظام ونهجه العدواني، وحصيلة الحروب التي أشعلها ومضاعفاتها التي فاقمت معاناة جماهير شعبنا المكتوبة بنار الحصار الاقتصادي والإرهاب. ويقترن كل ذلك بمعجز السلطة الحاكمة عن إيجاد حل للأزمة الشاملة التي تستنزف الشعب والوطن وتخنقهما.

ويجري هذا كله في الوقت الذي تتزايد فيه التدخلات والضغطات الخارجية في الشأن العراقي، وبضمنه شؤون المعارضة، وهو ما يتجلى خصوصاً في مواقف ملموسة وسياسات معلنة للتغيير في العراق بمعزل عن إرادة شعبنا.

إن هذه التطورات وآفاقها المحتملة تطرح بالحاح على أطراف المعارضة الوطنية، اليوم أكثر من أي وقت مضى، مهمة الارتقاء الى مستوى مسؤوليتها التاريخية، لتجاوز حالة التبعثر التي تعيشها وتحقيق جهد مشترك يدعم ويحفز جماهير شعبنا وقواها داخل الوطن في نضالها البطولي لإسقاط الدكتاتورية وإقامة البديل الوطني الديمقراطي الفيدرالي المنشود.

إن الحزب الشيوعي العراقي، انطلاقاً من شعوره بحجم المخاطر التي تتهدد شعبنا

ووطننا وبضرورة الخروج من هذه الحالة، والاستجابة لتطلعات شعبنا يدعو سائر الأحزاب والقوى والشخصيات الوطنية بمختلف انتماءاتها واتجاهاتها للاتقاء والاتفاق على قواسم مشتركة تشكل أساساً لخطاب سياسي موحد يقوم على الثوابت الوطنية واستقلالية القرار السياسي المعارض.

وهنا يؤكد حزبنا على مشروعه الوطني الديمقراطي الذي أقره مؤتمره الوطني السادس في تموز ١٩٩٧ وحدد فيه المهام الآتية والمرحلة التي تواجهه وتنتظر شعبنا وقواه الوطنية. وهو يرى في المهمات التالية مدخلاً للاتفاق على ما هو مشترك:

١- إسناد قوى شعبنا المناهضة للدكتاتورية، باعتبارها القوى الحقيقية المعول عليها في إنجاز التغيير للخلاص من الدكتاتورية، وإقامة نظام برلماني تداولي، يقوم على أساس الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان، ويؤمن الحقوق القومية المشروعة للشعب الكردي واحترام خياراته وضمان حقوق القوميات الأخرى، ويلغي كل أشكال التمييز القومي والديني والطائفي.

٢- رفع الحصار الاقتصادي عن شعبنا.

٣- العمل على تحقيق التلاحم بين الجيش والشعب.

٤- السعي لكسب أوساط من داخل الحزب الحاكم والمؤسسة العسكرية الى جانب القوى المعادية للدكتاتورية.

٥- تحقيق المصالحة الوطنية في كردستان العراق.

٦- المطالبة والضغط لتفعيل وتطبيق قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٦٨٨ الخاص بحقوق الإنسان في العراق، وتقديم صدام حسين وأركان النظام الى محكمة دولية باعتبارهم مجرمي حرب ومجرمين بحق الإنسانية.

٧- العمل على كسب الإسناد العربي والإقليمي والدولي، السياسي والمعنوي، لنضال شعبنا ضد الدكتاتورية انطلاقاً من المصلحة الوطنية لشعبنا وبلادنا.

المجلس الحزبي العام الخامس

للحزب الشيوعي العراقي

٢٦ - ٢٨ تموز ١٩٩٩

أدب وفن



"الذي يأتي ولا يأتي"

هو

الذي يمضي فلا يمضي!

إن ألف مأخذ على شاعريته لا يضيره شيئاً، فيما عشر ملاحظات على غيره قد تؤدي بذلك الغير.. فمهما قيل من أمور تثلب البياتي الشاعر، فإن أشعاره المستمرة، منذ (الأباريق المهشمة) حتى (النصوص الشرقية) تؤكد شاعريته المتفردة.. البسيطة بساطة قد توهم حتى الأمي (الأطرم) بقدرته على محاكاتها، بينما هي - حقيقةً - تتأبى على أنداده من الشعراء الكبار.. والعميقة عمقاً قد يوهم الكثير من المتأملين بأن قاع هذه الشاعرية ليس عميقاً، وشأن هؤلاء هو شأن الغشيم حين ينظر إلى ماء شديد الصفاء، يرفع قاع أحجاره وحصاه لمن يعشق تلك الموجودات البعيدة الغور في البحيرات والبحار.

لا أريد، الآن، أن أبكيه أو أرثيه، فقد تحقق ما تمناه، فها هو يرقد رقدته الأخيرة في دمشق الشام، وهي رقدته الأولى في حضرة شيخه (محيي الدين بن عربي)، حيث يدخل ولادته الجديدة التي ستمتد في الأزمان.. هو الذي يعشق بلاد الشام.. هو الذي يقول فسي أروع نتاجه - عندي - (الذي يأتي ولا يأتي).. يقول:

عائشة ماتت، ولكني أراها تذرع الظلام
تنتظر الفارس يأتي من بلاد الشام

.. إنه هو ذاته يقول في القصيدة ذاتها:

- من كان يبكي تحت هذا السور؟
كلاب رؤيا ساحر مسحور
تتبع في الديجور
أم ميت الجذور
في باطن الأرض التي تنتظر النشور

.. وهو ذاته يختم مورده هذا بقوله:

- من كان يبكي تحت هذا السور؟
لعلها الريح التي تسبق من يأتي ولا يأتي
لعل شاعراً يولد أو يموت!

وأنا - بدوري - أقول: هو البياتي يولد إذ يموت، فالذي وثق روح "الذي يأتي ولا يأتي" هو شاعر يمضي.. فلا يمضي!

مهدي محمد علي

خواطر على خواطر

عبد الإله الياسري

نشرت (الثقافة الجديدة) - عدد ٢٨٦ كانون الثاني، شباط ١٩٩٩ - مقالاً للأستاذ علي الشوك تحت عنوان (خواطر حول اللغة العراقية الدارجة). أبدى فيه أفكاراً واجتهادات، ذات صلة بعلم اللغة المقارن. والمقال في مجمله يدور حول تأثير اللغات على اللغة العراقية الدارجة، ويمكن تقسيمه الى نوعين: تأثير داخلي يتعلّق باللغات العراقية القديمة، قبل الميلاد، ويتميز بتفرّده، لمعرفة الأستاذ الشوك للواسعة بذلك الحقل المعرفي النادر الذي تخفى أسواره على الكثير. وتأثير خارجي، أثار لدي مجموعة من الخواطر التي أودّ أن أفصح عنها في الملاحظات التالية، آملاً أن تكون محفزاً لتدخل نوي الاهتمام بهذا الشأن:

١- إن مفهوم "اللغة العراقية الدارجة"، من الناحية المنطقية، يضم جميع الصفات اللغوية لهذه اللغة، وجميع الخصائص التي توضح معناها الكلي. وهو يتضمن العربية وغير العربية. والعربية العراقية الدارجة ليست واحدة، وإنما هي صور متعددة، تختلف باختلاف مناطق العراق وأهله. لذا أعتقد أن النظر الى اللغة العراقية الدارجة من خلال لهجة واحدة أو لهجتين، واستتباط الأحكام من جزء واحد أو جزأين، دون استقراء الأجزاء الأخرى المكونة للظاهرة اللغوية في العراق، وإطلاق تلك الأحكام على كلية اللغة، هو شيء مختلف عليه.

والمثال على ذلك الاختلاف هو زعم الأستاذ الشوك أن كلمة "درنكة" العراقية مأخوذة من كلمة "DRUNK" الانجليزية. إذ قال:

"هناك مفردات عامة أخرى دخلت عاميتنا أيضا، مثل "سكران غادي درنكة" من كلمة *drunk* الانجليزية". وهذا الخبر مخالف للواقع. فكلمة "درنكة" وجمعها "درنكات" يستعملها أهل الأرياف في الفرات الأوسط، وفي الجنوب أيضا. ومعناها آلة الطرب التي يضرب عليها (أي الطبل). وتقابلها عند الحضر من أهل المدن، بنفس المعنى كلمة "دنبك" أو "دمبك". ووجه الشبه في قولهم "سكران صاير درنكة" هو، على الأغلب، حالة الارتخاء بين المشبه والمشبه به. فالسكران يرتخي عصبه بفعل الخمر. و"الدرنكة" يرتخي جلدتها بفعل الضرب، فيلجأ الضاربون به إلى تسخينه ليشتد ويعطي الصوت المرتجى. وأهل الأرياف المذكورون يقولون عادة: "صاير درنكة" بلا "سكران". ومرادهم المبالغة في التعب، وتشبيه حال المتعب بتلك الآلة التي يضرب عليها من هب ودب في الأعراس أو غيرها. وأظن أن سياق الجملة في القول "سكران صاير درنكة" يدعم هذا التفسير. وإلا ما معنى (سكران صاير سكران) إذا اعتبرنا أن كلمة "درنكة" مأخوذة من DRUNK الانجليزية التي معناها (سكران).

وهذه المفارقة الطريفة لا ترجع إلى قصور الأستاذ، وإنما ترجع إلى طبيعة اللغة العراقية الدارجة التي تحتاج دراستها إلى جهود جماعية مشتركة للإحاطة بكل تفاصيلها وتشعباتها.

٢- وقال الأستاذ الشوك: "ولعل الفارسية تستأثر بحصة الأسد بألفاظها الدخيلة، وقد تليها التركية، ثم الانجليزية".

إن حصره أسس التأثير اللغوي الخارجي، على اللغة العراقية الدارجة، بهذه اللغات الثلاث، هو شيء موضوعي وواقعي، نتج عن أسباب معلومة تاريخيا. وأود أن أضيف إلى هذا الاستنتاج الصحيح شيئا آخر:

إن تأثير اللغة التركية على العربية العراقية الدارجة لم يكن مقصورا على المفردة التركية الدخيلة وحسب، بل امتد إلى تغيير بنية المفردة العربية الدارجة، لطول فترة الاحتلال العثماني التي استمرت قرونا. ويظهر هذا التغيير البنيوي على بعض مفرداتنا العراقية بزيادة لفظ تركي في أواخرها مثل (جي) التركية بمعنى صاحب المهنة و(سز) التركية بمعنى بدون كقولنا: (كهوجي - عبايجي أو حياء سز - غيرة سز... الخ).

بينما اقتصر معظم تأثير اللغة الانجليزية في الميدان الصناعي والعسكري. وهو تأثير طفيف لقصر فترة الاحتلال البريطاني الذي لم يستمر إلا قليلا لضغط المقاومة الشعبية العراقية.

غير أن الأستاذ ركز على اللغة الانجليزية وبعض اللغات الأوروبية بما لا يتوافق مع نسبة تأثيرها. وكاد يرجع بعض ما تشابه من مفرداتنا لفظا ومعنى مع مفردات تلك اللغات الى أصل أوروبي، ناسيا تأثير الحضارة الإسلامية ولغتها العربية على أوروبا ولغاتها من خلال الأندلس. إذ قال:

"ويمكن ملاحظة التطابق في اللفظ والمعنى في كلمة gossip الانكليزية و"قشبة" العربية. وقد يذهب الظن أول الأمر الى أن كلمتنا العراقية أو العربية مستعارة من الانكليزية، لكننا نجد في المعاجم العربية كلمة "قشب" بمعنى افترى وقشب الرجل: عسيره وعابه؛ أصابه بمكروه من القول. فهل جاء هذا التقارب في اللفظ والمعنى مصادفة؟".

إن هذا التصور الذهني يمكن أن يكون حين نلاحظ آلة صناعية في العراق، فيذهب الظن أول الأمر الى أنها من الغرب، لمعرفتنا القبلية بتخلفنا الصناعي، وتبعيتنا الاقتصادية. ولكن ينبغي ألا نظن ذلك في الميدان اللغوي، خصوصا إذا كانت المفردة ذات جذر عربي ثلاثي، مثل "قشب"؛ لأن لغتنا لها وجودها المستقل في معظم مفرداتها، ولها نظامها اللغوي الخاص المستمد من أمهاتها الساميات، دون إغفال التأثيرات اللغوية التي طرأت عليها من الخارج لأسباب عسكرية أو تجارية أو غيرها. وهي في علاقة استيراد وتصدير مع اللغات الأخرى. لذا فالتطابق اللفظي والمعنوي بين بعض المفردات الانكليزية وبعض المفردات العربية، لا يصح أن يكون مقياسا لأصلية الأولى وفرعية الثانية. إن هذا المقياس يذكرني بشكل معكوس بنظرية لغوية لها علاقة بالفكر التقديسي. إذ تقول: إن أصل اللغة الانكليزية عربي. فكلمة arrive مأخوذة من (رفأ) وكلمة cut مأخوذة من (قط)... الخ. وهذا فكر ميتافيزيقي لا يعبر عن الواقع.

وقال الأستاذ أيضا: "ومن الروسية انتقلت إلينا كلمات مثل "الجاي" و"الاستكان" و"السماور" و"الفرפורي" و"الشفقه" أي القبة. وكثيرة هي الألفاظ الفرنسية الدخيلة الى العربية، والعراقية الدارجة".

لم أستغرب أن تدخل إلينا مفردات كثيرة من اللغة الفرنسية، لأن الوسطة التي حملت تلك المفردات معلومة عند الجميع. فالألفاظ الفرنسية دخلت إلينا عبر قناتي مصر وبلاد الشام اللتين كانتا محتلتين من قبل فرنسا؛ ولكني استغربت وتعجبت حين قرأت أن مفردات روسية دخلت إلينا. ومبعث استغرابي وتعجبي يأتي من عدم وجود تفسير يدعم ذلك التأثير تاريخيا. لذا سعيت للتحقيق والتدقيق في تلك المفردات الخمس. فإذا كلمة "الجاي" هندية. وأميل الى أن أصلها هندي بحكم إنتاج الهند هذه المادة. ولعلها انتقلت الى

روسيا وغير روسيا. وإذا كلمة "السماور" وكلمة "الاستكان" تستعملان في اللغة الفارسية. ويميل بعض الإيرانيين المهتمين باللغة الى أن أصل الكلمة روسي لإنتاج "السماور" في روسيا، ولكن بعض التركمان يميل الى أن أصلها هي وكلمة "الاستكان" آذري. والآذريون حلقة وصل بين روسيا وإيران. وإذا "الشقة" كلمة تركية. ومهما يكن فإن جزم الأستاذ أن هذه الألفاظ روسية هو حكم فيه أخذ ورد، اعتمادا على الناطقين بهذه اللغات المختلفة. أما "الفرفوري" فهي كلمة صينية محرفة كما بينها العلامة الفقيه هادي العلوي وربطها بالتبادل التجاري بين العراق والصين في العصر العباسي. وما يؤكد هذا أنني رأيت الإيرانيين يقولون "قوري جيني" أي صيني بدلا من "قوري فرفوري".

٣- وقال الأستاذ الشوك:

"نرى أن بعض ألفاظنا الشعبية نابية في معانيها. فكلمة "مصلخ" مشتقة على ما يبدو من "مسلوخ" وهذه قبيحة ولا شك في الدلالة على العربي. وبالوسع ذكر كلمات أخرى من هذا المستوى".

وقال أيضا: "وحتى سؤالنا المعروف عن الأحوال والصحة: "شلونك؟" لا ينم عن ذوق في التعبير.. في مقابل ذلك ثمة ألفاظ دارجة أخرى لها جرس صوتي جميل ومعير، مثل "أوي" التسوية".

أعتقد أن الكلمات رموز لغوية مصطلح عليها للإشارة بها الى أشياء معينة، فهي بذاتها لا تحمل قيمة جمالية، إنما قيمة كل كلمة تأتيها من كيفية توظيفها في السياق التعبيري، ومن الحالة النفسية التي تضيف عليها تلك القيمة سلبا أو إيجابا. لذا فالحكم على ألفاظ بالقبح وأخرى بالجمال، خارج سياقها الخاص، وخارج الحالة الشعرية، مرتبط بالتجربة الذاتية التي لا يصح تعميمها.

ومهما يكن فهذه مسألة خلافية تتعلق بفلسفة الجمال في اللغة. ولا أدري أين يكمن عدم الذوق في سؤالنا الموروث "شلونك"، الذي يتوازي مع أي سؤال مثله في أية لغة أخرى؟

* يبدو لنا أن الأستاذ علي الشوك لم يشعر بضرورة تفسير "عدم الذوق" في تعبير "شلونك؟" اعتمادا على ذاكرة القارئ التي تحتفظ بما أشار إليه العلامة للراحل (مصطفى جواد)، حين فسر الأصل اللغوي والتاريخي لهذا التعبير، إذا أشار الى أنه نحت لجملة "أي شيء لوتك؟" التي سالت في العراق والمنطقة، أيام جائحة من جوائح الطاعون الذي ينحو لون المصاب به نحو اللون الأصفر. ولا ننكر أن الراحل مصطفى جواد قد تطرق الى المسألة الذوقية، بينما سجلها الأستاذ علي الشوك. (المحرر)

٤- وقال الأستاذ الشوك:

"التكرار في اللفظ، أو الاتباع في ترديد كلمتين متقاربتين في اللفظ يكثر في عاميتنا، كقولنا: شكو ماكو؟ وهوله جولة (...) و"اشوبج وألويج" و"شعوطني وكلوطني" ولعل "أشوبج" من الشبح أما "ألويج" فلا أدري من أين جاءت".

اكتشاف هذه الصيغة التعبيرية الطريفة تدل، بلا شك، على انشغال الأستاذ الشوك بعاميتنا، وعلى عمق ملاحظته وحسن استقرائه. ولعله قاسها، في رغبته التحليلية، على نوع من الجناس في العربية الفصحى، الذي تتشابه فيه الكلمتان لفظاً، وتختلفان معنى. وهو قياس في محله، ومصيب به. غير أنني لاحظت كثيراً ما يوتى بالكلمة الثاني لا لمعنى، وإنما لتحسين اللفظ، أو للتجانس الموسيقي، أو للمبالغة. والدليل على ذلك الحكاية الشعبية التالية:

(أراد رجل أن ينقل "قريولة" و"قنفة" و"كرسي"، فسأل الحمال: كم تطلب لتتقل هذه الأشياء الثلاثة؟ أجابه: مائة فلس. فاستكثر الرجل المبلغ قائلاً: هذا كثير. قال الحمال: ليس كثيراً. عندك "قريولة ومريولة" و"قنفة ومنفة" و"كرسي ومرسي". حينئذ وافق الرجل وقال: إذن أعطيك خمسين فلساً واحمل لي "القريولة" و"القنفة" و"الكرسي" وأنا أحمل "المريولة" و"المنفة" و"المرسي".) فهذه الثلاثة الأخيرة لا تدل على شيء، وإنما جيء بها للمبالغة. وقد رأيت أهل المغرب الأقصى يستعملون مثل هذه الصيغ التعبيرية في كلامهم كقولهم "سيري ميري" و"لا خدام ولا ردام" أو "لا خدمة ولا ردمة" وحين سألت عن الكلمات الثواني، لم أجد معنى لها. ولا شك أن هناك صلة بين عاميتنا وموروثنا العباسي، وعاميتهم وموروثهم الأندلسي. وبين المشرق والمغرب الإسلاميين علائق حضارة إسلامية واحدة. فليس من غرابة في هذا التماثل والتشابه.

وميطئ الختام إعادة ما قاله الأستاذ الشوك في خاتمة مقاله الجميل:

"وبعد، إن دراسة منهجية للفتنا العامية، وتتبع جذور مفرداتها، وتحليل قواعدها وطرائق التعبير فيها، مهمة لا تزال تنتظر من يتصدى لها".

الفنان منذر حلمي:

انتزعت من خشبة المسرح اعتسافا

حاوره: صبري هاشم

"هل يمكن أن يستوي الفعل وعدم الفعل..

أن يتكافأ الخير والشر، الظلم والعدل؟"

هذا مقطع من نص بابلي، يستحضره الأبناء على أبواب الألفية الثالثة. نص يفيض عن نفسه غبار الأحقاب، ليعتلي خشبة مسرح غربية في مدينة نائية لا تمت بصلة إلى أرض ولادته. نص انكتب في عمق التاريخ، ليخرج في كل الأوقات. نص كأنه انكتب لزماننا ولنا. فهل تشابهت الأزمنة؟، وإن تشابهت فهل تشابهت الأمكنة أيضا؟ نص كهذا ربما انكتب للذين اقتلعوا من أوطانهم وأقسروا على حياة المنافى، لكي يعيدوا ترتيب الذاكرة في ساعة تأمل فالتة من الزمن.

مسرحية (السيد والعبد) التي ستعرض* على خشبة مسرح (قصر الثقافات العالمية) في برلين، كانت مناسبة للقائنا بالفنان القدير (منذر حلمي) الذي سيمثل دور السيد في المسرحية، فعلى هامش التدريبات التي يقوم بها إلى جانب الفنان القدير (خليل شوقي)، أجرينا معه حوارا، تناول هموم المسرح العراقي ودور المثقف لمواجهة التدهور الحاصل في الثقافة العراقية.

* بدأ عرض المسرحية يوم ١٩٩٩/٤/٢.. لنظر متابعة للعرض في هذا العدد.

* بعد غياب سنوات طويلة عن خشبة المسرح، كيف وجدت نفسك في خضم التدريبات الجديدة، وما هي الدوافع التي جعلتك تعود الى العمل المسرحي، رغم وجود أكثر من فرصة للعودة سابقا؟

لم أغادر خشبة المسرح بمحض إرادتي. لقد انتزعت منها اعتسافا. مثلي في ذلك مثل المسافرين الذي تنتزع منه بطاقة السفر ويرمى على قارعة الطريق، والرحلة لم تنته بعد. أنكر أن سوء الحظ رافق نشاطي منذ أن منعت وزارة الإعلام في بغداد عام ١٩٧٦ مسرحية - دائرة الطباشير البغدادية، التي أعدها وعرقها (عادل كاظم) عن مسرحية - دائرة الطباشير القوقازية - لبريشت، وأخرجها الراحل (ابراهيم جلال) للفرقة القومية التي استضافتني لتمثيل دور المعنكي فيها. لقد منعت هذه المسرحية بعد أن عرضت ليوم واحد فقط، إذ اتهمت بأنها مسرحية معادية وتدعو الى التشهير بالنظام وبمؤسساته. وحدث ما يشبه ذلك، عندما أخرجت مسرحية (قصة الدكتور بالمي) لفرقة (مسرح الغد) العراقية في بيروت، وعرضت المسرحية ليوم واحد أيضا، فقد اجتاحت إسرائيل لبنان حينذاك، وتوقف عرض المسرحية وسط غصّة غضب مزدوجة.

أما عن عودتي مؤخرا الى المسرح، رغم أن المخرج (عوني كرومي) كان يلح علي، ولأكثر من ثلاث سنوات، لعمل مشترك معه، فقد تباطأت بداية في الاستجابة لرغبته لأسباب عديدة، أهمها أن جدول أعماله متقل بالمواعيد، وغالبا ما تكون مفردات هذا الجدول متضاربة، ومنها أنني لم ألتجأوب بما فيه الكفاية مع النصوص التي قدمها لي، إما بسبب بنائها الفني، أو لأنها لم تكن ملائمة لجمهورنا في المنفى. ولكن ما إن قدم لي نص (حوار السيد والعبد) حتى وجدت فيه ما افنقذته في النصوص السابقة. فهذا النص الذي كتب قبل الميلاد بقرون عديدة، يبدو وكأنه كتب في الحقيقة لنا نحن الذين ننتهيا لاستقبال القرن الواحد والعشرين. فهو نص مفعم بالدلالات الإنسانية المتوجهة صوب المستقبل. نص انبثق من صميم معاناة البشر الكادحين والمستعبدين. ليتجاوب مع معاناتهم ويتلمس وإياهم طريق الخلاص. فما إن فرغت من قراءة النص حتى اتصلت به للتو ناقلا له إعجابي الشديد بالنص، ورغبتي الملحة في أن نعمل سوية من أجل أن ترى هذه المسرحية النور. ومما ضاعف من اندفاعي في هذا الاتجاه، اتفاقي مع المخرج على اختيار الفنان الكبير (خليل شوقي) لتمثيل أحد دوري المسرحية. فالصديق الفنان القدير (خليل شوقي) مكانة أثيرة لدي، لما يتمتع به من قدرة فنية عالية، وشخصية جادة، لم تفرط، على امتداد مسيرتها الفنية ورغم شتى صنوف الإغراء والوعيد، بما آمنت به من مبادئ وقيم.

* نتحدث عن النص إذن.. ماذا يعني النص بالنسبة إليك؟ ما الذي يضيفه

النص الجيد للفنان، ما الذي يأخذه للنص الرديء؟

عذرا إذا بدأت بالجمهور، قبل التحدث عن النص. فقد كان هناك جمهور للمسرح، قبل أن يرى النور أي نص مسرحي، بالمعنى المألوف للنص. إذ مثل وقوف الممثل أمام المشاهد، كما هو معروف، البداية الحقيقية لولادة فن العرض المسرحي. وعندما واجه اليوناني - ثيسيس - المولود في القرن السادس ما قبل الميلاد ولأول مرة، الجمهور كممثل، بعد أن أنسل من جوقة الغناء، وأخذ يمثل هو نفسه في مواجهة الجمهور وقائع الأحداث ويتقمص شخصياتها ويجسدها بأدواته التعبيرية مستعينا بالأقنعة، لم يكن بحاجة آنذاك لا إلى مخرج ولا إلى خشبة مسرح شبيهة بما هي عليه الآن، ولا إلى مؤلف مسرحي بمواصفات اليوم. كل ما كان بحاجة إليه في المقام الأول هو الجمهور. فعندما أختار النص، أكون في الحقيقة قد اخترت الجمهور الذي سأقدم إليه هذا النص، أو سأتوجه إليه في واقع الأمر بهذا النداء، والعكس صحيح أيضا. فالمسرح هو في نهاية المطاف ظاهرة اجتماعية، ولا يوجد بالتالي نص مجرد، متعال على الجمهور. وكل نص ينطوي على مضمون فكري، على موقف متميز من صراعات المجتمع السياسية والثقافية والاجتماعية. وهو إذ ينبثق من خضم هذه المستويات، يعبر بالنتيجة عن مصالح هذه الشريحة الاجتماعية أو تلك، أي يقف بالضرورة مع مطامح هذه الطبقة ضد مطامح الأخرى. ومن جهة نظري يعبر النص الجيد، على الأقل النص الذي يتماشى والمرحلة التي نعيشها، ولا يمكن هنا أيضا فصل الشكل عن المضمون، عن التطلعات المشروعة لقوى الإنتاج الحية في المجتمع، ويقيم علاقة جدلية معها، يتعلم منها، ومن ثم يقدم هو نفسه رؤيته إليها في صياغة فنية تركز على الإيمان بقدرة الإنسان في تغيير الواقع بدل الاكتفاء بتفسيره. والنص الجيد يستحث الجمهور على المشاهدة الفاعلة بالضد من تلك التي تتسم بالسكونية والتلقي السلبي وعدم الاكتراث. ومن جهة ثانية يفجر النص الجيد طاقات الفنان الكامنة، ويتحدى أدواته التعبيرية، وينتشلها من النمطية والخمول، ويستفز ذهنه، يحفر في ذاكرته، ويبحث في ثنايا تجاربه وخبره الحياتية، عما يغني علاقتهما المتبادلة، فيكمل عندئذ كل منهما جملة الآخر، لتتشأ جملة جديدة، هي جملةتهما معا، جملة تتسم بالجدة والراهنية، جملة قادرة على إقامة صلة خصبة، نابضة بالحياة والنماء مع الجمهور، في حين يعجز النص الرديء أو بالأحرى الاختيار الرديء للنص عن تقديم عرض مسرحي بالمواصفات التي تحدثت عنها قبل قليل. فهناك نصوص تعتبر جيدة بحد

ذاتها، نصوص للقراءة أو للتقديم على المسرح ضمن ظروف مناسبة. بينما تتمتع نصوص أخرى بسمات مميزة أخرى، منها سمة الامتداد والقدرة على التواصل مع أوسع الناس. فهل من الممكن على سبيل المثال إقامة حوار متبادل بين مسرحية - البخيل - لموليير وبين الجمهور البولوني الذي كان يتوجه خلسة أثناء الاحتلال النازي لبولونيا الى مكان سري، كيما يشاهد عرضاً مسرحياً يلهب حماسه ويرفع معنوياته، بما يعزز قدرته على المقاومة والصمود. قد يبدو هذا التساؤل ناقلاً. ولكن مازال هناك للأسف من لا يقيم وزناً لهذه الاعتبارات.

* في هذا المنفى الذي تعمقت فيه أحاسيسنا بالخيبة وتداخلت فيه الأوراق، ما هو الدور الذي يمكن أن يضطلع به المثقف لمواجهة هذا المأزق؟

وماذا يمكن أن يقول المرء عن المنفى! أتذكر هنا بلاغة ما قاله ناظم حكمت عنه. عن المهنة الصعبة ومشاقها. وإنني لأشعر وأنا أسير في دروب المنفى، وكأنني أحمل الأرض على كاهلي، بدل أن أتحمسها تحت أقدامي. ازداد المنفى قسوة ومرارة، بعد أن اهتز المثال وتلاحقت الخيبات وغابت المرجعية أو كادت. فطفح على السطح المشروع الفردي بعد تراجع ما هو مشترك وشامل. ومع ما في هذا المشروع من حرية القرار والإحساس العالي بالمسؤولية، إلا أننا وإزاء المخاطر التي تتهدد الوطن بالانفلاش والتمزق، وإزاء الشلل الذي يدب في أوصال المعارضة والنفرة التي تطبع علاقاتها مع بعضها والتوجهات الإشكالية، ولا أقول المريبة، لعدد من أطرافها، مدعوون الى وقفة تأمل جادة. وتقع هنا على المثقفين العراقيين بالذات، وعلى اختلاف مشاربهم الفكرية وانتماءاتهم السياسية، مسؤولية استثنائية، تتمثل أول ما تتمثل في أن يستحيل لديهم الوطن الى قضية، قضية تخرج من معطفها وتتعب خطواتها أية قضية أخرى. فهل هم قادرون حقاً على تغليب لغة الحوار بينهم واحترام حق الآخر في الكلمة. وعلى التبشير بشجاعة بقيم الديمقراطية والتبادل السلمي للسلطة ورفض أي شكل من أشكال عودة سلطة اليقين والحكم الشمولي المتخلف، تحت أي شعار اختفى، سواء تستر باسم الأمة أو الطبقة أو الدين. لا تشي الوقائع هنا بالكثير، ولكن المهم أن تكون للحركة في هذا الشأن الأهمية كلها.

* وما دمنا بصدد الحديث عن المنفى.. ربما أضاف هذا المنفى شيئاً أو أخذ شيئاً من الشعر، الرواية، الموسيقى، الفن التشكيلي. فما السذي أضافه أو أخذ المنفى من المسرح؟



لقد أخذ المنفى من الجميع الكثير. وألحق بالجميع ضرراً بالغاً، تمثل في افتقار الطمأنينة والابتعاد عن الجذور والإحساس المرير بوحشة الغربة، وتمثل أيضاً بانسطار الذات بين مطالب الروح وبين مستلزمات الحياة اليومية. وإذا كان المنفى قد أخذ من الجميع، فإنه أخذ ما هو أكثر من ذلك من المسرح. فالمسرح فن جماعي يستلزم توافر عناصر عديدة معروفة، من ممثلين

ومخرج ومصمم أو منفذ ديكور وإنارة وموسيقى تصويرية.. الخ، في الوقت الذي أدى توزع الفنانين على مدن الشتات إلى وضع عراقيل جدية حالت في أحيان كثيرة دون اجتماعهم ومواصلة العمل سوياً. وهناك خاصية أخرى يتميز بها المسرح، فكما أن المسرح ظاهرة اجتماعية، فهو حدث اجتماعي كذلك. فأنت تستطيع أن تشاهد التلفزيون، تذهب إلى السينما، تزور معرضاً تشكيلياً، تقرأ شعراً أو رواية، دونما حاجة إلى حضور الممثل والفنان التشكيلي والشاعر أو الروائي، ولكنك في المقابل لا تستطيع مشاهدة

مسرحية ما على المسرح في ظل غياب العاملين فيها. الأمر الذي يحد من حرية الحركة في المجال الإبداعي لفن المسرح.

ولا شك أن المنفى الذي أخذ منا الكثير، أعطانا هو الآخر ما افتقدناه في وطننا من حرية وطمأنينة، وأغنانا بتجارب الآخر وخبراته، وبما يفسح في المجال لاتساع حقل اهتماماتنا ومعارفنا.

* جيل الرواد مازال فاعلا ومؤثرا، هل هذا الدور متأت من شعور هذا الجيل بمسؤولية تاريخية؟

لا غرابة أن يواصل العديد من الرواد نشاطه المسرحي. وينسحب هذا على من يقيم منهم في الداخل أو من اضطر لمغادرة أرض الوطن. فالمسرح العراقي ومنذ بداياته مسرح ملتزم، يستمد مضامينه من تطلعات جماهير شعبه ونضالاتها، وينفتح من جانب آخر على التجارب المسرحية العالمية، ذات الأفق الإنساني والمستوى الفني الرفيع.

ولعل الاهتمام المبكر للمسرحيين العراقيين بالمضمون الاجتماعي للمسرح، يعود الى العلاقة العضوية التي نشأت بين الحركة الوطنية العراقية وبين رواد المسرح العراقي ابتداء من أوائل الثلاثينيات. والجدير بالذكر هنا العلاقة التي كانت تربط الفنان الراحل (يحيى فائق) ببعض قادة الحزب الشيوعي العراقي الذي أولى، ومنذ تأسيسه، المثقفين عموما اهتماما فائقا، وأدرك طبيعة دورهم المتميز في التغيير. واعترف باستقلالية قرارهم فيما يتعلق بالشأن الإبداعي والمهني لهم. ولكن يبدو أن هذه العلاقة لم تكن كذلك في جميع المراحل. بل عانت أحيانا من اختلالات لصالح بعض قدامى الفنانين، الذي ينطلق في تعامله مع الآخر من روح الوصاية والهيمنة، والذي كثيرا ما شوش على التطلعات المشروعة للمسرحيين الشباب ووضع دون نشاطهم شتى المصاعب.

* والآن وبعد عشرين عاما من الحروب، أين تضع المسرح العراقي أو الحركة الفنية العراقية من الحركة الفنية العربية؟

لا يجلب الحديث عن المسرح العراقي للأسف سوى الكدر والأسى. سواء تعلق ذلك بالمسرح العراقي في الوطن أو هنا في المنفى. فبعد كل ما سببته الحروب وغياب

الديمقراطية من مأس وكوارث للعراقيين وعلى جميع الصعد الاجتماعية والثقافية والسياسية فلا بد أن يصل المسرح هو أيضا الى مآل مزرر. إذ اعتلت خشبة المسرح بعد انحسار المسرح الجاد، عناصر لا علاقة لها بتقاليد مسرحنا العريقة، وليس لها أدنى ارتباط بهموم الناس ومشاعرها فتحققت السيادة للمسرح التجاري الاستهلاكي، الذي يعتمد على إثارة الغرائز الدنيا، على استدرار الضحك الرخيص وإشاعة روح الخنوع والانتهازية، ومما يفاقم الأمر سوءا أن عناصر نمائية تسهم بشكل أساسي الآن في إشاعة الابتذال والتدني المريع للعرض المسرحي العراقي. ولا يسعني هنا إلا أن أقول أين هن من عطاء زينب، ناهدة، آزادوهي، وداد سالم، مي شوقي، إقبال محمد علي.. التي أخرجت هذه الباقة العطرة من فناناتنا، وأشيد بهذه المناسبة بالفنانات، نماء الورد، روناك شوقي، أنوار أحمد، اللاتي يواصلن في المنفى عطاءهن على هدى تقاليد المسرح العراقي وسط ظروف بالغة التعقيد. أما إذا انتقلنا الى المنفى فيحق لنا هنا أن نعلن اعتزازنا وتقديرنا بالجهود المضنية التي بذلها وبذلها المسرحيون العراقيون لمواصلة نشاطهم بالروحانية ذاتها التي اتصف بها مسرحهم العراقي وسط صعاب لا تعد ولا تحصى.

وعن وضعنا إزاء الحركة الفنية العربية فأعتقد أننا نبحر معا في قارب واحد. فالثقافة العربية تعاني، راهنا، من حالة ارتداد وانحسار خطيرين، إلا من التماعات هنا وأخرى هناك، بعد النكسة التي أصابت المشروع الوطني الديمقراطي العربي، وسقوط المعسكر الاشتراكي، وشيوع الفكر الديني الحديث ذي التوجهات الرجعية والمحافظة، والممتد بجذوره الى فكر (أبو الأعلى المودودي)، الذي يصادر العقل، ويزدري حرية الإنسان، ويشكك بقدرته على التغيير.. فلا عجب مثلا في ظل ظروف التراجع والانكسار هذه أن تحظى كتب الدكتور (مصطفى محمود) الماركسي سابقا بأعلى رقم في سوق مبيعات الكتاب العربي، وهي كتب تتسم بالتبسيط واستغلال عقل القارئ، وكأنها صكوك غفران بأسعار مخفضة. ولا عجب أيضا أن ينتقد (جورج طرابيشي) الماركسي السابق كذلك، المفكر (سمير أمين) على إحدى صفحات جريدة الحياة لعام ١٩٩٧ عندما تصدى لنقد كتاب الثاني - تحديات العولمة - مشبها إياه بوضع الجنود اليابانيين الذين بقوا سنوات طويلة يهيمنون في الغابات ظنا منهم أن رحى الحرب مازالت تدور.. داعيا إياه الى إعلان الولاء للرأسمالية والاعتراف بفشل الاشتراكية، ومدعيا بأن الرأسمالية نفسها في مسار تطورها هي وحدها القادرة على تجاوز تناقضاتها.

* إذا كان للنظام دور في تدمير الثقافة العراقية ومنها الحركة المسرحية، فأي دور تلعبه المؤسسات المضادة لهذا النظام؟

تنتمي المعارضة هي الأخرى الى مجتمع ذي تكوين هجين، لم تتحقق فيه السيادة الى أي نمط من أنماط الإنتاج، كما لم تكتسب فيه الطبقات بعد قواما نقيًا خالصا، محدد الملامح. ولذلك ما فتئت الشرائح والفئات الاجتماعية فيه رهينة هذا الاختلاط وعدم الاتساق. وهي في حالة حراك دائم بين ولائها للأعراف والقيم الإقطاعية المهيمنة وبين نزوعها الى التغيير. وهو أحد الأسباب المهمة الى جانب عدم وجود ممارسة ديمقراطية يعتد بها، في إخفاق المعارضة، حتى الآن، في الاتفاق على البديل الديمقراطي. والمعارضة العراقية عاجزة بالتالي بحكم وضعها هذا، والأمر لا يتعلق هنا حتى بنياتها، عن تقديم عون فاعل الى المثقفين في المنفى، فهي نفسها لم تتحول الى حالة ثقافية، يزدهر في ظلها ما هو معرفي ومستقبلي، ليحل محل خطابها الفئوي، المتكئ على الاعتبار الآنية، والمزدهم بالشعارات المجردة التي لا يربطها أي رابط بالواقع التاريخي الملموس، ولا تعبر كذلك عن المصلحة الحقيقية المشتركة لجماهير شعبنا. كما أنها تصدر في نهاية الأمر عن ايديولوجيات متعددة، ومنها ما يتقاطع مع الثقافة الحرة ذات التوجهات الانسانية. وهناك من يتحدث عما حققه المثقفون التشيليون أيام المنفى من إنجازات وعن الدور المؤثر الذي مارسته هذه الإنجازات في مختلف حقول الإبداع على طرح قضيتهم، بما يعزز التضامن العالمي معهم، ويقارن ذلك دون تفحص بما فعله المثقفون العراقيون في هذا الشأن ودون أن يأخذ بنظر الاعتبار تباين الوضع التاريخي في كلتا الحالتين، والدعم متعدد الجوانب الذي قدمته أطراف المعارضة التشيلية لمثقفينا، وافتقاد المثقفين العراقيين على العكس من ذلك، الى أي دعم وعون مادي ومعنوي مؤثر من المعارضة العراقية. ومازلنا نراهن في هذا المجال على التيار الديمقراطي، رغم إمكاناته المادية المتواضعة.

* لنعد الى مسرحية السيد والعبد، ماذا تمثل بالنسبة لك شخصية السيد؟

شخصية السيد في المسرحية، شخصية مركبة تند عن التمييط والتبسيط في التعامل معها. فهي ليست شخصية مكتملة ومنغلقة على أناسها وإنما هي شخصية مشروطة بظروفها وزمانها، تتأثر بمحيطها وتؤثر أيضا فيه. وانطلاقا من التأثير المتبادل هذا

تتشكل مواقفها وتتباين عواطفها وآراؤها. بناء الشخصية هذا المتسم بالثراء والغنى، أتاح لها إمكانية الخروج من مسارها الخاص، لتحل ضيفا مؤقتا إن جاز التعبير، على شخصيات أخرى متباينة الأبعاد والموقف، لتعرض لنا أحوالها وطبائعها، ومن ثم ترتد ثانية الى عالمها الخاص، الأمر الذي يسهل على ممثل هذه الشخصية أن يغرب أداؤها، فينزعها من حضورها المألوف والمعتاد ليضعها في حالة جديدة، تثير انتباه المشاهد، وتضع مسافة بينه وبين الشخصية، فيتحول من متلق سلبي الى مشاهد فاعل، يسائل النص ويدخل معه في حوار واع، بل وربما يتناقض معه. وإذا ما غادرنا البناء الفني للشخصية فأرى أنها تمثل شريحة من المثقفين الذين تتميز مواقفهم بالتأرجح بين الانحياز الى سلطة الاستبداد والقهر ويمثلها في المسرحية - القصر - وبين الاصطفاف الى جانب الشعب في نضاله من أجل العدالة الاجتماعية والحرية.

*** هل أضيف شيء للنص، أو جرى الخروج عنه، ولأي سبب؟**

لم يجر الخروج عن النص، بل التزمنا به كما هو. فهو نص كما قلت، محكم البناء ومكتوب بعناية واقتدار. وكل ما قمنا به هو محاولة تعريق المسرحية، سواء كان عن طريق إضافة بعض المقاطع باللهجة الدارجة، وفي ما يتعلق بدوري، قمت أنا بهذه المهمة. أو أيضا عبر التلوين في الإلقاء، بما يقارب زمننا الراهن ويجعل المسرحية أكثر معاصرة وراهنية. وأعتقد أن هذه الإضافات لم تخل بوحدة النص واتساقه، بل جاءت منسجمة مع روحيته وخطه العام.

*** أخيرا ما هي مشاريعك القادمة؟**

أطمح ألا تكون هذه المسرحية هي الأخيرة، وظروف المنفى ليست مشجعة، ولا يستطيع المرء، اعتمادا عليها، أن يتبأ بما سيقوم به مستقبلا من أنشطة.

محطات فنية

*** الفنان منذر حلمي، عضو مجلس نقابة الفنانين العراقيين في الدوريتين الأولى والثانية وعضو لجنة المراقبة في الدورة الثالثة، كما أنه عضو المركز العراقي**

- للمسرح وسكرتير فرقة مسرح اليوم منذ عام ١٩٧١ حتى ١٩٧٩.
- * نال جائزة المركز العراقي للمسرح كأفضل ممثل للموسم المسرحي ١٩٧٤ - ١٩٧٥ عن دوره في مسرحية (عروس بالمزاد).
- * كانت بداياته في مسرحية (شعلة في الصحراء) من إخراج الفنان (أسعد عبد الرزاق) عام ١٩٥٤، وتعتبر من نشاطاته المدرسية. كذلك مسرحية (البخيل) لمولير، من إخراج الفنان (جعفر السعدي) عام ١٩٥٥.
- * مثل في مسرحية (مسرحية في القصر) إخراج الفنان (محسن السعدون) - فرقة المسرح الفني الحديث.
- * وفي (الكورة) من تأليف (طه سالم) وإخراج الفنان (محسن العزاوي) - فرقة اتحاد الفنانين.
- * ومن إخراج الفنان (عبد الوهاب الدايني) مثل:
- ١- البيت الجديد. تأليف (نور الدين فارس) - فرقة اتحاد الفنانين.
 - ٢- بهلوان آخر زمان - فرقة المسرح الشعبي.
 - ٣- العطش والقضية. تأليف (نور الدين فارس) - فرقة مسرح اليوم.
- * أما للمخرج (جعفر علي) فمثل:
- ١- السؤال. تأليف (محي الدين زنكنة) - فرقة مسرح اليوم.
 - ٢- عروس بالمزاد. تأليف (نور الدين فارس) - فرقة مسرح اليوم.
 - ٣- روح الياثورا - فرقة مسرح اليوم.
 - ٤- قصة حديقة الحيوان - فرقة مسرح اليوم.
 - ٥- مواطن بلا استمارة - فرقة مسرح اليوم.
- * مثل في مسرحية (دائرة الفحم البغدادية) تعريق (عادل كاظم) وإخراج الراحل (ابراهيم جلال) - الفرقة القومية للتمثيل.
- * أخرج في بيروت (قصة الدكتور بالمي) لفرقة الغد العراقية.

Tu ne quit pas

تو نو كيت با ..

رجاء أحمد الزنبوري

يقف تحت الأنفاق بخريفه وخريف الأنغام، منكفئاً في مصابيح "توتتهام كورت رود". ليله يطغى على ليل الحزن والتذكر. بقامته الباسقة السوداء، منطفئاً في البلد الثلجي الأبيض، في حضنه تتموج أمواج الغيتار وترا وترا. على رأسه قبعة أشواك غريبة، غرابة وجوه المارين على ناصية الأوهام في ليل "توتتهام كورت رود". وهو يعزف، ينقر الوتر فينطلق النشيج. نداء ذابل لصوت مقررور. واللحن يتكسر ويكتظ بانعكاس الصدى والمرأة:

تونو كيت با

لا تتركيني

تونو كيت با

لا تتركيني

تونو كيت با

تنتشر عبر سماعات الرووس المحشورة في آذان الشباب العابرين، ضجة الساكسافون وصخب "البوب المجنون". تتضافر إعلانات قطارات الأنفاق ومكبرات

* اسم محطة أنفاق في لندن.

الصوت تلقي على المسافرين والأنفاق الأرضية تاريخ المواعيد والقرارات الأجش
بترنيمات مرورية معهودة.

لا يسمع أحد أنغام نقرات الغيتار الخفية المتباعدة. يبدو الصوت أشبه بنقرات متلاشية
لمطر ينشج على زجاج النوافذ. والدفع يحرس العابرين في قطارات الأنفاق. يجمعهم
لوهلة ثم يطلق سراح خطواتهم المبتعدة

تونو كيت با

.. لا تتركيني

تونو كيت با ..

لا تتركيني ..

تونو كيت با

يتطلع الرجل المغني الى قطع النقود النحاسية تتكوم تحت أقدام الغيتار. يعزف
ويعزف دون أن يسمع أحد مهرجان أنغام خريفية تتثال. تتصدع. لا يفهم العابرون سر
المعاني، وحفريات كلمات المغني. في النظرات نقشة غارقة، واسترخاء حذر، وذاكرة
تطريب صغير، بل واندهاش لانبعاث أغنية شارل ايزنافور المنسية على رصيف محطة
المسافرين.

العجوز الوحيدة التي ترقرت في عينيها دمة لم تكن انجليزية. والغيتار ظل ينوح
وينحب لم يعد يستلم من صاحبه الإيعاز. بدا العازف ذاهلا والغيتار وحده ينحب بعناد،
وبحزن يائس

تونو كيت با.. تونو كيت با

ينحني الرجل، يتطلع الى حبات النقود الرخيصة مستغرقا في ذهول. تتفرط حبات
الدمع. تتساب في نقرات ختامية للوتر المقرور. يتوقف الجسد عن الانحناء، فتتهمر
الأصداء.

يسحب المغني أوتاره وأحزانه، ويخلف النقود على رصيف توتتهام كورت رود". لا
أحد يرى نقود المغني. لم يسمع أحد نفثاته الحزينة:

تونو كيت با

وحين صمت الرجل لم يسمع أحد صوت الصمت. تتكفى ضجة اليوم عند انتصاف الليل الغارق في الظلمات. تتطفئ ألحان الليل في منفضة الصمت الغارق في الأسما..

تونو كيت با.. تونو كيت با

يجر جر الرجل أسما حياته. صمته وصورته والألوان الذابلة التي ضاعت على رصيف قطارات "توتتهام كورت رود" لا يابه إليها أحد.

يلملم الرجل آخر بقايا نشيجه المقرور. يفتح صرة أحلامه، فيتناثر الغبار، غبار البروق الكاذبة والأوهام الماجنة. ويحاول أن يلتقط الأنفاس.

يضع في صرة الأوهام بقايا الغيتار. ويرتب مدارج النشيح ويرقد بين الأصدقاء:

تونو كيت با..

تونو كيت با..

تونو كيت با..

نيسان ١٩٩٧

مساء ونارنج وأفكار عالية كالقمر

[الى ك . ح]

عدنان الزياتي

رغم أننا قد دفعنا الحساب قبلاً
وأفلسنا
مبديان امتناناً لأشجار تلتف المساء
فكن لطيفاً معنا يا غد
يا ثمرات نارنج سنقطفها بحشرة
كلما نريد أن نضحك.
ولأننا نتبادل النظرات
مأخوذين بمدينة هناك
بنهر فرات يشطر المدينة نصفين
نصف لحنطة أحنّت ظهور حمالين
وفلاحين ناموا بين محاصيلهم
حالمين على الرصيف بأرصفة أخرى
يغزونها في صيف آخر
إذا ما أمطرت
ونصف لحديد يخلق سكة لمسافرين الى
محبوباتهم

كنا نتبادل النظرات
واقفين
وأكبادنا فدى لصغار يدحرجون
أشياءهم من عل
الى أعماقنا المرفرفة مع فراشات
لاهيّة رغم الدوي.
حسنّا
واقفين أو جالسين
بصغار يهاجموننا بمسدسات ماء
أو بدونهم الى الأبد
أو قل نائمين على مصطبة
في موقف باص ببغداد
الى صباح فتش الجيوب التي خوت
عندما شربناها في اتحاد الأدباء مغشوشة
والمآزة نظرات تشخذ الأقلام
كليلة تسبق الأضحى
وسمعنا الدم يشخب

ومحطات لمراكب

ودراجات

وجمال لقاصدي عيون المها المبتوثة في

الأغاني

ومعسكر يوقظ الجنود كلما ناموا

وبيعتهم مع الغبار الى الدوامة

والنصفان لسنمات يتسابقن على عروض

أيها رأيت

رأيت راقصات يخضن بأفخاذهن أدغالنا

ونحن نصفان أيضا

يقتسمان أحلام مصلح دراجات

يمشي وموته يتقدمه

وبائع أسماك في حضوره كأنه يحمل

الشبكة

وفي أحاديثه أنهار

ورياضي يسجل أهدافه البلشفية

في ملاعب ألهمت الجمهور

وحلاق يفكر بمقاصل لعدو الطبقة

وامرأة تعلق صورة لينين

مثابرة على أممية في دكانها الشحيح

وماذا نقسم أيضا؟

خذ أحلام ثانوية البنات إذا طلعت أقمارها

من بين سياجات الى الحريق، وهناك

إطفائيون، تخير خوذة منهم وتسلق الى

شعلة لا تنطفئ مادام الواقفون بانكسار

يظنون منكسرين أمام مستشفى إسعافها

الوحيدة لا تسعف، بل تخط بين بيوت في

زعيقها الجارف مرضى وأصحاء

وخذ الإسفلت نهبا الى جسر معلق لن تمر

تحتة أوزة أرخبيل،

لكنه قمر ك

الذي لامس ذوابات النخيل نازلا الى

موجات سينهرن قصبيا كتلميذات إذا

أعاقهن عن نرق شد شريطين من حول

الجديله

وكسر الشعاع أمواج

أمواج

وهكذا تشهد من فوق ذاك الجسر حروبا

دون صوت

وقد ترى أعاصير محيطات في تلاطمها،

هنا

ولن يغير الوقت عقارب

فهي الثانية عشرة

إن أردت الثانية عشره

فالنصب عال في أول الجسر

وموضع الساعة ينصرف درجات عن

مكانه.

وبذا

تحررت من الوقت أيها المساح

وأقلت من قياس أراض سبخة

مجر جرا الطاولة الى مكانك المفضل

قبل أن يلتقي الجميع بفوضاهم فلا تعرف

ما لك

وما لقيصر.

ولو ظللت قليلا ها هنا

متأملا وجهك في زجاج البار وحدك

وسقطت أوراق أخرى عن جدران البيت
وتعري الحي باستسلام
لشتاء يتقدم
بالبرد الخيال
وسياط بيد البرد تجرحنا
وتجرح غيما في إثر غيوم
فتعال معي ندخل على الشتاء ضيفين،
رافعين أطراف بنطالينا وقافزين من هاهنا
إلى هاهناك نقاد أطفالا يصب عليهم
السياب أمطاره، ومجاعاته تهدد كرم
الضيافة فتصطفق الأبواب
إن لم تصف شباط في قصائدك الممطرة
وإن لم أمسرح الظلام
جوقتي نساء ينادين أطفالهن أن يعودوا
ونعود نحن من حيث أتينا، إن كان لنا أهل
وبيت في ذلك المطر،
والقصائد في عز الشتاء
توقد النار لشاردي أفكار
تتطاير أوراقهم وهم يرسمون
سنأخذهم معنا أولئك الشبان
إلى ساحاتنا
مندجين بأقلام رصاص
وفي خواطرهم أقواس قزح
قل لهم ارسموا خيولنا
وكيف تحطم السياج
تريد الفضاء واسعا
فلا تبدو الجراح
إلى حد نعش على شفاهنا

باقيا ريثما أعود
فهي ساعات
أمسرح فيها عنفواني
ويصفق لي الضباط
والأمن
والمقاولون
والتجار الذين أضحكهم دوري المهرج
رغم ياسي
ويأسك لا شك أضحك آخرين
في غيبتني
لأننا نكتمل في اليأس
وحجتنا قميصان مفتوحان
لطعنة واحدة
فإذا مت انتظرني لتراني
أهز عمودا ما في شارع البلدية
قائلا له يا أخي يا صديقي
سقطت أوراق الأعناب
وسقط الصيف مع الأوراق
وسقطت أوراق أخرى عن جدران البيت
وتعري الحي باستسلام
لشتاء يتقدم
بالبرد الخيال
وسياط بيد البرد تجرحنا
وتجرح غيما في إثر غيوم
وأعيد إذا لم تسمعني
سقطت أوراق الأعناب
وسقط الصيف مع الأوراق

مسرح	عائدين من الجولة
مسولين ستأثرهم على الحقيقة	وقد خسرنا الرهان
كشعراء يروجون لغبار غير هذا	يا خيولا ضاربة الى لون الشفق
سيلفح وجه أمي وأمك	والصهيل بعثر السروج في مدينة
جاءوا	أهلها جرحى يداوون جرحى
وحطوا تباعا على الطاولة	أترون
خناجرهم مع الأغمار	يا رسمي كاظم
ملمحين الى مصائر ما:	يا سعد علي
أترين كم تكون الحياة جميلة معنا	يا فاضل محيسن
فهانا لنا المدينة بنصفها	يا نعمة "إن كنت حيا"
بكل ما أحبيتماه فيها	يا بشير، أترون
وصاروا يلتقطون كسرا قمرية لشاردي	كنتم ترسمون لتهدة الجريح،
أفكار	وبعض من المواساة يكفي
أوراقا لرسامين	وبعض من الحب أيضا، ولكن
كلمات كنا سنقولها قبل أن نتبادل النظرات	الكثير، الكثير من الخناجر في أحزمة
وفي فراقنا وعيد	الذين جاءوا
يبرم منقوضا	ليطعنوا مروج الأقمار في الصميم
وينقض مبرما	ويطاردوا ممثل الأدوار من مسرح الى

١٩٩٨/١١/١٣

بعيدا... عن الغابة الزجاجية

جمال غمبار*

[إلى (ماريانا) في عذاباتها الجميلة، في قراءة أسرارها المعلقة]

في موجة متروكة بين تجليات البحر
وجنون القصائد، بحثت عنك
عن ظلك..

في المرايا المضاءة بشموع الكبرياء
بحثت عن اسم لك
بحثت عنك في كأس ملؤها السم والياقوت
بحثت عنك كغريق في قاع الليل..
بحثت.. وبحثت
ومشيت مع الفجر.. مشيت مع الأنبياء في وصاياهم الأخيرة
بنيت جدارا من الكلمات
شيدت محرابا من الوجد ودخان الغربة
بحثت عن وجه غجري

* شاعر ومحام من السليمانية. لهنتاجات شعرية باللغتين الكردية والعربية، نشر معظمها في الصحف والمجلات الكردية والعربية الصادرة في العراق وفي إقليم كردستان.

عن قلب، أتعبه التيه
بحثت عن قلب، صار بيتا لجرأة امرأة
تأتيني صباح كل خميس من وراء الأحداق
وتحاورني حول دموع، نرقتها فراشات مرتعبة
امرأة تغيب رسائلها عني أيام الجمع، وأيام عزاء الطواويس..
امرأة، بحثت عنها، داخل قفص تملأه طيور محترفة في اغتيال الأحاسيس
طيور كاسرة، سرقت تفاحة أنوثتها،
عبرت برزخ سمواتها..

طيور، أكلت من تغاريدها
ولم تبق من نظراتها، سوى ضوء سرمدي!

* * *

- ماريانا.. أيا جائمة في كل ركن معتم،
في كل زاوية من زوايا الكنائس..
إني بحثت عنك ومشيت مع الله، ودخلت باحة القيامة
ماريانا، يا امرأة

صليت من أجل الظفر بذنوبها الجميلة، وتمردها الطفولي
- ماريانا.. منذ أن مكثت في هذه الغابة الزجاجية
منذ أن دخلت هذه الجنة المهدومة
منذ أن وقعت في شباك القصاصد
منذ الألف قبل الميلاد..

منذ... ومنذ... وأنا أبحث عنك..!

أمشي مع الله.. وأبكي مع الله..

وأصلي على سجادة البحر، من أجل خطاياك البريئة!

- ماريانا.. هراء أن تقتربي من سراب، اسمه الزمن الرديء!
هراء أن تسترقي السمع الى آهات لونها دموع هاربة من أسوار المطر
ماريانا..

حديقتي الكثيبة تنتظر..

وهناك في الغابة الزجاجية.. الطيور الكاسرة تنتظر

وكائنات الجسد تستفيق
ونبوءتي تتراقص
وأغصاني الخائبة تغني..
كلها:

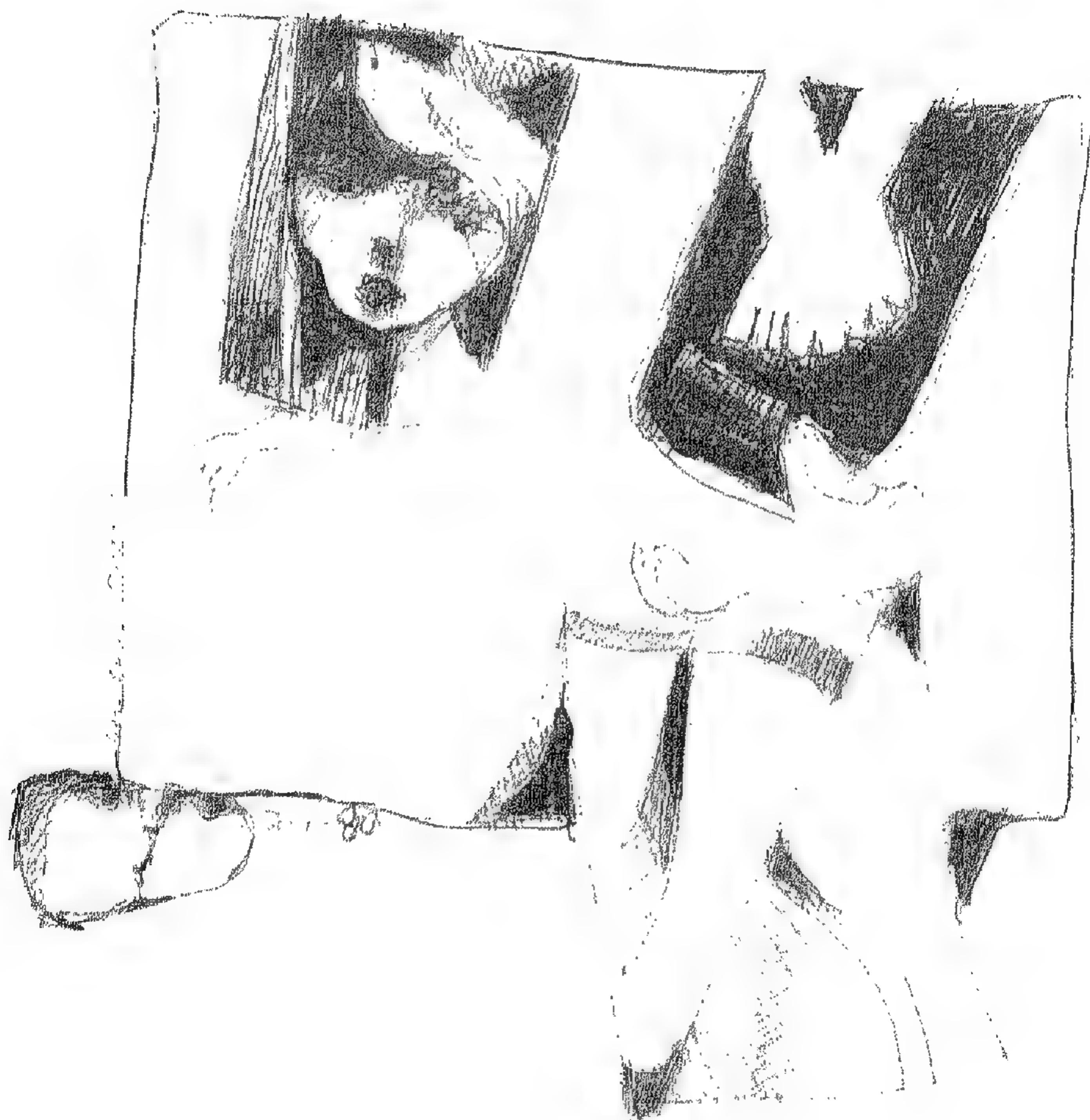
نبوءتي، حديقتي، مخلوقاتي.. تنتظر قبالة صباحات مزدحمة، بأسرار وعذابات
جميلة!

- ماريانا..

أيا جائمة في أسفاري ومسودات قصائدي
أيا محكومة بلحظات غفوتي
وساعات قتلي
محكومة برياح منافي الأزلية..
أراك نائمة في ثايا حلمي المهشم،
أراك واقفة بجوار السكون
وقرب نار الاحتمالات الوردية
حاملة فوانيس الفردوس والجنائن الغائبة
أراك ترسمين قصيدة لم تكتب بالكلمات..
أراك تنتثرين أسراراً معلقة
على طفل مشاكس.. هو، أنا!
أراك، معلقة على صليب من الزوال
سائرة في ليل حدائق مصنوعة من الأوهام
ماريانا..
ماريانا..
لا.. لن أترك حدائقك في هذه الغابة الزجاجية!

السليمانية

١٩٩٦



إصغاءات تحت مظلة غريبة

فارس فرات*

[إلى سلفيا بليث.. المرأة التي عبرت الماء]**

تحت غبار من شبق للدمع
أحاول النجاة من تقاطع بين جسدي الهارب الى فضاءات بعيدة
وفيزياءات تدبر دفة القافلة نحو مسافات أبعد
.. أراني أتهجى عزلتي
.. أهجم على رسائل قديمة أغمرها بالدمع
أصرخ بالريح أن كفى..
.. كفى عويلا

هذي صلاتي لرب لم أميز سوى كفيه الخشتين
أنا الهارب الى جزائر اللغة الأخرى
مدليا ساقى في طرف قصي من العالم هازنا بكتب التاريخ
لاعنا زورقي الذاهب رغما عني الى سراب الشواطئ
أنا لا أملك مراثي لكل الحزن في هذا العالم
قد أعرف كيف أوثث غرفات قلبي لفجيرة قادمة

* شاعر عراقي مقيم في المنفى الأمريكي، وهذه ترجمته لقصيدته المكتوبة - أصلا - باللغة الانجليزية.
** سلفيا بليث: شاعرة أمريكية انتحرت عام ١٩٦٣ و"عبور الماء" من أكثر مجموعاتها الشعرية التي نالت إعجاب القراء والنقاد.

ربّما أكون بارعا في العزف لقداس قادم
لضحايا حرب خاسرة
من ربح الحرب؟
لم تغادرني الطرقات الأليفة بعجالة؟
كل ما أعرفه أن رسائلتي لا تصل
والرمل يطارد إخوتي الأشجار
- فيفالدي يتوقف عن فصوله الأربعة، فجاءة وبلا سبب محدد
سأخرج - اللحظة - لشوارع العالم
معلنا بعض ارتباك
علني أجد الله مختبئا - في مكان ما -
ينشد بعض الدفء
مشارك الغريباء نبيذ القرى
علني أعثر - ولو لهنيهة - على صورة لك منسية في محطة ما..
أواه يا امرأة
في هذا التيه أتوق للتحالف مع دفء الغابات ولون النبيذ
كي أعلن كم كنت تملكين من قداسة النشيد وقسوة الملكات؟

قصيدتان / لحظتان

ناصر سرحان

لحظة حلم

ها أنت مازلت تحلم أن يأتيك الماء بنكهة الفرات
وفرحة الصواري، وظلال السفن المتعبة
وبهاء الشاطئ يغشي حماقات النوارس، وأسرار الصبايا، وصمت الطمي.
وأنت تخبئ لليل أسراراً أخرى
أو أحزاناً أخرى
أو أسئلة أخرى
من يعرف عمق المدينة في الجرح؟
من يستنطق روعي كي تعلن عن هذا الخوف؟
إن من بايع غربته ينكث ببيعة هذا الوطن.

هوغفين - هولندا

١٩٩٨/١٠/١

لحظة صمت

هادئة الغرفة!
فمن أين يأتي كل هذا الضجيج؟
أتسكن تحت الجلد الغابة؟
أم أن روحي عاودها الحنين؟
ملعون جسدي، ملعون هذا الطين
أهو طمي الفرات؟
أم غبار النخيل؟

الغرفة هادئة حقاً
الجدران الستة تخنقني
وضوء العتمة يرقبني
كي أخفت أنفاسي، وألوذ بصمت دمي، بصمت الوطن
بدخان حرائقي، بغدي المعلن خوفاً، بيسنين شتاتي وبؤس حقائبي.

الغرفة هادئة! إلا من ظلي وقوضى أوراقي
أحلم أن أرسم خارطة للحزن، وأتكئ خارج تلك اللوحة، هادئاً كالتابوت.
لكن الضوضاء تهاجم أحلامي، فتحمي حدود الخارطة
وتتكأ جرحاً يرقد مذ عقدين
جرح يسكن بين النهرين،
فتصبح كل الأشياء قطعان نئاب جوعى.. تضحج بالعواء.
أهادئة الغرفة الآن؟

هوغفين - هولندا

١٩٩٨/٩/١

تجليات الداخل والخارج

أحمد هاشم

لا تقل: أعطني الوطن بخرابه
 وخذ المنافى بجنانها...
 أتعثر في غسق يدثر القافلة بالسعال
 وأرى العيون الجائمة في (العراق) تطل
 نحو نجوم في آخر العتمة:
 (كم ؟!
 كم ؟!
 وكم مرة ضعنا في بلادنا؟!).
 والأرغفة وجوه من خشب
 أو شكل حارس منحوت
 ساعانق الموج إذ الأرض خراب
 وأخبئ الكلام لأقول آخر...

تتسع خطاي... (حين تضيق العبارة)
 وأفيض اشتعالا

شرودا..
 شرودا..
 أسعى إلى آخر الحديقة، محاولة أخرى
 أفصل الشوك عن الورد
 لائق... أنكر هروبي لأنهار لا يعرفها

أنت:
 بنيت المدينة ورفعت الجدران
 بفيض الألوان...
 مأخوذا بسحر الطفولة
 تسرق الطباشير وترسم أشياء على
 الجدران
 وأشرعت النوافذ والأبواب لحياة...
 كأنك تغض الطرف عن سهام...
 ... تهبط حتى قاع البئر
 تحديق في الأسماء المنسية
 وضحايا الحرب...
 تهبط... تتلاشى في صورة شخص
 مجهول في صحراء،
 أعوام وأنت في الصحراء...
 تصعد وتصعد... جنائن تطعم الشمس
 ألوانها
 أي ملكوت بنيت، سيدي؟
 تذبح الأزهار مثل الطفولة على أفواهنا
 هكذا اعتدنا
 وما نفوهنا... إلا وتبعثر الدم على كتب
 المدرسة

تكتنف فراشات تولد توا	سوانا..
تمسحنا من خراب...	أغني لبفسج ينأي...
وخارج السور مشنقة بجمال أخاذ	تسبقني الشفاه آفلة في الأفق تبحث عن
اسمها للكتابة	ابتسامه...
آه	وأعرف.. أعرف أنلي أقاسمك مرابا
(ما مر عام والعراق ليس فيه جوع)	وسماء نخلها في الليل
- آه واحدة لا تجدي	تتهشم قبيل الصباح
حين تخون الأشياء عاشقها	فنطق في ملامح مدينة
والأشياء تلوذ في عشقك الصوفي	نصغي لعشتار تقرأ الكف لأطفال
دليلا... لسهام الزعماء	العراق:
تتوهج الأشياء.. تتوهج	(... ..)
تحنو عليها إلى أي فناء...	(... ..)
بين الداخل والخارج [و] منحنية	ولكن: خلف الطريق الداكنه
والأرض تدور	ثمة باب الضوء...).
كيف الثباب؟ ونسغ الاغتراب مرات	اذكر أفعى تطل من عين الزعيم
فمشنقة الكتابة تحاورك حالما تتهاذى	مندمسة! فينا تحق، حيث كريات الدم
أحلام الجياح من المدينة...	شرنقة

"ملحق خاص بتجليات الداخل"

كنا نحمل أشجارا على أكتافنا
يستظل بفيئها الأباطرة

"ملحق خاص بتجليات الخارج"

في المنافي البعيدة
تهجر العناوين القصائد
وأسراب الطيور بلا دليل

"ملحق خاص بي"

كلما احترقت الروح، بكت غيمة...
لأحيا مجددا... للعذاب

ها جس

نجم محسن

أسمع صوتا يقول
"أقتله"
إنه أتى
إنه أتى"
كل ليلة
حين أنام، أترك يدي مرفوعة
لعل الله في الحلم، ينسى ويصافحني،
يضع يده في يدي، ويقول لي: لا خصلم
بعد الآن.

كل صباح
أحفر نفقا، يؤدي بي الى نهاية العالم.
أفتح فيه بابا يطل على النسيان
أرى سقراط فيه نائما
قابضا على لحيته
ناظرا الى المجهول.
كل مساء
حين أعود الى البيت، أرمي كتاب حياتي
تاركا كلماته تلوث الأرض
خاتما عليها بالشمع

١٩٩٧/١١/١٥

سحر الذوبان في البيئة

[قراءة في مجموعة فاروق أوهان (هديل على الحدود)]

محمود سعيد

لذة الاكتشاف:

في أول مرة زرت تل قايونجق، وهو مجمع آثار الآثوريين* القريبة الى الموصل، فوجئت بضخامة التماثيل وبخاصة تماثيل الثيران المجنحة، كان عمري نحو ثماني سنوات، وأخذت أتنقل بين تماثيل وتمثال من دون اهتمام، ولو لم ألتق تلك المعلمة التي كانت تدرسني لما تعلمت لذة الاكتشاف، استوقفتني المعلمة، سألتني فيما لو كنت قد رأيت التماثيل، ولما أجبت بنعم:

- أليس عندك أي سؤال؟

- لا.

- إذن أنت لم ترها.

- بلى رأيتها كلها.

- لا.. لو رأيتها لسألت: لماذا أصبح للثور وجه إنسان؟ اذهب.. انظر إليه جيدا.. لنر

كم سؤالا تستطيع أن تستخلصه منها!

آنذاك تعلمت كيف أستخلص الأسئلة التي تقودني الى لذة اكتشاف الأشياء، والتي

* الصحيح آثوريون، لأنهم كانوا يعبدون الثور، لكن الأوربيين المعاصرين لهم ما كانوا ينطقون الثاء فقلبوها الى شين أو سين، كما ظلت ثاء آثوريا أيضا وحولت الى سوريا.

رافقتني طوال عمري، ليس المهم أن نعرف كل شيء، المهم أن نستخلص الأسئلة التي يطرحها الشيء، أما الأجوبة فسنهتدي إليها يوماً ما، طال الزمن أم قصر، ومجموعة (هديل على الحدود) لفاروق أوهان تثير عشرات الأسئلة التي تقودك الى لذة اكتشاف تغرقك في متعتها التي لا تنتهي فما علاقة حنين بلا ضفاف بلذة الاكتشاف؟

الندم والأسف:

لکم أشعر بالأسف العميق لأنني أغفلت الكتابة عن هذه المجموعة الرائعة، الندم يتآكلني، كان علي أن أقدم هذه القراءة منذ صدورها قبل عامين، لا لأنها جيدة وممتازة فقط، بل لأن فيها نكهة الجبل ومدنه، والبراري التي تحيطه، والتلال التي تنزرع في أفقه، الهضاب التي ترتفع وتخفض على مد البصر، العادات والقوانين والأعراف التي تتحكم فيه والتي نشأت فيها، وباختصار شديد: المحيط الذي أعشقه وأعشق نباتاته وأعشابه وألوانه، وألحان شعوبه البسيطة الطيبة الكريمة وطقوسه ورقصاته ودبكاته في وقت الربيع، وتنوع فسيفسائه ونمنماته وأديانه وطوائفه وأثنياته التي لم يسبر غورها أحد الى حد الآن.

تلك بيئة شمال العراق المنفردة الساحرة التي تذوب فيها شخصية وأدب وكلمات وقصص فاروق أوهان في (هديل على الحدود) لتكون صورة فنية لا حدود لامتدادها، يتداخل فيها التشكيل والواقع، ريشة الرسام وزيتته وخيالاته، الفوتغراف وكامراته، القلم وحبره، الفكر والواقع، الصوفية في أسمى معانيها، والعسكرية الفظة في أقسى أشكالها، الكنائس والجوامع، أصوات مرتلي القرآن والأذان وأجراس البيع والكنائس، البيوت والكوى المحفورة في حيطانها، الأبواب الخشبية المزخرفة، والشبابيك وزخارف الحديد التي تغطيها، زهور الربيع البرية ونباتاته وو.. الى ما لا نهاية.. أيستطيع قلم بسيط أن يصور حياة كاملة مفعمة بالخصوبة؟

سيقول الجميع: لا.. لكلي أقول نعم، لأن قلم أوهان صور كل شيء.. ربما يعود سبب تأخري في الكتابة عن هذه المجموعة الى أنني أردت أن أقدمها بصورة مثالية تعادل أحلامي ونكرياتي التي تسحبني من دون شعور الى سعادتي، مرتع صباي، طفولتي، وهذا مستحيل، كيف يمكن أن يكون الواقع معادلاً للخيال؟ لم أستطع أن أعبر ولن أستطيع.. فالتعبير يعني أن أعادل نبض الوجدان بكلمات، الأحاسيس بحروف جامدة، الهناء بجمل، تهيت، كيف يمكن أن أبدل كل ذلك السحر بكلمات؟

أليس هذا ضرباً من الجنون؟

هذا ما أحسست به عندما قرأت ما كتبه (فاروق أوهان) في (هديل على الحدود) نعم.. لعله كذلك، ولعله سيكون ضريبة حب تلك البيئة الرائعة، البيئة التي عبث المغول بها ومازالوا يعبثون بها منذ سقوط بغداد قبل سبعة عشر عاماً والى حد الآن.

ضريبة الانتماء:

يدفع العراقي ثمناً باهظاً لقاء انتمائه لهذا الوطن الحريق في وقت فاسد مأزوم، فإن كان إنساناً عادياً يجب عليه أن لا يقول لا منذ أن يولد والى أن يموت، أما بالنسبة للأديب فلا يستطيع أن ينشر أي شيء مخالف للرقابة مهما كان ذلك الاختلاف، فعلى سبيل المثال لا الحصر صدرت عشرات المجلات الأدبية في العراق قبل ١٤ تموز ٥٨ لكن لم تبق أي مجلة أدبية أكثر من شهر واحد، ولم تصدر أكثر من عدد واحد أو اثنين منذ أن شكل الإنكليز الحكومة العراقية سنة ١٩٢١ ونصبوا دميته فيصل الأول ملكاً على العراق.

بعد ١٤ تموز ١٩٥٨ أجزت المجلات الأدبية لأول مرة، لكن تلك الحرية لم تلبث أن انتهت الى غير ما رجعة بعد ٨ شباط ٦٣.

انعدام الحرية في العراق وخلوه من المجلات الأدبية، والتشجيع والنشر جعل الأدباء العراقيين يلجؤون الى المجلات الأدبية في الخارج والتي عاملتهم بانتقائية ومزاجية فمات أدبيّاً الكثير ممن لو تيسرت له ظروف النشر لكانوا من القمم.

لكن من حسن حظ (فاروق أوهان) أنه لم يمت، لأنه اختار منفاه بإرادته خارج العراق، وإلا كان كغيره في "خبر كان"، لكن هل كان المنفى هو الحل؟

نشر (فاروق) أعماله في أكثر من قطر عربي، كان حسن النية، كان يظن أن قيمة الإنسان.. الأديب تثنى من خلال أعماله! لكنه كان واهماً، لماذا؟ لأن القطرية ترسخت، أصبح فاروق أوهان وغيره من المنفيين والهاربين ضحية أفكارهم المثالية، ففي هذا الزمن الصعب لا يجلب العمل الأدبي مهما كان متقدماً وممتازاً اهتمام النقاد إن لم يكن الكاتب محسوباً على فئة ما، اتحاد ما، رئيس تحرير مجلة ما، وبهذا فقد فاروق وغيره من المنفيين والهاربين كل ما يمكن أن يكون وسيلة للتقويم أو التقييم، فأين يضع المبدع قدمه في هذه الفوضى؟

وقع فاروق ضحية مبادئه السامية، لم يدرك أن بقية العرب خاضعين لقانون المادة، قانون المصالح الشخصية، المنافع الأثنية، التعصب للمنشأ أو القطر أو.. خاضعين لقوانين

السهرات والمحسوبة والمنسوبة، وإلا من كان يعتقد يوما من الأيام أن شاعرا أقل من وسط (إبراهيم نصر الله) أو كاتباً متواضعا كفهمي جدعان يفوز بجائزة العويس! أكان أحدهما أو كلاهما فاز بها لولا وجود (إحسان عباس) في لجنة التحكيم! بينما تحجب نفس الجائزة عن شعراء وكتاب، عاشوا في المتفى، وهم أعظم وأهم، لكونهم غير مرشحين من اتحاد كتاب ماء، أو ليسوا مدعومين بمحكم منحاز، وأمثلة هؤلاء المستحقين المغبونين كثيرة منها الراحل هادي العلوي، أو علي الشوك أمد الله في عمره، على سبيل المثال.

هذا حال أوهان ومن شاكله ممن أجبروا على ترك مراتع صباهم.. فهل يقدر لسه أن ينجح من غير سند؟ أن يعوم عكس التيار؟

الكم والنوع:

هناك معركة دائمة بدأت منذ فجر الخليقة ولم تنته الى حد الآن، معركة النوع والكم، فعندما نقرأ ما ينشر من قصص قصيرة في أرجاء العالم العربي نفاجأ بذلك الكم الهائل من المجاميع والمنشورات، فعلى سبيل المثال لا الحصر وجدت في المجلات التي وردت إلي، خلال شهر واحد، إحدى وسبعين قصة قصيرة منشورة في بضع عشرة مجلة، أما إذا أضفنا ما ينشر في الجرائد اليومية والأسبوعية فسيكون الرقم أكثر من مئتين، هذا في مكان محدود من الوطن العربي، وإذا أردنا أن نحيط بكل الوطن العربي فسيكون العدد بالآلاف، أي ناقد يستطيع أن يقوم أو يقيم كل تلك القصص؟ وعلى عاتق من يقع التقويم أو التقييم؟ هنا يجب أن تخضع الأمور الى منهجية تقوم بها لجان مسؤولة مهمتها غربلة هذا الكم الهائل بعيدا عن الانتقاء الكيفي، والتغليب المصلحي، واستبعاد من لا علاقة له بالموهبة أو الإبداع أو الفن، والقضاء على الانتقائية التي تهمل النوع على حساب الكم، ومحاولة إنهاء الوساطات، والمحسوبيات والمنسوبيات، لكي لا تكون النتيجة بيع الجواهر بسعر الفحم والفحم بسعر الجواهر وليوضع كل نتاج في مكانه الصحيح..

المجموعة:

تتكون مجموعة (هديل على الحدود) من ست قصص، وقبل أن نخوض في بحارها، نتوقف على العنوان: الهديل.. صوت الحمام، لماذا الهديل؟ في كل بيت عراقي هناك حمام، يرييه أحد سكان البيت، أو كلهم، أو يتركونه بينهم من دون الاهتمام به حتى يصبح مألوفا لديهم ويصبحون مألوفين لديه.

احترام العراقيين للحمام لا يمكن أن يشاهد له مثيل في أي بلد آخر. في سنة ١٩٩٦ عندما ذهبت الى مصر لتسلم جائزة نادي القصة، عن روايتي (نهاية النهار) دعائي (محمود أمين العالم) و(ماجدة الطهطاوي) على حمام محشي، وكنت أظن أن الحمام عندهم يعني الدجاج، لكنني فوجئت بالحمام العادي الذي يحرم العراقيون أكله، لا بل رأيت في أم عيني عندما كنت طفلا في (محلة الساعة) وهي قريبة من بيت فاروق أوهان تجمعاً لتأبين شخص مات دفاعاً عن حمامة، في بلدي أناس يتغزلون بالحمام، هذه مطربشة، هذه مقنعة، هذه محجلة، هذه طاؤوس.. الخ.

إذا فاختار كلمة "هديل" مقصود لكونها كلمة جذب مغناطيسي لواقع البيئة واختيار كلمة "الحدود" مقصودة أيضاً لكونها كلمة طرد فيزيائي معادل للجذب، فالعراقي عراقي حتى لو نفي، حتى لو اختار المنفى، تلك هي المعادلة الصعبة، اجتماع النقيضين. لكن كلمة الهديل بالرغم من قصديتها ملبسة، تتداخل فيها المعاني والأغراض، ولهذا قال المعري:

أبكت تلكم الحمامة أم غنت على غصن فرعها المياد
المعري معذور لأنه لم يفرق بين البكاء والغناء لأنه عاش في العراق حيث يختلط الحزن بالفرح، اللطم بالرقص، النصر بالهزيمة منذ فجر الخليقة والى الآن.

الهروب:

تتكون المجموعة من ست قصص لا يجمع بينها جامع سوى "الهروب"، وربما يتصور المرء أن الهروب قيمة سلبية لا إيجابية، لكنها في المنظور العراقي المحلي المشبع بالروح الدينية التي تتخذ من سيرة الرسول مثلاً أعلى يصبح الهروب إيجابياً، فلقد دعا القرآن المستضعفين في الأرض الى الهجرة، وبناء على ذلك هاجر المسلمون ثلاث مرات كانت الأخيرة حاسمة بالنسبة إليهم، وبهذا رسم الشعب العراقي طريقة التخلص المثلى من الدكتاتورية والظلم بالهجرة والمنفى بعد أن عرض أنكباؤه وطليعته ومفكروه للقتل والإبادة والتجويع والتنكيل.

لهذا كله يكون فاروق أوهان أمينا على واقعه، صابقا مع نفسه، وهذه ميزة تكاد تفقد في عصرنا الحاضر بين الأدباء والكتاب، حيث ابتز النظام المفكرين والمبدعين بلقمة العيش، بالحرية، بالحياة، بنسمة الهواء.

أما التفصيلات فكما يأتي:

١- فرس الخضر: قصة جندي بريء يرى نفسه بين فئتين شقيقتين تذبح إحداهما الأخرى من دون تفكير، فما عليه بعد أن يعي حقيقة الحرب التي دامت عقوداً طويلة إلا أن يهرب إلى حيث لا مهرب، كان يريد أن يتخلص من كلا الطرفين المتحاربين، لا لأنه يكرهما، بل لأنه يعز عليه أن يراهما يقتتلان فمن الأولى انحدر ذوو والده ومن الثانية جاء ذوو والدته، لكن ما إن يبدأ بالهروب حتى تأتي رصاصة من إحدى الفئتين تقتل فرسه، بينما تأتي رصاصة ثانية من الفئة الثانية تقتله:

وأشعرنى أغوص في الموت الدافئ وسائل ساخن ينزلق على ظهري، فلا أرى لمصدره مكاناً فهل هو دمي الذي يشخب من عروقي..

وهكذا يشترك الطرفان المتحاربان في قتله، وربما كان هذا هو معنى الانتصار، انتصار الجبناء الذي يفهمه القتلة، وهو قتل الأبرياء فقط، لقد اعتاد العراقيون في أزمنة الخيانة والغدر أن لا ينتصر جيشهم المقدام إلا على شعبه.

٢- بوتقة الصمت: هارب آخر لكنه يختلف عن بطل فرس الخضر، هذا الهارب ينجح في الوصول إلى منفاه، يعمل، يستقر، لكنه يصاب بداء لا وجود له، وهو الماضي الذي يعود بما يشبه الأحلام، فيجعله يضطرب ويخطئ فيعرض نفسه للفصل. وتتكتك ساعة الحائط فوق رأسه، وهو يهيم في دروب الصدى المتردد والمترجع، كرنين دقات الساعات في أسواق (هونك كونك) المفتوح على الخارج بكل عواهرها، وسماسة الدعارة..

يهرب من سيف على الرقبة في وطنه، ليجد الرقبة الهاربة نفسها تحت سيف مدير متسلط في المنفى يجتث أحلامه، فماذا يفعل؟ لا شيء غير الانكفاء إلى الذاكرة التي تهرب بدورها إلى محيط الدعارة في هونك كونك، وكأنها بذلك تضع كل المتسلطين في مستنقع الجيفة والتفسخ..

٣- هديل على الحدود وهي عنوان المجموعة وهي قصة هروب عائلة تتفرق كلها خوفاً من الاعتقال والموت، بعد أن انكشفت الخيوط التي تربط المعارضين.. ففي الصباحات الباردة من أواخر كانون الأول، أجبرت على سفر مفاجئ إلى غربة طويلة الأمد داخل الوطن، بل اختيار أو قرار، لأن العودة إلى الدار فناء وشيك لا محالة..

كان هناك من يتعقبه، وكان هناك ضحايا كثر سقطوا، ومنذ ذلك الوقت تبدأ رحلة العذاب..

٤ - حمدة معشوقة نوزاد، وهي قصة فرس (حمدة) يرببها ويتعلق بها مواطن كودي (نوزاد) لكنها تنكسر قوائمها فيتوجب عليه أن يقتلها، لم يستطع، يهرب ويلقي المسؤولية على رفيق له.. وهذه القصة تنتصب لنا كمعلم عراقي أدبي لا لأخوة العرب والأكراد الأزلية ساعة المحن حسب، بل للرفق بالحيوان وحبهم له وبخاصة في الأرياف:

ويودع نوزاد بالتفانيات متكررة روح وجسد معشوقته، ويحس بأنفاسها تتساقط أدراج غيمة فوق جدول سيد صادق، والمياه تجري من تحته بسكون وصمت حزين.

٥ - (كانت) قصة حبيبين يتزوجان حديثاً لكن الزوج مصاب بداء الذكريات، ويحسب أن يحدث زوجته عن طفولته في قرية بامرني، وبساتينها، وجمالها، وأناسها، طفولته التي يهرب إليها كل يوم، كل ساعة، ثم يحلم بأن يحقق حلم الهروب، وعندما يتسلم سيارته بعد خمس سنوات من الانتظار يصحب زوجته من جنوب العراق حتى شماله، ليحقق حلمه، يذهب إلى كل الأماكن التي عاش فيها وأحس بالسعادة والفرح، لكنه يفاجأ بأن القرية مسحت من الخريطة لوقوعها بين فئتين متحاربتين، الجيش من جهة والبيش مركبة من جهة أخرى، وفي الكارثة يقتل من سكانها ويرحل من يرحل، فلا يبقى منهم سوى مجنون ومعهزة.. وفي القرية تدمر قذيفة سيارته الجديدة، فكأن بالكايب يريد له أن يبقى ليستأنف الحياة مع زوجته هناك، أو كأن القدر يريد له أن يموت في نفس المكان الذي ولد فيه، لكن أمر الجيش في تلك المنطقة يكافئه على حرق سيارته، بأن يرجعه وزوجته بهيلوكبتر عسكرية، وإذ ينظر من الأعلى يرى الحرائق والدمار الذي حل بمهد ذكرياته، لكنه يخشى من تدقيق النظر:

وخاف أن ينظر مجدداً لكي لا يرى مفاجأة أخرى تمحو أو تخلص ما تبقى من ذكرياته، كأن يرى الأرض وقد صارت بلون النبيذ الغالي، لهذا أغمض أجفاته، ولم يفتحها إلا عندما شعر بهبوط الحوامة على الأرض..

الهروب هنا هروبان، هروب من الذاكرة، وهروب من القمع.

أما أجمل القصص وأطولها فهي قصة: حنين بلا ضفاف.. ولست أدري لماذا لم يكتبها رواية، فالموضوع طويل ومعقد وله تفاعلات تليق برواية، لكنه أثر أن يختصر الحوادث لجعلها قصة قصيرة، وهو حر في موضوعاته.

حنين بلا ضفاف رائعة بكل ما للكلمة من معنى، إنها تصور مجنة العراقي في وطنه وهروبه ومنفاه وتشرده في كل بقاع الأرض هو وأطفاله وقدره ومصيره.

تبدأ القصة بدخول يونس المنفي عن وطنه إلى شقة أجراها لبضعة أشهر يقضيها في

بودابست ليكمل فيها بحثه، وفي الشقة تقع عيانه على مخطوطة تعود الى ساكن البيت السابق، وشريط فيه بعض التسجيلات، ومن المخطوطة والتسجيلات يكتشف أن من كان يسكن هنا عائلة عراقية تعاني من نفس مشكلته، هاربة من العراق، وأن هذه العائلة قد أجبرت على مغادرة الشقة لأنها تجاوزت قوانين الإقامة..

الحنين:

تحدث قصة حنين بلا ضفاف كما رأينا في المنفى، لكنها في الواقع تعيش في جو عراقي صرف، محدد بالمنطقة الشمالية منه، الموصل وما حولها، هناك تبدأ الحوادث لتتنامى في الغربة، يبقى الوطن مسيطرا، هناك جذور لم تنقطع، لا بل لا يمكن قطعها، هناك الأهل والطفولة والأولاد يعيشون ويلعبون ويدرسون ويتطورون، يمتزج الماضي والحاضر في دمائهم، تتداخل البيئتان في عيشهم، في صياغة أحلامهم، في تكوينهم، وعندما يجدون موطن قدم لهم في بيئة جديدة غريبة عليهم يكتفونها حسب مقاسات كانت موجودة لديهم من قبل في الوطن، ولذلك تبقى لصيقة بهم، لا تتسلخ منهم كما لا يبقى الوطن بعيدا قط، لا يمكن أن ينسلخ.

ومن هنا يبدأ الشيء الرقيق الرهيف المعنوي الذي يطلق عليه الناس الحنين، ويخيل إلي أن الحنين ما هو إلا خيوط الأبريسم الحريرية القوية والرقيقة معا والتي تشدنا الى الماضي وأحداثه، فكيف صورته فاروق ونجح في تصويره؟

ولأن يونس رأى النور وترعرع في مدينة تقع على ضفاف نهر فهو يفضل أن يعيش في مدن مشابهة، فمن شقته الجديدة:

يشرف على جزء هام من المدينة حيث النهر ينساب أمامه، تحت الجسور الستة التي يراها من هنا، ويرى النهر واضحا من المكان الذي يجلس فيه..

النهر وأشياء كثيرة أخرى سنراها مربوطة بخيوط الأبريسم الحنينية فعندما فتح الثلجة وجد رأس تلك الخيوط:

فاحت رائحة غريبة ذكرته بروائح سوق السراي في مدينة الموصل، فانتصبت دكاكين البقالين أمامه، منبعثة من خلال رائحة ماء عين كبريت، وقد امتزجت فيها روائح الهال والعطرة والمستكي والجوري والناس يذهبون ويعودون من مكان الى آخر، والباعة يعرضون بضائعهم المستديمة.. و..

ولأن يونس وحيد ليس عنده من يؤنسه فقد اشتد حنينه الى الوطن عندما رأى آثار

أطفال كانوا يعيشون في البيت، ثم بعد ذلك رأى الشريط الذي أحدث انقلاباً في اكتشافاته، ووجد كذلك مجلات عربية، وأخرى لمنظمات ممنوعة في الوطن، ثم آثاراً تدل على أن العائلة كانت تعيش على: راتب الإعانات الحكومية الذي لا يكفي، ثم يحدث ثاني اكتشاف بعد الشريط، اكتشاف مذكرات تبدد أسرار العائلة، وفي هذه اللحظة أحس يونس أنه ريسب حياته بحياة من كان يعيش في البيت، وكأنه كان يعيش في بيت مسكون بالأرواح، وتتداخل القصة بلذة الاكتشافات.

في المذكرات تحتفي العائلة بضيف يحل عليهم احتفاء كبيراً، ومن بعد نكتشف أن هذا الضيف ليس غير طائر لا أكثر، ولأن الطائر يجب أن يكون فرداً من العائلة، ولما كان لكل فرد منهم اسماً فعليهم أن يطلقوا عليه اسماً كذلك:

أجروا استفتاء على الاسم الذي سيدعونه به، فقد كانت رغبة البنات الصغيرة أن يكون الاسم هنغارياً، واقتُرحت اسم أرباد ولكن الولد كان يصر على اسم يمام، اسم ابن أصدقاء العائلة في مدريد، سرعان ما غير رأيه إلى عراق اسم ابن صديقهم التي حصلت على لجوء في ألمانيا، أما الأم والأب فقد كان في ذهنهما اسم مشترك بينهم وبين الوطن هو سلمان رغم أن سلمان الذي تعلق صورته في الصالة يراه الصغيران أكبر بكثير من أبيهم..

هنا تعود خيوط الأبريسم الحريرية لتحدث التداخل بين يونس والعائلة العراقية المنفية التي سكنت الدار، وبين أسباب النفي، فبالإضافة إلى أن الطائر كان نقطة يتركز فيها الحنين إلى الوطن إلا أنه أصبح الرابط الرئيس، لأنه استرعى انتباه يونس منذ البداية عندما رآه على غصن شجرة قرب البيت في عش بدائي غير كامل، ولما كان يونس يفتقد طيور بلده الأليفة فما أن رأى قفصاً مهجوراً في البيت حتى بدأ يخطط لجذبه إلى القفص، ثم:

فرح كثيراً لأن حياً آخر ربما سيشاركه في بيته الجديد، لو استطاع أن يستدرج هذا الطائر إلى هذا العش، ليعيش مستأنساً، مع كائن حي يبعد عنه وحشته الدائمة..

فأصبح وضعه وضع العائلة العراقية التي ما إن رآته حتى استضافته، وبقي معها إلى أن غادرت، لكن يونس وقد فتح الطائر شهية ذاكرته، يسمع تغريداً لم يستطع تحديد مصدره:

فتظل أعينه ورأسه معلقة إلى فوق بشكل مشدود، وقد تداعت إليه أصوات كل الطيور في وطنه وبخاصة الفواخت في أعلى شجرة توت حوش دارهم الخلفي، ويبقى

يونس منتعشا رغم تعلق رأسه وعينيه الى أعلى بوضع مؤلم جعله يقيق، وها هو يسمع غناء طائرته وقد شق الفجر مبسمه على الدنيا.

ثم يخترق الطائر أحداث القصة مرة ثانية، يأتي رأس العائلة التي كانت تسكن في البيت، ليسلم النسخة الثانية من المفتاح، فيلتقاه يونس بحميمية لأنه كان يعرف كل شيء عنه وعن عائلته، وبعد البوح اكتشافا أنهما أقرب الى بعضهما مما يتصوران، فلقد وحدثهما أكثر من نقطة، كلاهما منفيان، لهما الهموم نفسها، المصير نفسه، وعندما افترقا قرر يونس أن يعتني بالطائر، لكن الطائر لقي حتفه بعدئذ على يد نسر متوحش.

أرمز فاروق بقتل الطائر الى نهاية القضية التي توحد العراقيين المنفيين؟

نعود الى البداية.. السؤال: ما علاقة حنين بلا ضفاف بلذة الاكتشاف؟

قد نذهب الى قطر جديد فيه أجمل مناظر الدنيا، لكننا لا نهتدي الى الطريقة التي نستطيع أن نكتشف فيها أسرار جماله، لا نكتشفها لأننا لم نتعلم كيف نستخلص الأسئلة التي تقودنا الى تلك الأسرار، وبذلك نرجع بخفي حنين.

إن (حنين بلا ضفاف) تكشف لنا مراحب الطفولة، أغانيها، ألعابها، قصصها، جوها الرائع اللطيف بعواطفه، بمشاعره، برواه البكر، وكيف ترتبط تلك الأشياء كلها بخيوط الحرير تمتد الى القلب، والمشاعر، والوجدان، أيمن أن تكون قد علمتنا لذة الاكتشافات الحميمة الى القلب؟ ولعل خير الاكتشافات هي اكتشافات الداخل، فكيف نكتشف الدنيا ونحن نجهل أعماقنا.

عرض مسرحي في برلين

مجيد القيسي

(الجد والسيد) مسرحية عراقية قدمت على مسرح (دار الثقافات العالمية) في برلين، مطلع شهر نيسان ١٩٩٩. المسرحية من إخراج الفنان (عوني كرومي) وتمثيل الفنانين (خليل شوقي ومنذر حلمي) وهي باللغة العربية الفصحى. تتخلل الحوار عبارات عامية باللهجة العراقية. ورغم ذلك كان هناك حضور ألماني الى جانب الحضور العراقي والعربي الذي نادرا ما تنهيا له إمكانية رؤية مسرحية عراقية أو عربية في برلين.

بدأ العرض الأول الساعة الثامنة من مساء يوم الجمعة المصادف ١٩٩٩/٤/٢. رفع الستار عن مسرح متواضع في تكوينه وبساطة محتوياته. في مقدمة المسرح تمثال الإله (مردوخ)، ظهره الى الجمهور ووجهه الى عمق المسرح وكأنه يتربص حركة الممثلين أو ربما كان هو أحدهم. وفي اليمين طاولة صغيرة، وفي اليسار منبر لف بوشاح أبيض، بجانبه طاولة وضعت عليها بعض الحاجيات الضرورية للمسرحية، كألواح الرسائل المسمارية وغيرها. وعلى اليسار مد بساط شرقي. وفي الخلف قرب الجدار وضعت شماعة علقت عليها بعض المعاطف وعباءة عربية. أما في الوسط فقد جلس السيد والشاعر في ذات الوقت ملتفا بوشاح زاهي الألوان الى طاولة مستطيلة انتشرت فوقها ألواح مسمارية متعددة، تبدو، عند رؤيتها للوهلة الأولى، وكأنها هدايا أحضرت للسيد الذي كان يقوم بدوره الفنان (منذر حلمي). ظهر السيد عند إزاحة الستار جالسا ثملا يبربر مع نفسه. وبالقرب منه كان العبد العجوز يعد تجهيزات سيده بصبر وأناة. نهض

السيد من مكانه يترنح، فلقد لعبت الخمرة برأسه. الزجاجاة التي كانت بيده تبدو فارغة. لقد رشف آخر قطرة فيها.

تقدم العبد، الذي كان يقوم بدوره (خليل شوقي) بخطوات بطيئة حيث جلب معه دلوًا من الماء، ثم شرع يرش الأرض ليبردها، كي ينعش سيده. وبينما هو كذلك، بقي السيد يترنح على خشبة المسرح بلباسه المهيب وبخطواته غير المتوازنة، تتجاذبه الأفكار، فكل خيال كان يسحره، وكل فكرة تتخل رأسه كان يتبناها، ويتحمس، راقصًا تارة، وشديد الحزم تارة أخرى. كل صغيرة وكبيرة لديه تعد مشروعا. كل أمنية، كل خيال، بدءًا من الطعام، ومرورا بمشاريع العشق والزواج، وانتهاء بمشاريع الثورة والدفاع عن الأهل والوطن. وما طرح مشروعا إلا وباركه العبد، وما استقر رأيه على مشروع طرحه قط. فقد كان قلقًا إلى حد لا يوصف. إن اضطرابه أصبح بالنسبة للمشاهد واضحًا، كذلك هو الحال بالنسبة للعبد، كان يبارك ويلعن كل مشروع، انسجامًا مع مزاج سيده، ولكن مباركته ولعنته لا تخلو من السخرية والحكمة. إنها كما يقول المثل "بليّة" و"شر البليّة ما يضحك".

وكم سر العبد عندما تفتحت أسارير سيده وشعر بحاجة إلى الطعام "أريد أن أكل". أجل يا سيدي. لا بد أن تأكل كي تستطيع أن تكتب. وبينما كان يهم بإعداد الطعام والشراب. غير السيد رأيه، فحاول العبد عبثًا إقناعه: يا سيدي: "إن الإله مردوخ يبارك كل من يغسل يديه قبل الطعام". لقد كرر مقولة الإله ثلاث مرات دون فائدة. رفض السيد رجاء العبد ولم يأكل ولم يشرب ومضى يتصرف مثل مجنون وحكيم في آن واحد مثل شجاع وجبان في ذات الوقت. وكان العبد رغم حكمته ودرأيته صدى لأفعال سيده، يباركها بحكم الطاعة، ولكنه ما لبث أن سئم خدمة سيده وهم بالانعتاق والرحيل عنه. وأخيرًا استشاط غضبًا عندما رأى سيده غاضبًا يزار من الكسل والسأم. تقدم بضع خطوات نحو مقدمة المسرح ثم انحنى نحو الإله مردوخ فانتزع من مكانه وأتى به إلى سيده قائلاً: "اقتلني إن شئت بهذا الإله" أو بهذه الفأس. ثم أعلن عن انعتاقه بنفسه: "أنا لست عبداً لك وأنت لست سيداً لي..." أنا راحل عنك..

لقد أصاب السيد الذهول وأدرك غضب العبد، فتناول لوحًا فارغًا من ألواح الطين ثم أمسك بمسماره وتضرع للعبد بالبقاء: لا تذهب عني يا عبيدي، سأبدأ بالكتابة، لا تتركني يا عبيدي. إلا أن العبد أبى إلا أن يرحل. نظر إلى سيده نظرة الفراق ثم حمل فأسه على كتفه الأيمن وقبل أن يغادر المسرح استدار نحو سيده وكأنه يواسيه: سأعود إليك عندما تعود

الى الكتابة. وبينما شرع السيد بالكتابة يحفر بمسماره نزل العبد من سلم المسرح بخطوات بطيئة وسار بجوار الجمهور حتى أضيئت الأنوار وأسدل الستار فصفق الجمهور لانتهاء العرض الذي كان قصيرا.

إن هذا العمل الفني هو محاولة نقدية للأوضاع السياسية في العراق، في بلاد ما بين النهرين. فمن خلال الرمز التاريخي للعراق القديم أراد المخرج (عوني كرومي) أن يضع تبعة مأساة البلاد على عاتق المتقنين الذين أثبتوا عجزهم عن القيام بشيء، عجزهم حتى عن الكتابة والتفكير. فلم يعد يشغلهم شيء سوى احتساء الخمر، ومواصلة الهذيان، وكثرة الجدل، وقلة الفعل والعمل. إن "الشاعر" السيد يحاول التثبت بكبريائه، ويراوده الشعور على الدوام أن العباد أذن صاغية له. أما العبد فقد سئم الهذيان، وأذن لنفسه بالرحيل. وبرحيله تبدأ مرحلة جديدة تنذر بتغيير التوازن الاجتماعي وتضع العبد والسيد على قدم المساواة، وتحذر السيد مما هو عليه. فبدون استعادة النشاط، وبدون تحريك العقل والعودة الى الكتابة، فإن الرحيل سيكون أبديا وإن الكارثة ستكون أكبر.

فإذا كان هدف المخرج من تجاوزه على النص الأصلي كثيرا، هو الوصول الى وضع "السادة المتقنين والشعراء" في قفص الاتهام، فهو لم يتمكن من بلوغه، لأن السيد والعبد - كما شاهدنا - كلاهما ضحية، كما أن هناك حقيقة أغفلها المخرج وهي أن الطبق رغم سعته لا يصلح للجميع، وأن المقاييس مختلفة نوعا ما، فهناك من عاش وعشق وتزوج في مقابر الشهداء، وهناك من أكل وتكرش ولم يغسل يديه "ومربوخ يبارك من يغسل يديه قبل الطعام".

برلين ١٠/٤/١٩٩٩



أي منطاد للقرن الجديد؟!

قرننا العشرون بدأ بمنطاد (زبلن)، واختتم بمنطاد (برايتلينغ أوربينز ٣).. وذلك - لعمري - فال حسن لنا - نحن أبناء القرن العشرين - فقد تحقق لنا حلم الطيران على أحسن ما يكون وأسرع، وإن كان، في الوقت ذاته، على أبشع ما يكون وأفظع، إذا ما نظرنا إلى الحراف العلوم الإنسانية الخادمة للإنسان، نحو مرام مدمرة له ولحضارته الباهرة.

إن حلم التحليق لهو الحلم الأهم في تاريخ البشرية.. وحتى لو أن الإنسان لم يحقق حلم (إيكار - فرناس)، فإنه كان وسيظل يحلق، لأنه الوحيد - ربما - من بين كل المخلوقات، الذي له الطوبى في نعمة الخيال البعيد المخلق إلى أبعد مما تستطيعه كل المخترعات التي ابتكرها أو يبتكرها، أو سيبتكرها.. وإذا كان منطاد (زبلن) فاتحة لعصر الطيران، فإن (برايتلينغ أوربينز ٣) يمثل لي - شخصيا - تأكيدا للمعنى الإنساني للطيران، لا للمعنى النفعي، بل هو ينطوي على تأكيد روح المغامرة الناصعة، بعيدا عن النفعية.. تلك النفعية المباشرة والقيحة التي شوهت معظم أنشطة الإنسان ومنجزات الحضارة الإنسانية.

أقول هذا، لأنني أرى أن المحاولة الجديدة للطيران بالمنطاد، بعد كل ما حققه علم الطيران خلال هذا القرن، هي محاولة لتأكيد براءة الحلم الإنساني بالتحليق الذي يعنى بالروح الإنسانية، قبل أي شيء.. وحتى لو كانت تجربة التحليق الناجح حول كل العالم بمنطاد، من قبل السويسري (برتران بيكار) والبريطاني (بريان جونز) نوعا من المغامرة الشخصية، أو لإبراز العضلات الشخصية، فإنها تظل علامة فارقة للنزعة الإنسانية - الطفولية التي لا يمكن قمعها، مهما استبدت القوة، والقتيلة، والحروب من كل نوع.. من حرب الأسعار، حتى حروب النجوم..

.. وحتى لو كان المواطنان برتران السويسري، وبريان البريطاني قد حققا نزوة شخصية، فإنهما، بالمحصلة، قد حققا حلما مكبوتا لدى البشر العزل، إزاء القوة، والقتيلة، والحروب من كل نوع.. ولقد حققا - ربما دون قصد - قولا يخامر النفس البشرية الضائعة، أواخر هذا القرن العشرين.. قولا لا بد منه.. قولا ينكرنا بأننا قادرون على التحليق حتى بدون مركبات فضائية، أو طائرات نفثة.

أخيرا، لا بد من تصور منطاد من نوع جديد ومجدد لحلم الإنسان على كوكبه.. لا بد من منطاد يؤكد الحلم البشري الخالد.. لا بد من منطاد نوعي نفتتح به الألفية الثالثة لأرضنا.. منطاد نجابه به حمى التسلط على حلم الإنسان.. حلم التحليق الحر، والسعادة المطلقة، حتى وإن كانت خيالا، مادام تحليقا يستبعد القوة، والقتيلة، والحروب من كل نوع!

إصدارات وردتنا

أنور المائي: الأكراد في بهدان، الطبعة الثانية، دھوك ١٩٩٩.

د. سلمان شمسة، د. عدنان جواد علي: البيئة وتلوثها بالأمطار الحامضية، منشورات الجا - مالطا ١٩٩٨.

رشيد الخيون: معتزلة البصرة وبغداد، طبعة ثانية مزیدة ومنقحة، دار الحكمة، لندن.

هيفاء زنكنة: ثمة آخر، مجموعة قصص، دار الحكمة.

علي الشوك: الأوبرا والكلب، رواية، دار المدى.

شاکر الأنباري: موطن الأسرار، رواية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بیروت ١٩٩٩.

سلام صادق: ما يمكن فضحه عن علاقة أبي بكافكا، قصص، منشورات الجميع للكتاب العربي، السويد ١٩٩٩.

العراقي: مجلة عراقية إلكترونية تصدر من أستراليا، شهرية، أدبية، سياسية، العدد الثامن، تموز ١٩٩٩، ساهم فيه: علاء مهدي، عدنان الظاهر، خالد الحلي، علي إبراهيم، يحيى السماوي، عبد الرزاق الصافي، عبد الوهاب طالباني، د. محمد حسين الأعرجي.

تموز: مجلة فصلية عامة تصدرها الجمعية الثقافية العراقية في مالمو، العدد ١١، صيف ١٩٩٩، ساهم فيه: عدنان الصائغ، إبراهيم اسماعيل، هيفاء الأمين، سلام عبود، د. عبد السلام عبد الوهاب الخزرجي، ماجد محمد، كاظم رشيد، م. محمد، عبد الوهاب البياتي، موفق محمد، دنيا ميخائيل، انريس علوش، عذاب الركابي، عبد الرزاق الربيعي، رياض النعماني، إبراهيم أحمد، أسعد الهلالي، صلاح أحمد، رافد سلمان، صباح الجزائري، حامد العامري، أكرم عامر، د. جاسم الحافظ، أبو نبأ.

اصدارات وردتنا

العراقي: مجلة عراقية إلكترونية تصدر من أستراليا، شهرية، أدبية، سياسية، العدد التاسع، السنة الثانية، آب ١٩٩٩، ساهم فيه: علاء مهدي، يحيى السماوي، خالد الحلي، فراس عبد المجيد، عبد الوهاب طالباني، عبد الإله الياسري.

أجراس: مجلة فصلية، مستقلة، تهتم بشؤون الفكر والأدب والثقافة، العدد ١٠، ساهم فيه: إبراهيم عباس إبراهيم، جيان الحصري، إدريس حسين، عبد الحليم يوسف، محمد علي عزيز شاكر، إسماعيل كوسية، باهوان عزيز أحمد، خالد حسين، عمر كوجري، ليلوز عبد الغني، إسماعيل رسول، عماد مصطفى، باقي دارا، محمود حسن الحاج، صبري رسول، رشاد شرف، أنا هيتا.

الاشتراك السنوي

٥٠ دولاراً أو ما يعادلها

١٠٠ دولاراً للمؤسسات

يدفع مقدماً بشيك مصرفي الى رقم الحساب ٤٦٧١٢٧-٤٢

ANI HAMED AYOUB
BANQUE LIBANO-FRANCAISE

Bar Elias, LEBANON

أو يدفع الى رئيس التحرير

يرجى المراسلة بشأن توزيع المجلة وماليتها على العنوان:

الثقافة الجديدة. سورية. دمشق. ص.ب: ٧١٢٢. تليفاكس: ٤٤٤٩٧٢٤

